الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الروايات الأوروبية اللاتينية والاغريقية

الملاحم

١ ـ نشيد رولاند
٢ ـ رتشارد قلب الأسد

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع

دمشق ١٤١٤ ـ ١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

كلما تعمق الباحث في ميادين تاريخ الحروب الصليبية ، يجد نفسه وسط مجموعة هائلة من الاسئلة التي تحتاج الى اجابات موثقة ، ويبقى على رأس الاسئلة: ما هو سر الاستجابة الشعبية الهائل للنداء الذي اطلقه البابا اوربان الثاني؟ ما الذي حرك مئات الالوف من الاوربيين للزحف نحو الشرق ولتحمل مخاطر الحملة؟ ثم ماسبب الحقد المرعب الذي حمله افراد الحملة الاولى تجاه المسلمين في الشرق الى حد انهم لم يكتفوا بإبادتهم بل اكلوا لحومهم بعد قتلهم؟.

لقد عرف التاريخ عددا من موجات هجرات الشعوب ، وجلها كانت هجرات شعوب بدوية ، لكن ان يهجر الناس مدنهم وقراهم ويرحلون نحو الشرق باسم الحج وتخليص الاماكن المقدسة من ايدي المسلمين فهذه ظاهرة فريدة من نوعها تحتاج الى البحث عن اسبابها البعيدة والقريبة.

وعبثا يحاول المرء ان يجد الاجابات الكاملة المقنعة في الروايات عن تعذيب الحجاج ، او في ازمات نظام الاقطاع الاوربي وتراكماته ، يضاف الى هذا إن الحديث عن الرغبات في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية لايقنع ، لاسيما ان ايا من زعماء الحملة الاولى لم يثر هذا الموضوع مع أركان الكنيسة الارثوذكسية او مع الامبراطور البيزنطي. هذا وإن الحديث عن دور الدول الايطالية والاهداف الاقتصادية سيكون متأخرا يرتبط بما حدث بعد

الحملة الثالثة ، وتبقى المسالة ليست معلقة بما اراده البابا اوربان الثاني او غيره لكن بالاستجابة الشعبية الهائلة لنداء الزحف نحو المشرق.

وعندي ان افراد الحملة الاولى عندما اكلوا لحوم العرب المسلمين فعلوا برغبة الانتقام والتشفي وليس بسبب الجوع والحاجة الى الطعام ، فما سر هذا الحقد الدفين لدى الأوربيين ، ومتى وكيف تكون؟

من المؤسف ان المصادر التاريخية لاتحمل الاجابة ، لكنها تساعد على رسم الاجواء التي عاشها الغربيون منذ القرن الثامن للميلاد حتى اواخر القرن الحادي عشر.

المجتمع الاوربي كان مغلقا الى حد بعيد ، شغلت فيه الكنيسة الدور القيادي الموجه مثلما شغلت دور مقر الثروة والثقافة والقيادة الشعبية ، واذا ما عدنا الى اخبار نشاط الفتوحات العربية في اوربا الغربية نجدها استهدفت الكنائس والاديرة ، وذلك في كثير من الحالات.

ومع هذا لانجد في مدونات الكنائس والاديرة ما نبحث عنه من اجابات ، اننا نجد ذلك في الملاحم الشعبية ، فالشعوب الصانعة الفعلية للتاريخ عبرت ان ارادتها ورغباتها وتصوراتها لأحداث التاريخ وعن مشاعر العداء او الصداقة من خلال الملاحم الشعبية ، وكتب التاريخ ، وإن لم تخل من بعض المادة عن الجماهير ، هي بالأصل سجلات لأعمال القادة والحكام.

وفوائد الملاحم كبيرة وكذلك عيوبها ، فالملاحم لاتتقيد بالتاريخ بدقة ولاتعطي الزمن قيمة كبيرة ، ولعل مرد ذلك ان التغييرات التي تنال الشعوب بعمق هي دوما بطيئة الحركة لاتتوافق ولاتتماشى مع التغييرات السياسية.

ولايجوز لاي باحث تجاهل الملاحم والتمنع عن التعامل معها ، لوجودها ولأنه لسوء الحظ لم يتوفر للجماهير من يؤرخ لها جماعة او فردا فردا ، وكان على راس الملاحم التي اسهمت في صياغة الرأي الجماهيري العام في غربي أوربا تجاه الاسلام والمسلمين ، وذلك بشكل عدواني رهيب فيه روح التعصب والانتقام : ملحمة نشيد رولاند .

ولن اتحدث عن محتويات هذه الملحمة فقد جاء هذا في مقدمة الترجمة ، ولقد بحثت عن نظير لهذه الملحمة في اوربا الشرقية فلم اجد ، وتعاملت مطولا مع ملحمة « دايجيس اكريتس » فلم اجدها تفي بالغرض.

ومع نشيد رولاند قدمت ملحمة رتشارد قلب الاسد ، لقوة الترابط ، ولأن شعراء هذه الملحمة ساروا على الطريق الذي عبده شعراء نشيد رولاند وتفوقوا عليهم تعصبا.

وانه لامر مثير للدهشة ان نجد صورة الاسلام والمسلمين لدى شعوب اوربا الغربية كما هي مرسومة في الملاحم ، على قرب اوربا الغربية من الاندلس وصقلية ، واعظم اثارة واشد غرابة استمرار هذه الصورة مع الجهالة بعد مضي قرن على قيام الحروب الصليبية ، فهذا مانراه لدى وليم الصوري وسواه من كتاب الغرب المسيحي ــ لابل حتى عند الشرقيين ــ ومرد هذا ان جل الكتاب هم من رجال الكنيسة ، ورجال الدين لايرغبون دوما في تغيير قناعاتهم الموروثة وتصوراتهم ، وهم ابعد الناس عن استخدام المحاكمة العقلية الصحيحة ، وهم في اوربا مثلوا الثقافة والعقيدة ووجهوا الجماهير وقادوها ، وقد يساعد هذا على تفهم جذور اسباب بعض الحركات الاصلاحية التي استهدفت تدمير الكنيسة.

ومما لاريب فيه ان الحروب الصليبية اثرت على اوربا الغربية والكنيسة فيها ، ومع ان اوربا هزمت في نهاية هذه الحروب عسكريا

في المشرق لكنها كانت قد حققت انتصارات هائلة في الغرب ، لأنها استعارت الخبرة الحضارية العربية لاسيما في مجالات التعامل مع العقل ، وبذلك اتيح لها ملكة المستقبل ، لكن وقتها فقد العرب المستقبل لانهم منذ ايام الحروب الصليبية شرعوا بالتخلي عن العقل تدريجيا ، فالجند الغرباء وقفوا دوما ضد العقل وكذلك شجعهم جل الذين تحالفوا معهم من رجال الدين ، فضلا عن ان التصوف كان قد تحول من حركة تفكر الى استسلام وغيبيات وطقوس غناء وطعام ورقص جذوبي

سيعثر القارىء العربي على كنوز من صور المشاعر في ملحمتي نشيد رولاند ورتشارد قلب الأسد ، واملي عظيم في ان يساعد هذا على دراسة اوفى لظاهرة الحروب الصليبية ، والله الموفق للسداد وهو من وراء القصد ، له الحمد والشكر – والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة ٢٦ / ١١ / ١٩٩٤

سهيل زكار

نشيد رولاند

مدخل

الشعر :

جاء في سنة ٧٧٧ وفد يمثل أمراء مسلمين من الأندلس الى الامبراطور شارلمان لطلب مساعدته ضد واحد من أعدائهم ، الذي كان أيضا مسلما مثلهم ، وكان شارلمان مشغولا بالحرب ضد السكسون ، ومع هذا تقبل دعوتهم ، وبعد تركيزه بعض الحاميات لتقوية حدوده زحف الى الأندلس ومعه جميع قواته التي توفرت له ، وقد قسم جيشه الى قسمين ، قام قسم منهما بعبور جبال البرانس الشرقية باتجاه جرندة ، وعبر الآخر تحت قيادته جبال البرانس البشكنسية (الباسك) وأخذا اتجاه بمبيلونا ، وسقطت المدينتان والتقى الجيشان واتحدا معا أمام سرقسطة التي حاصراها بدون نجاح ، وأرغمت تجدد أعمال القتال في بلاد السكسون شارلمان على التخلي عن حملته الأندلسية ، وفيما هو راجع يعبر جبال البرانس هوجمت ساقة جيشه من قبل طائفة متآمرة من البشكنس الذين كانوا قد زرعوا عدة كمائن على طرفي الممر الواقع بين الشعاب الجبلية الكثيفة الأشجار ، واستغل هؤلاء تعرجات الأرض وخفة أسلحتهم فانقضوا على جنود الساقة فقتلوهم حتى آخر رجل ، ونهبوا قطار الأمتعة والمعدات ثم اختفوا تحت جنح الظلام ، وختم المؤرخ ايكنهارد الذي روى هذه الحادثة التاريخية المحزنة في كتابه « حياة شارلمان » الذي كتبه حوالي سنة ٨٣٠ م ، ختم حديثه بقوله :« وقتل في هذه الواقعة ايغهارد حاجب الملك ، وأنسلم كونت القصر ، ورولاند دوق تخوم بريتاني مع أعداد أخرى كبيرة »، وزودتنا مخطوطة أخرى من القرن التاسع حوت بالشعر اللاتيني ماكتب عن وفاة الحاجب ايغهارد ، بتاريخ المعركة بأنه كان ١٥ ــ آب ٧٧٨ ، وجرى ذكر هذه الواقعة مجددا

في سنة ٨٤٠ من قبل مؤرخ آخر ، كان قد قام أولا باختصار الرواية المعطاة في كتاب « حياة شارلمان » ثم أضاف :« بما أن أسماء الذين سقطوا مدونة على السجلات لاأجد حاجة لاعادة ذكرهم في روايتي »

واختفت بعد هذا حكاية رونسيفو لمدة تقارب المائتي سنة ، وعندما ظهرت ثانية الى الوجود كانت قد مرت بعمليات تحول كانت بلا شك ستدهشنا لولا أننا رأينا الشيء نفسه يقع في حكاية حروب الملك آرثر ، فقد فعل سحر الأسطورة فعله وتضخمت الحوادث التاريخية الصغيرة حتى غدت ملحمة واسعة ذات أجزاء بطولية وأهمية عقائدية عالية ، فشارلمان الذي كان في الثامنة والثلاثين من عمره أيام الحملة الى الأندلس ، أصبح الآن شخصية عالية التقديس ، له مائتي سنة من العمر ، ملك لحيته بيضاء كالثلج ، انه الأمبراطور المقدس ، بطل المسيحية والمحامي عنها ضد المسلمين ، وأمير الحرب الذي امتدت أعماله التوسعية فعمت العالم المتمدن ، وغدت الحملة حدثا رئيسا في الصراع بين الهلال والصليب ، وتحول المغيرون البشكنس وتعاظم حجمهم وباتوا الآن عبارة عن جيش عملاق ضم آلافا مؤلفة من المسلمين ، واختفى اسم كل من ايغهارد وأنسلم من الساقة وبقي رولاند ، وبات الآن ابن أخت الامبراطور « والساعد الأيمن له » وأعظم المحاربين في العالم يمتلك قوى خارقة وطاقات ، وهو بطل انجازاته الرائعة لاتعد ولاتحصى ، ويرافقه أولفر صديقه الحميم مع عشرة آخرين من الاتراب ، وهي عصبة مختارة من الفرسان الذين لايوجد من يباريهم شجاعة ، انهم نخبة فرسان فرنسا ، وظل الكمين الذي ساقهم الى الموت نتيجة عمل خياني من الجانب الفرنجي ، غير أنه أصبح الآن قد كشف الغطاء عن أنه كان مؤامرة دبرها الملك مارسليون المسلم والكونت غانلون وهو نبيل فرنسي ، كان زوجا لأم رولاند ، وكان الهدف الكامل من المؤامرة تدمير رولاند نفسه وأترابه ، ونشأت المؤامرة وتأسست نتيجة للغيرة الحقودة التي شعر بها غانلون تجاه ابن زوجته ، وقد صيغت روايتها بشعور

درامي وشعور أخلاقي مع زوائد سيكولوجية ، يمكن أن تمتن عملية مقارنة مع دسائس ايغو المشوهة ، وباختصار بدأنا مع كارثة عسكرية من النوع العادي ، ولها أهمية صغيرة الى حد ما ، وحصلنا بشكل ما خلال قرنين من الزمن على ملحمة درامية رائعة ، لقد وصلنا الى نشيد رولاند .

وحسب معلوماتنا يبدو أن الشعر وصل الى شكله النهائي مع نهاية القرن الحادي عشر ، وليس من الصعب رؤية السبب الذي جعل الأسطورة تأخذ الشكل الذي أخذته ، وأيضا لماذا كانت شعبية في هذه الآونة ، فقد أصبح الخطر الاسلامي على المسيحية مزعبا مع نهاية القرن العاشر ، وقاد الى عدد من الحملات ضد مسلمي الأندلس مما كانت دوافعه بكل تأكيد دوافع دينية ، وفي الوقت نفسه أخذت سلسلة من الأقاصيص البطولية والأشعار تطرح بالتداول على طول مختلف طرق التجارة ، وسبل الحجاج في اوروبا ، وهي أقاصيص ارتبطت بأسماء بعض الأبطال المحليين وتعايشت مع المدن الهامة والأديرة المنتشرة على كل طريق ، وقاد طريق الحج الى معبد القديس جيمس الهام في كومبوستيلا الى الممر نفسه الذي عبرته ساقة جيش شارلمان وعانت فيه ماعانته ، فما الذي يمكن أن يكون أفضل موائمة للرحالة من أن يتعايشوا ويتسلوا بالنصوص التي تمجد المأساة المحلية ، زد على هذا لقد كان القرن العاشر هو القرن الذي شهد ذروة ازدهار النظام الاقطاعي وتطور قانون الفروسية الذي ربط التابع بروابط أداء خدمات دينية لسيده ، وبالاخلاص نحو أتباعه ، وأخيرا ألهب التبشير بالحملة الصليبية المسيحية كلها بحماس منقطع النظير لممارسة الحرب المقدسة ضد المؤمنين برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

ولدينا القليل من البينات الخارجية حول نشيد رولاند وكما هي قائمة الآن يبدو أنها تتوافق مع البينات الداخلية (المتعلقة باللغة ، والأعراف الاقطاعية والأسلحة ، والمحاكمات ، وربطت أسماء الشخصيات التاريخية بشكل خاطىء باسطورة شارلمان

ومسحت كل مابدا معلومات أصلية عن المسلمين وبلادهم) التي أخذت أماكنها في نشيد رولاند – كما هو لدينا الآن – بعد وقت قليل من الحملة الصليبية الأولى ، ولقد قلت كما هو لدينا الآن لأن أسطورة رولاند لابد وقد وجدت في وقت أبكر بكثير ، وقد افترض شاعرنا وتصور لدى شروعه بحكاية قصته أن جمهور المستمعين كانوا يعرفون كل شيء حول شارلمان وأترابه وحول صداقة رولاند أولفر ، وحول غانلون ، وكان مثله مثل هومر يحكي حكاية موجودة في قلوب الرجال وذاكرتهم ، والأمر الذي لم يستطع الباحثون تتبعه بعد هو المراحل التي حول التاريخ فيها نفسه الى أقاصيص ، والأقاصيص الى ملحمة ، ولابد أن رولاند دوق تخوم بريتاني كان شخصية هامة ، لكننا لانمتلك المزيد من الالماعات التاريخية حوله ، فلماذا وقع الاختيار عليه ليشغل دور البطل في الملحمة وتم اقصاء الآخرين الذين قاتلوا وقتلوا معه ؟ كيف تبدلت الحكاية وتحولت وبأي شكل ؟ أناشيد شعبية ؟ الأغاني ذات النوعية الملحمية البدائية ؟ نحن لانعرف وكل ما يمكننا فعله هو الارتكاء على العبارة الغامضة لكن المفيدة :« تقاليد شفوية » ، وأن نشير اذا شئنا الى كتاب السير موريس بورا الرائع الذي حمل عنوان « شعر البطولة » الذي أظهر كيف أنه يمكن بسرعة وبشكل غريب ، حتى في هذه الأيام في أجزاء من أوروبا الوسطى ، أن يتلى تاريخ هذه الأيام ليكون ملحمة الغد ، وشيء واحد مؤكد هو أن نشيد رولاند القائم بين أيدينا ليس تصنيفا عابرا لمجموعة من القصص الشعبية ، إنه عمل قام عن سابق تصميم ، وهو قطعة فنية رائعة ، ذات شكل واحد ، ووراءها عقل بناء ، ساق جميع أحداثها وسماتها وفق نظام واضح ومتوازن بشكل جميل على العموم .

ولنترك بسرور الى العلماء النقاش حول الأصول ، فعملنا مرتبط بالشعر نفسه ، فنشيد رولاند ، يعد واحدا من أقدم الملاحم الفرنسية التي تعرف باسم « أناشيد الأعمال » وأكثرها شهرة ، وأعظمها مكانة ، وباختصار في الملحمة مايزيد على أربعة آلاف بيت من الشعر ، وهذا يعني أنها بدون شك ثروة أدبية

كبيرة ، لكنها ليست أدبا بالمرة ، ويمكن لقوتها بالذات وبساطتها ومظهرها غير الفني أن تخدعنا وتجعلنا نراها أنها ليست بدائية فقط (وهي حقا كذلك) ولكنها فجة أو بالحري ساذجة ، لكنها ليست حقا كذلك ، ففي تصميمها توازن نبيل بين الأجزاء ، واذا ما سايرناها فقرة فقرة ودخلنا الى مشاهد المعارك نجد تحت السطر براعة سيكولوجية ذات أخلاق وحركة ، وهذا كله قد ترك لنا لنكتشفه ، فقد كان الشاعر ينشد ويغني الى جمهور مزيج بشكل واسع ، جمهور يطلب قصة سريعة مثيرة فيها الكثير من الأفعال ، وهو لم يمتلك الوقت ليهدره في سبيل تحليل أدبي طويل على طريقة هنري جيمس أو ماريسيل براوست .

ان اسلوب الملحمة في الحقيقة أشبه مايكون باسلوب الدراما ، يدخل كل واحد من الممثلين فيتكلم ويمثل وفق دور مسرحي مرسوم وتعليقات من القصاص ، وذلك من وقت لآخر كنوع من التوجيهات المسرحية في إخبارنا أن ذلك الانسان « متسرع » وذاك الآخر « عاقل » وتلك الحالة كذا وذلك الأمر كيت ، أو فلان « حزين أو « غاضب » أو « لديه اعتبارات ماكرة الذي سيوله » ، لكن في الجزء الأعظم علينا أن نراقب وأن نصغي وأن نستخرج لأنفسنا المحرضات التي حركت الممثلين ، والعلاقات فيما بينهم ، ونادرا ماأرينا مافكروا به أو أخبرنا حول ذلك ، مما ليس له علاقة مؤكدة مع الدور ، وهناك بعض النقاط التي لم توضح أبدا ، وهكذا لم نخبر عن السبب الأصيل للنزاع بين رولاند وزوج أمه ، وفقط في نهاية الملحمة يلمح غانلون بأن « رولاند أخطأ بحقه في المال والأملاك » وتركنا نخمن ماهي طبيعة الحكاية الأصل وكانت معروفة بشكل جيد من قبل الجمهور ، أو أن مسألة الغيرة بين ابن الزوجة زورج الأم ، وهي أمور مطروحة في التقاليد الشعبية ، اتخذت أساسا لحكاية النزاع ، لكننا في الحقيقة لانحتاج لمعرفة هذه التفاصيل ، فالوضع العام جعل واضحا لنا بما فيه الكفاية من خلال الكلمات الأولى التي تفوه بها رولاند وغانلون ، وفي الحقيقة إن مشاهد افتتاحية الملحمة هي نموذج لما سيكون العرض

عليه ، وتخبرنا القصيدة الأولى باختصار بصورة الوضع العسكري ، وبدأ مشهد مجلس مارسليون بالعمل ليرينا بأن المسلمين جاهزين للقيام بأي عمل تآمري ، ويعرض مشهد مجلس شارلمان الكبير كافة الممثلين الرئيسيين في الجانب المسيحي ، ومع عرض سريع موجز يتضمن بشكل مؤكد الخطوط العريضة لسماتهم وأوضاعهم بالنسبة لبعضهم بعضا : فشارلمان هو في الوقت نفسه رجل حذر وحاسم ، ورولاند شجاع الى حد التهور ، سهل الاثارة ، متعجرف مع سذاجة ادعاءات بطل ملحمي ، فهو مخلص ، وواثق من نفسه ومنفتح مثل النهار ، وكان أولافر مثله شجاعا ، لكن متعقل وحكيم ومدرك لنقاط الضعف لدى صديقه ، وأما الدوق نايمون ، فكان عجوزا حكيما في مشاوراته ، وأيضا توربين ، رئيس الأساقفة المقاتل ، مع تقديراته للآخرين ومسحة من الدعابة الحادة ، ولم يكن غانلون جبانا كما برهن مؤخرا في الملحمة ، وقد دعمت نصيحته في ابرام الصلح من قبل جميع رفاقه ، ولكن لسوء الحظ كان عليه بعدما أظهر رولاند ان اقتراح البعثة خطير ولايمكن الوثوق بمارسليون ، ان يضرب ضربته بالحال ويعلن عن تطوعه ، فقد ترك الآخرين يتقدمون عليه ، وعارض شارلمان الذهاب ، وبذلك أظهر أنه كان أيضا مدركا للمخاطر ويتشكك بمارسليون ، ثم سمى رولاند غانلون ، وعندما صدر هذا عنه ، حملت الامور رائحة شيء من التحدي ، ولم يعترض شارلمان على برهان غانلون الغاضب في أنه يقدره أقل من تقديره لنايمون أو توربين وأقل من رولاند أو أي واحد من الاتباع الأثني عشر ، وجاءت ردات فعل غانلون من موقفه الصعب بالحال عبثا بقوله :« هذه مؤامرة للتخلص مني » وأما رولاند (المؤكد تماما انه لم يحمل أية فكرة من هذا القبيل في ذهنه البسيط) فقد انفجر ضاحكا ، وهذا أنهاها ، واستبد الغضب والارغام والغيرة والانتقام للاهانة العامة على شخصية هي بالأصل غير مستقرة عاطفيا ، وسقط فريسة لأحزانه الشخصية ، ورأى نفسه قد جرح واهين ، وتملكته رغبة شديدة بضرورة التخلص من رولاند بأي ثمن دون اقامة اعتبار للشرف والواجب ، وبدون اهتمام مطلق

بالنتائج ، وقد أوجد القرن الثاني عشر كلمة لوصف غانلون هي « الهلوسة وانفصام الشخصية ، ولم يعرف شاعر القرن الحادي عشر هذه الكلمة ، ومع هذا وصف الحالة بكل صدق وأمانة »..

وماهو مثير للاهتمام ودرامي في منهج الشاعر هو الطريقة التي أظهر بها الحقيقة كاملة حول غانلون ، فهي قد ظهرت مع مسيرة القصة تدريجيا ، فقد تركنا معلقين حوله ، ولم نكن في البداية متأكدين فيما اذا كان رجلا شجاعا أو جبانا ، وعندما رفض في حركة انفعالية عالية أن يسمح لحاشيته في مرافقته الى سرقسطة قائلا :« الأفضل أن أذهب وحيدا ، لأن أذبح خيرة الرجال معي » أخذنا وقتها كلماته على ظاهرها ، ولم يخطر ببالنا أنه لم يرغب بوجود شهود على المؤامرة الخيانية التي كان يحيكها ، وفي الحقيقة شهر سيفه فقط ، بعدما قام عن سابق تصميم بتحريض المسلمين حتى وصلوا الى حد الانفجار » وأسند ظهره الى جزع شجرة صنوبر » عندها نلاحظ أنه كان بعيدا عن الجبن ، وأنه هادىء الأعصاب ومقامر صعب ، جاهز ليخاطر بحياته في اللعبة الخطيرة التي كان يلعبها ، حتى عندما قدم للمحاكمة بقي متحديا وبكل جلد وهدوء أقر بخيانته مع دعاوى مسوغة بقذفه بالتهم ضد رولاند ، ولم تتخل عنه أعصابه ــ أن كانت قد تخلت ــ الا في اللحظة الأخيرة عندما لم يعد رأسه ويداه تخدمانه ، وهنا صرخ لقريبه بينابل قائلا :« أتطلع اليك لتخرجني من هذا كله » لقد توفرت شارة لعجزه لكن ليس أكثر ، وبديهي أن تهمه الأولى ضد رولاند قامت على حق : فرولاند متسرع ، مثير للخصام ، أرعن ، وسلوكه تجاه زوج أمه يوحي أن الكراهية لم تكن كلها من جانب واحد ، والقصة التي حكاها غانلون الى بلانكاندرين (الأبيات ٣٨٣ ــ ٣٨٨) حول رولاند وعجرفته وسوء تصرفه مع التفاحة هي إما سمة مخترعة أو حقيقة ، وليس فيها شيئا غير ممكن ، ولا شك أن تقرير غانلون العدواني حول رسالة شارلمان (الأبيات ٤٣٥ ، ٤٣٩) بعيد كل البعد عن الصدق ، لكن

يمكن ـ بحدود مانعرف ـ أنه عبر بصدق عمـا اعتقـده غانلون أنه نوايا شـــارلمان ومقـــاصده ، وحتـــى التفـــاصيل الزائدة (البيتـــان ٤٧٤ ـ ٤٧٥) المختـــرعة يمـــكن أن تكون « توقعات ذكية مسبقة » وبناء عليه نعطي غانلون هنا مـزية وأسبقية الشك ، لكنه عندمـا عاد الى معسـكر الامبـراطور وبين اخفاقه في احضار الخليفة كرهينة (الأبيات ٦٨١ ـ ٦٩١) مـن خلال خطة مرسومة وبيان أوضاع نعرف أنهـا كذب مـن الأول الى الآخر ، عندهـا نعرف اين نحن ، ولانميل بعد هذا الى تصديق قصة التفاحة ، أو أية تهمة صدرت عن غانلون ، أو أية كلمة قالها .

ومثل هذا ، من الممكن حتى أن نعجب خلال مشهد الاجتمـاع والمشاهد مع بلانكاندرين ومارسليون ، دقة غانلون وغيرته وحرارته في اخلاصه للامبراطور ، وكان مـاأعلنه هـذا التـابع لدى مـديحه لسيده : اذا لم يكن شيء ما سيء جـدا بـالنسبة لرولاند مـامن شيء سيكون طيب جدا لشارلمان ، ولكن عندما حيكت المؤامـرة ، وكانت قيد التنفيذ ، وفيما هـو راكب عائدا الى بلاده برفقة شارلمان سـمعا صوتا ظن أنه لن يسمعه ثانية ، لقـد كان نعيق بـوق رولاند ، وهنا قال شارلمان : « اســمع ان رجـالنا يحـاربون » وأجـابه غانلون بوقاحة لانظير لهـــا :« لو أن أحـــدا غيرك قـــال هـــذا ، لكان كاذبا ، وعندما اصر الامبراطور انفجـرت الوقـاحة تقـول بـدون اعتبار :

لقد تقدمت بك السنون ، وشعرك شاب وابيض
وعندما تتحدث هكذا تتكلم وكأنك طفل

ليس فيه لاايمـان ولاصـدق ولاأدب ، لان عقله كله وشـجاعته تعفنت ثم تعفنت ، ومع هذا لم يكن هكذا دوما ، فقد كان قد كسـب حب رجاله ، وعده الفرنسيون بارونا نبيلا ، ولابـد إن بعض الخير توفر بالرجل قبل أن تجرفه حرارة الغيرة وتلتهمه :

- ٤٠٨٧ -
انتصب أمام الملك الكونت غانلون
بجسم رشيق ولون نقي
وبدا سيدا جيدا ، أو لم يكن هذا زيفا
هكذا وصفه الشاعر بايجاز ثم تركه

ورسمت صورة شارلمان وصنعت من خلال عدد من الاقاصيص وسمات لاتعد ولاتحصى عزيت الى شخصيته بحكم أنه الامبراطور المقدس ، فالقداسة الامبراطورية هي وأعمالها تسلمها شارلمان عبر الامبراطور قسطنطين ومن خلال الامبراطور جستنيان ، تسلمها كامبراطور للغرب ، وبه بقيت ، ولشارلمان من العمر مالايمكن عد سنيه ، أو بالحري هو العمر كله والوقت جميعه ، لأن ولده وابن اخته من الشباب ، ولحيته البيضاء الكثة وقوته لم تتأثرا « بمائتي سنة أو أكثر » وهما مثلان علويان ورمزان للأبوة ، فهو خليفة الرب على الارض ، ووالد المسيحية كلها ، وهو النموذج الأرضي للأيام الخوالي ، واليه تتحدث الملائكة وتعطيه القوى العلوية من عليين وتظلله .

ونستخر ، من تحت هذه الشخصية العظيمة ، التي هي أعظم بحجمها من الحياة شخصية أخرى هي صورة الحاكم الدنيوي المثالي : العادل والحكيم والعظيم والمؤمن ، ولقد بذل الشاعر ماأمكنه من جهد بالنسبة لشارلمان ليرسم لنا تصور العصور الوسيطة المبكرة لما ينبغي أن ندعوه في أيامنا هذه الملك « الدستوري » فهو لم يكن « متسرعا بالاجابة » وماكان ليقوم بشيء الا بعد الاصغاء الى آراء مستشاريه ، وقد امتلك ـ كما يبدو ـ الحق في الاعتراض على أي اقتراح قبل عرضه على التصويت ، ومـاأن ينال الاقتراح الموافقة الجماعية لمجلس المستشارين حتى يرتبط بذلك القرار ، سواء أوافق عليه شخصيا أم لم يوافق ، وفي هذا كان بكل عناية على عكس مارسليون الملك المسلم ، الذي قاد بذاته معظم مناقشاته ، وامتنع عند بعض النقاط بكل صعوبة عن رمي خنجره نحو رسول من الرسل الذي كان

عندما يستدعي مجلس مستشارية يفعل ذلك الذي قال انه سيفعله ، ورأى بعض الكتاب أن سلوك شارلمان الدستوري دليل على الضعف لكنني لا أرى أن ذلك ما عناه الشاعر مطلقا ، فهو قد بدا وهو يعد ذلك صحيحا جدا بالنسبة لسلوك الملك ، مع أننا قد يساورنا الشك حول الحدود التي عكست حقيقة سلوك أي ملك في الفترة الاقطاعية ، وتقترب الصورة المقدمة من حالة الملك الانكليزي في يومنا هذا ، الذي يعطي موافقته على القرار بعد مروره بصورة قانونية على مجلسي العموم واللوردات ، هو يمكن أن يراه غير حكيم ، لكنه لن يحجب لهذا السبب الموافقة ويمتنع عن توقيعه.

ومجددا يقوم تحت هذا كله السمات الشخصية لشارلمان : قدراته السلطوية ، وأدبه ، وشجاعته ، وقوته ، وعمق مشاعره الدينية ، وصداقته مع نايمون ، ومشاعره الحارة تجاه ابن اخته واترابه مع جميع « الشباب العزابة » الذين دعاهم « بأبنائه » واعتاد ان يركب فرسه وأن يقاتل بين باروناته بمثابة البارون الأكبر بينهم جميعا .

وهنا أيضا ، علينا كما رأى أن نلاحظ وجود نقطة ضعف به ، وذلك عندما غلبه الحزن لدى موت رولاند ، الى حد أنه فقد وعيه وسقط فوق جثته ، وحتى أنه احتاج الى مساندة باروناته ليتمكن من النهوض وهو يتفوه بكلمات الندب والبكاء ، لقد كانت هنالك طرائق لاظهار المشاعر كما لكل شيء ، ففكرة أن الرجل القوي ينبغي ان تكون ردات فعله تجاه المصائب الشخصية والوطنية بظهور بعض التأثر على شفتيه ، وبرميه بكل هدوء وصمت بسيكارته في قلب موقد النيران هي فكرة ذات أصل حديث ، وبالنسبة لمعايير العصر الاقطاعي كان مسلك شارلمان صحيحا تمام الصحة ، ففقدان الصواب ، والبكاء والنحيب هو ماكان يستدعيه الحال ، وقد حذا جميع الفرسان والبارونات المحتشدين بشكل علني حذوه ، وبكوا وانتحبوا وندبوا مثلما فعل :

شهق مئات الألوف من الفرنسيين حزنا
وما من واحد منهم إلا وبكى وعلا صوته بالنحيب
وفي نهاية هذا الفصل :
ومزق لحيته التي كانت بيضاء كالثلج
واقتلع من رأسه شعره الأبيض من الجذور
ومئات الألوف من الفرنسيين انتحبوا مثله وأكثر

ويمكن ان نأخذ هـذه الاستجابة على أنها طقوسية وشعرية ، فالحزن مثل كل شيء في الملحمة تم عرضه بشكل مكشوف أكثر مما نفعل نحن الآن ، ليس هناك من سبب لكي نفترض أنهم تدربوا على فقدان الوعي بعيدا عن الناس ، وهـذه الحـركة كانت تلاقي القبول منهم ، فهذا ما كانوا يرغبـون رؤية الناس يقـومون به ، ففي كل عصر يحتفـظ لنا الفـن بـالنموذج المحتـذى بالسلوك ، وهـو ما تسـعى الحياة الحقيقية لتـأكيده بـكل مـا يمكن ، ولا يمكننا أن نستخلص من بكاء شارلمان وسقوطه مغشـيا عليه أية محصلات حول أخلاقه ، باستثناء أن الشاعر قدمه كمثـل نموذجي حول اظهار الرجل لمشاعره ، وفقا لمعـايير أحـاسيس تلك الفترة .

ولدى مقارنة أخلاق رولاند وسماته ببراعة ودهاء غانلون ، نجده بسيطا في ذاتـه ، متسرعا ، متعجـرفا وكريمـا ، يكره الأخـطاء ويفضحها ، مخلص ، وانفعالي ، متفرد بتفكيره ، إنه حمـل جميع السمات التي أحبها الرجال في قائدهم وتعلقوا بها مع صورة البـطل الرومانسية المقـدمة للجمهـور ، ولم يكن لديه أدنى مـكر ، وكانت عقول الناس الآخرين بالنسبة له كتابا مغلقا ، ففي البداية رفض أن يصدق خيانة غانلون ، وعندما تمت مواجهته بـالحقيقية ، كل مـا استطاع القيام به هو أنه افترض أن الجريمة قد اقترفت من « أجل الذهب » وفي الحقيقة لم يفهم مطلقا السبب الذي جعل أولفر غاضبا منه ، ولم يقدر أبدا القدر الذي اسهم فيه كبرياؤه وحماقته في مأساة رونسيفو ، لقد امتلك سذاجة أخيل وغروره ، ممـا سـيدمر الحملة

وذلك من أجل الكبرياء الذاتي ، ولكنه كان انسانا أكثر لطفا من آخيل ، فهو لم يشمت قط أو حمل حقدا ، وقد تحمل انتقادات أولفر بطبع هادىء لطيف ، وكان تحت « جديته المتطرفة » تسامح حقيقي في القلب ، وبساطة كبساطة الأطفال في الحب والاخلاص : للرب وللامبراطور ، ولاصدقائه ، ولرجاله ، ولفرسه ، ولدورندال سيفه الطيب ، ومشهد موته مثير بشكل غريب

ولكن الصورة التي تبقى أكثر اشراقا معنا هي صورة الشاب المسرور الذي لا يقهر فما من ملحمة تضرب على هذا الوتر بمثل هذا الوضوح :

مضى رولاند خلال بوابات اسبانيا عابرا على ظهر فرسه
نحو فيلانتف ساق فرسه مسرعا
وكان هو الذي مضى شاكي السلاح
مضى بشجاعة يهز رمحه عاليا
نحو السماء رفع سنان رمحه بعيدا
وربط على قناته ريشة بيضاء كالحليب
وكانت حوافها تلامس يده عند المقبض
وسار مرافقوه خلفه مجدين
وأعلن الفرنسيون جميعا عنه أنه حاميهم
وألقى نحو المسلمين نظرة كبرياء
لكن ما القاه نحو رجال فرنسا كان لطيفا ناعما
فإليهم تحدث دوما من قلب ودود

وهكذا ساق داخلا الى ذلك العالم المنظف حديثا ، ذي الشمس الواضحة

والالوان البراقة التي ندعوها العصور الوسطى (مع أنها كانت في عمرها الوسيط)لكن لعلها امتلكت حقا أكثر من صيف النهضة المتفجر الذي سيدعى بعصر الولادة الجديدة ، إنه عالم مليء

بالدماء ، والحزن ، والموت ، والوحشية العارية ، ولكن ايضا عالم العواصف الصريحة ، والبساطة البريئة ، والطافح بالثقة بالنفس ، إنه عالم فقدنا الاتصال به كلية الى حد التورط في استخدام كلمات « اقطاع » أو « عصور وسطى » كمجرد عناوين لظلام دامس ، وأي انسان يرى بارقة ضوء في ذلك العالم يتعرض للاتهام بمرض رومانسيه الحنين الى العصر الذهبي الذي لم يوجد قط ، لكن شخصية رولاند تقف هناك لتكذبنا : فقد كان في عصر الشباب كما رأى ذلك العصر نفسه ، وبالمقارنة معه إن مغامري الفضاء والأطفال اللامعين في أيامنا ، ليسوا أقل من الرجال القساة الأشداء في ملحمة من عصور النهضة ، يبدو أنها ولدت وسيطة العمر .

« كان رولاند حادا وكان أولفر عاقلا » وكان أولفر رفيق رولاند ، نشأ وتربى معه ، ووفقا لتقاليد وممارسات تلك الأيام شاركه أعماله وتدريباته ، كما أظهر بعضا من طباع الهدوء والصمت ، والعناد التي هي سمات عامة توجب تقليديا توفرها في « صديق البطل » وكانت الحكمة بمعنى الممارسة العقلانية ثمينة لكن لم تكن للعرض

أو ربما سمة محبوبة جدا ، فلقد كانت حياة ماري استيورات التاريخية المأساوية ، وليست حياة اليزابيت تيودور الحذرة والماهرة ، هي التي ألهبت طريقها خلال صفحات الأناشيد الشعبية والرومانسيات ، وكان أولفر عسكري أكثر اتقانا من رولاند وأعظم اهتماما وتمسكا بالمستلزمات العسكرية منه بسمعته الشخصية ، فقد كان يعتلي الهضاب قبل المعركة ليستطلع أوضاع الأعداء ويعرف أعدادهم وأوضاعهم ، وهو عمل بالنسبة لمعايير أناشيد الأعمال نادرا ما عد من أعمال السادة ، وكان حين يجد الأمور شائنة وغير معقولة كان يحرض رولاند على طلب المساعدة ، وهو أمر كان البطل يراه مما يحط بكبريائه ، وكان يمضي عابسا وواجما الى عمل كان يعرف مسبقا أنه غير

ممكن ، وكان لا يرعى الامور الخيالية ولم يكن رومانسيا ليشعر بالسرور عندما يعرف أن « انسانا ما اقترف خطأ » ، فهو لم يكن وضعه مشرقا مثل وضع رولاند ، فقد كان قادرا على المثابرة بالرفض ، وعندما يتبرهن أن ما حذر منه بات صحيحا ، كان يخاطب رولاند قائلا بأسف : «لقد أخبرتك بذلك».

يارفيق انت الذي وضعتنا في هذا الارباك
هناك شجاع حكيم وهناك مهمل
الحكمة أسوأ بكثير من الحماقة
فمن خلال تعقلك ابك الآن على الفرنسيين المدمرين
إننا لن نكون ثانية قادرين على خدمة شارلمان
لو انك أصغيت قليلا لما قلته
لجاء مولاي ومضت المعركة على خير ما يرام
وكان الملك مارسليون هو الآن أسيرا أو قتيلا
إن شجاعتك يارولاند لعنة على رؤوسنا

هذا صحيح جدا ، وليس من الكرم أن تمسح الامور هكذا في ساعة المأساة ، ولعل الذي بات طبيعيا هو أن تقع المسؤولية تحت نير اللامسؤولية ، وذلك مهما كانت ذكية وعبرت عما في نفسها هكذا ، وعلى كل حال إن عددا كبيرا من النساء المتزوجات سيتعاطفن مع أولفر .

وكان له كبرياؤه ، وقد غضب ، وانزعج وتألم ، عندما قرر رولاند بعد طول انتظار استدعاء شارلمان وذلك بعدما رأى أن قوات المؤخرة التي تحت امرته قد نقص عددها من العشرين ألفا الى ستة الاف رجل فقال له : « عندما طلبت منك فعل ذلك ، لم تستجب ، ولو أنك فعلت لما خسرت اليوم ولأنقذت رجالنا ، وأن تفعل ذلك الآن (يعني عندما لم يبق أحد للانقاذ غيرنا) سيكون عارا ، وتدخل رئيس الاساقفة بقوله : صحيح أنه لا يمكن انقاذ أي انسان الآن ، إن لشارلمان القدرة على الانتقام لهم ، وأن يدفنهم بشكل

مسيحي لائق ، وخضع أولفر لهذه المناقشة الرائعة بصمت ، فقد كان هناك بالفعل رئيس أساقفة للرايمز اسمه تلبيذوس وذلك في نهاية القرن الثامن ، ولكن لعل صورته في الشعر تدين كثيرا للخيال أكثر منها للحقائق ، وهذا لا يعني مطلقا أنها صورة غير ممكنة ، فرجال الدين المقاتلون عرفوا بشكل جيد في التاريخ المسيحي ، ولكن من المؤكد أن توربين كان بطلا متميزا بشجاعته وبجاذبيته الشخصية ، وقد عامله الشاعر بتشريف خاص ، فقد أعطي مكانا متميزا في الهجوم الاول الذي قام به المسلمون وذلك بعد كل من رولاند أولفر مباشرة (البيت ١٢٤٣ وما يليه) وأعطي في الهجوم الثاني شرف « افتتاح المعركة » (البيت ١٤٨٧) وكان هو آخر من ترك ليقف الى جانب رولاند عندما كان البقية قد قتلوا ، ولقد انتمى توربين الى عصر كان – عندما كتب نشيد رولاند – قد شارف على الانتهاء ، وهو عصر عاش فيه الراهب العلماني قريبا جدا من الراهب الديني ، وفي فترة متأخرة إن اشارة توربين الناقدة لحياة الرهبنة (الأبيات ١٨٨٠ – ١٨٨٢) قد جاءت غريبة جدا بخروجها من شفتي رئيس الأساقفة ، وكما علق مارك بلوخ « يبدو أن الاصلاح الغريغوري لم يكن قد وصل بعد الى شاعرنا » • ومع هذا عندما صرخ الفرنسي : « حسنا هل يدافع عنا اسقفنا بصولجانه » (أو بحرفية أكثر « بالنسبة لرئيس أساقفتنا صولجانه قوي للانقاذ ») وقد حملت الكلمات معنى مزدوجا ، أي أن توربين كان مع كل سماته القتالية ومؤهلاته ، رجل كنيسة صالح وكاهنا جيدا ، فقد كان عاقلا في مشاوراته ، ففي منطق قوي طيب وبلطف ، لكن مع سلطة قوية ، تمكن من اجمال الخصام بين رولاند وأولفر ، وجاء خطابه الى العسكر نموذجا للشجاعة والتقوى البسيطة ، وقد تحمل واجباته الكهنوتية بجدية ، وكان آخر عمل قام به قبل أن يموت هو محاولة بطولية لمساعدة انسان آخر ، وهناك لمسة خاصة في بكاء رولاند عليه وندبه له :

أنت يا طيب الذكر رجل جيد وفارس نبيل
إنني أعهد بك الآن الى رب القدرة

- ٤٠٩٤ -

فهو لن يجد عبدا أكثر طاعة منك
فمنذ أيام الرسل لم يكن هناك نبي مثلك
في الحفاظ على العقيدة وكسب الرجال
أرجو الا تلاقي روحك أي عائق في تحليقها
ولتفتح أبواب السماء لاستقبالك

ولعل هذا هو المكان المناسب لنتحدث فيه عن الروح المسيحية لشعر الملحمة ، فهذه الملحمة ليست مسيحية في موضوعها فقط ، إنها مسيحية في كل مفصل من مفاصلها ، ومامن مكان آخر جرت تحته مجاري العقائد القديمة ثم نبعت على السطح على شكل مسيحي كما حدث هنا ، وليس هناك خوارق غير الخوارق المسيحية ، وهدف هذا التأثير فقط (بحكم كونه مسيحيا صرفا) على عقول الرجال وأعمالهم وليس لتقديم آلية حركة القصة ، والمسيحية هنا هي المسيحية البسيطة غاية البساطة والمعقدة كثيرا حسبما هي موجودة في أبسط القرى وفي الكنائس ، ورجال العنف هؤلاء في أعمالهم قد تمت دعوتهم للوفاء بواجبهم تجاه ايمانهم وتجاه الامبراطور ، وسيؤخذون عندما يموتون ليستلقون على فرش من الورود بين ـ بشكل غريب ولكنه موائم ـ الأبرياء المقدسين ، وسيسكنون الفردوس مع الرب وملائكته ، وسيصلون وقتها للرب نفسه مباشرة ، دون تدخل القديسين ، وكما أرى دون تدخل أم الرب ، فالمسألة باتت على درجة عالية من البساطة .

والبساطة لا تعني الجهالة أبدا ، ويبدو أن الشاعر لم يكن راهبا أو منتظما بالسلك الكهنوتي لاحدى التنظيمات الكبرى ، كان قسيسا فقط يملك ما يكفي من معرفته بالكتابات المقدسة وآداب الكنيسة وعقيدته صحيحة كما هو واضح من خلال عمله ، ولكنه كان مثله مثل غالبية معاصريه المسيحيين يمتلك أفكارا غامضة حول ديانة المسلمين ، وهكذا كان المسلمون بالنسبة له مجرد (بينميز) (أي كفار) ولذلك كانوا (بالحري) وثنيين كانوا يعبدون مثلثا

جهنميا كون بشكل غريب عجيب من مهوند (محمد صلى الله عليه وسلم) وتيرماغانت (شخصية عامية ذات أصل مجهول) وبشكل غير متوقع مطلقا - أبولو الذي مسخ في مجريات الحوادث الى « أبوليون الشيطان الأحمق » الذي اعتدنا على معرفته من خلال « تطور الحج » وحملت نصب هذه « الآلهة المزيفة » أمام الجيوش الاسلامية وتمت عبادتها بوساطة الجثو على الركب ، وعندما تنزل مصيبة بالكفار ، تراهم يغضبون ويتصرفون بطريقة وحشية مجنونة ، وعقيدة (يعني شريعة) « مهوند وتيرماغانت » موجودة في كتاب ، وهنا لا نعرف حقا فيما إذا كان الشاعر قد عرف بوجود القرآن ، أو أنه افترض فقط على أساس شروح الكتاب المقدس - أن كل ديانة لا بد أن يكون لها كتاب مقدس من نوع ما (وكان هذا الجهل متبادلا ، ويمكن أن يرى من قبل أي انسان يحرص على معرفة الروايات عن العبادات المسيحية والعادات حسبما عرضت جزئيا في ألف ليلة وليلة).

وجرت محاولات لطيفة لتفريق العادات الشرقية عن العادات الغربية ، فمارسيلون ملك الكفار اعتاد على عقد مجلس مستشارية وهم مضجعون على المرافق أو الدواوين ، في حين جلس شارلمان منتصبا على مقعد (كرسي أو عرش) ، وانحصر استخدام رمي الحراب وبقية أنواع الأسلحة المقذوفة بالجيوش المسلمة ، ويوحي حصار سرقسطة أن الشاعر حمل في ذهنه صورة المدن الاسلامية ذات الاسوار العظيمة في الأندلس ، حيث كان فن التحصين متقدما كثيرا على نظيره في شمالي أوربا ، ولعل من المهم ايضا معرفة ان الامير باليغانت قد وعد عساكره ليس بالغنائم فقط ولكن « بالنساء الشقراوات » وذلك جزاء على شجاعتهم ، ومهما يك من أمر كان المجتمع الاسلامي بشكل عام - سواء أكان في حالة مواجهة المجتمع الغربي أم لا - يتسم بسمات بناء المجتمع الاقطاعي نفسها ، كما أن الشاعر المسيحي لم يكن غير كريم نحو الاعداء ، فصحيح أن مارسيلون كان مخادعا واميرا مطلق السلطات بالمقارنة مع ملكية شارلمان « الدستورية » لكنه كان

شـــجاعا ، وكانت الشـــجاعة الشـــخصية متـــوفرة على كلا الجانبين ، ومع أن عددا من الابطال المســلمين اتهمــوا بــالخداع وبالتآمر الرهيب المرتبط بالشياطين والسحر ، إنهم لم يســتخدموا قط بشكل غير صحيح الأعمال العسكرية المؤيدة بالسحر ، وكان كل شيء صحيحا ، والقتال نظيفا ، ولم تــكن شــخصية صــلاح الدين العظيمة الفروسية قد قامت بعد لتجتذب الاعجاب الفرنجي ، لكن سمعة المقاتل المسلم انتصبت عالية وكانت محط اعجاب غير مشوب

جاء من بالاغويت أمير
شكله شكل نبيل ، عيناه شجاعتان وذقيتان
وعندما يمتطي ظهر حصانه القيام بمهمة
يحمله بشجاعة شاكي السلاح للمعركة
وكانت شجاعته معروفة من القريب والبعيد
وهو وان لم يكن مسيحيا ظهر بمظهر فارس صحيح

ولم يتم التغلب على رولاند واتباعه بالعدد المتفوق ، بــل واجهــوا عدوا كان كفئا لسلاحه وجديرا به ، وهذا يعني من بعض الجــوانب انه لايمكنك صياغة ملحمة حول صراع حيث جميع السمات البطولية موجودة فيه في جانب واحد

وجاء وصف مشاهد المعــركة مـــزودا بمـــا لا يحصى عده مـــن المقبلات ، ومن وجهة نظرنا بتطويل ممل ، لكن علينا ان نتــذكر ان الاعمال الحربية وفنون القتـــال كانت بـــالنسبة لشــعب العصــــور الوسطى أكثر من مجرد دعوة تسلية ، لقــد كانت أعظــم الاعمـــال الرياضية وأهمها تمتع الشعب بتفاصيل القتـــال ، وبـــاحصاء وعد مختلف المقاتلين الذين اشتركوا بأعمال القتال مثلما نتمتع في أيامنا هذه في سماع التعليقات المذاعة حــول مبـــاراة رياضـــية أو تصـــفية نهائية لكأس ما ، وذلك مع اعطاء ملاحظات حول حياة كل واحد من اللاعبين .

وتمت الأعمال القتالية كلها من على ظهور الخيل ، وجرى استخدام السلاحان النبيلان فقط وهما الرمح والسيف ، ولم يرد ذكر للرجالة ، أو النبالة الذي شغلوا دورا هاما في معركة هيسنغ ، وجاء هذا من بعض الجوانب ليتواءم مع صياغة الملحمة ، ولكنه كان صحيحا تاريخيا من جانب آخر ، في أنه في تلك الفترة شغل هجوم الفرسان الدور الأعظم في المعركة ، وما من واحد من الفرقاء توفرت لديه رغبة قوية في اثقال اي جيش بأعداد كبيرة من المشاة ، لا سيما في البلدان الأجنبية حيث سرعة التحرك كانت اساسية ، عندما كان الأمر يتطلب قطع مسافات شاسعة عبر طرق قليلة وسيئة مع تسهيلات فقيرة للتنقل والتزود بالمؤن.

أما بالنسبة لأعمال أصحاب المراتب والأفراد فإن مازودنا به قليل ، وفيما عدا ذلك تبادل الفرنسيون والمسلمين الضربات أثناء الالقاء بشكل عام ، وتم التركيز في جميع الأماكن على المبارزات الشخصية بين القادة على كلا الجانبين ، وسنلاحظ هذا الشيء نفسه في الروايات التاريخية الجادة حول معارك العصور الوسطى، وهذا ثانية لم يكن مجرد قانون ، ويظل الأدنى (كما يودنا بعض الكتاب أن نعتقد) هو اظهار الروح « غير الديموقراطية » أو عدم التقدير للانسان العادي ، ولقد توفر سبب عملي جدا لهذا الحال ، ففي ظل النظام الاقطاعي كان على واحد من البارونات الكبار خدمة الملك في المعركة ، وأن يجلب معه كل ما يتوفر له من الاتباع المسلحين ، الذين جلب كل واحد منهم بدوره ما توفر له من الاتباع الأدني الخاصين به ، وهكذا نزولا الى ادنى مستويات الطبقية ، وكان كل تابع مرتبطا بيمين الولاء نحو سيده وسيده فقط ، «طوال استمرار حياتهم » ، ونتيجة لهذا اذا ما قتل سيد كبير في المعركة كان اتباعه يتحررون بشكل آلي من ولائهم ، وكان بامكانهم ـ وهذا ما فعله بعضهم ـ عدم متابعة القتال والا يأخذوا المزيد من الدور فيه ، ويطبق الشيء نفسه اذا ماوقع بالأسر أو هرب من ميدان المعركة ، فالاتباع وقتها يتركون بلا قائد وقد يميلون الى

التميز وعدم الاندماج بغيرهم ولهذا كان عظيم الأهمية ان يقود السيد رجاله ، وأن يقاتل باقدام ظاهر

وأن يجهد (بقدر الامكان) في أن لايقتل أو أن يرجل من على ظهر حصانه ، حتى لايبتعد أتباعه عن مشاهدته فيفقدون شجاعتهم ، ولهذا السبب أصر غاذلون كل الاصرار أنه اذا ماأمكن التخلص من رولاند ، فان زهرة الجيش الفرنسي ، الذين كان معظمهم من أتباع رولاند سيتفرقون ، وهذا هو السبب أنه عندما أصيب مارسليون بجراح وهرب ، نكص الجيش المسلم كله على أعقابه وهرب ، وحدث مثل هذا في المعركة النهائية الكبيرة حين جاء الامبراطور شارلمان والامير باليغانت ، سيد المسلمين جميعا ، التقابل وجها لوجه ، وتعلقت نتيجة الحرب كلها على مبارزتهما ، وسقط باليغانت ، وهرب الجيش المسلم كله في تلك اللحظة من ميدان المعركة .

وحملت الملحمة اسم « نشيد رولاند » لكن النصف الاول منها هو الذي يتعامل مع انجازات رولاند نفسه ، فهو قد مات (البيت ٢٣٩٦) في نهاية وقفته الكبرى مع قوات المؤخرة ضد هجوم الملك مارسليون الغدار ، وتعلق القسم المتبقي من القصة بالانتقام الذي قام به شارلمان لموته ، ولمقتل الاحد عشر رجلا من الاتباع الآخرين والعشرين ألفا من الفرنسيين الذين قتلوا معهم ، وبالنسبة لمعايير تلك الأيام كانت الحكاية ستترك غير كاملة بدون الانتقام ، وكان اسم شارلمان سيبقى تحت الرغام لانه سمح لمقتل واحد من أتباعه أو أقربائه أن يعبر دون أن ينتقم له ، فذلك كان سيبقى شيئا مشينا ، لكن في الملحمة أمر أكبر من هذا ، هناك مسألة تتعلق بمجال الملحمة كله كملحمة وبعملها ، وبحق رولاند في أن يحمل لقبا ملكيا .

عندما تعاملت أولا مع نشيد رولاند ، وكنت وقتها تلميذة جامعية ، تقبلت آنذاك الاحكام الرائجة وقتها والتي أطلقت على

الجزء الثاني من الملحمة ، فوقتها قال غوستاف لانسون :« أنا لايمكنني شخصيا الا أن أضع نفسي الى جانب الذين يرون أن انتقام شارلمان من الأمير باليغانت والأمير مارسليون مجرد اضافات رخيصة صممت لمديح العبث الوطني على حساب الشعر » ولدى قراءتي الملحمة مجددا بعد مضي أربعين سنة ، وذلك بقصد ترجمتها وجدت من المستحيل أن أضع نفسي الى جانب أولئك .

ويعود ماحدث خلال تلك الفترة لسبب واحد ، هو التغيير والتحول من الفكرة الرومانسية حول طبيعة ومقصد الشعر الملحمي الى الفكرة الكلاسيكية ، فمع نهاية هذا القرن كانت ماتزال الاهتمامات تميل نحو التركيز بشكل ضيق على سحر التعاطف الشخصي واستغلال الاوضاع المثيرة ، فقد قامت سمعة الالياذة على أدوار هكتور وأندروماخ ، واللقاء بين بريام وآخيل ، ومثل هذا من « الجماليات » المنتقاه ، وثمنت الانياد بسبب أحزان ديدو ، والكوميديا الالهية بسبب حادث باولو فرانسيسكا والرعب اللطيف لأغيلينو في برج المجاعة ، لكن الاطار الفكري الاوسع وهيكلته أن يغوص المرء في جسم الحكاية في سبيل انتقاء بعض اللقطات « الشعرية » راسخة في عقول عدد من مخرجي الأفلام ، وهؤلاء الذين ينتجون نصوصا مصنعه من حكايات كلاسيكية ، أو يعرضون علينا هومر والكتاب المقدس بصورة ساخرة وتقنية عارية ، ومفيد لهؤلاء الذين يأسفون كثيرا بسبب آخر النتائج أن يتذكروا أن كثيرا من البذور المنحطة بامكانها الافتخار عاليا بأجدادها المحترمين ، لكن ماعاد بالامكان لدراسة نقدية جادة أن تتبنى الميول الرومانسية ، إن عليها القيام بدراسة الملحمة الشعرية ككل .

واذا ماقمنا الآن بتفحص رأي لانسون في ضوء رولاند نفسه سنجد ان ماقام به بالفعل هو أنه تعامل مع الحقائق بالطريق المعكوس ، حيث أنه ليس القسم الثاني من الملحمة بل القسم الاول هو الذي صنع لتلبية العبث الوطني ، فقد تكونت قوات المؤخرة

المشهورة كليا من « رجال فرنسيين من فـرنسا » وعندمـا سـأل مارسليون على من يعتمد شارلمان في انتصاراته العسكرية ، أجـابه غانلون :« على الفرنسيين » وكان الامبراطور في مجلسه « لايصنع شيئا الا بناء على نصيحة الفرنسيين » ، وقدمت لنا الحرب نفسها في البـداية على انهـا صراع على السـلطة بين « مسـلمي الاندلس » و « مسيحي فرنسا » لكن من أجل هذا كله بشكل رئيس بين اسبانيا وفرنسا ، وفقط بعدما سـقط خيرة فـرسان فـرنسا أمواتا في رونسيفو ، وهرب مارسليون الى سرقسطة بعـد اصـابته بجراح مميتة ، انبعث قائما خلف شخصيات الابـطال الفـرنسيين والملك الاسباني النصبان العمـلاقان للأمير والامبـراطور ، للشرق والغرب ، للاسلام والمسيحية ، ان العـالم مفتـوح أمـام أعيننا ، وبامكاننا أن ننظر عبر سرقسطة إلى الاسكندرية ، لا بل الى بـابل الحكايات ، « فمن أربعين مملكة » جمع باليغانت قواته ، وحـارب بها ضد الفـرنسيين ، فللمـرة الاولى نرى « الفـرنجة » ونسـمع بصوت جميع العالم المسيحي ، ففي المواجهـة النهـائية للمعـركة الكبرى الأخيرة التقى شارلمان وباليغانت وجها لوجه :

قال الأمير : فكر ياشارلمان وانظر في
أن تعتذر الي من كل ما اقترفته بحقي
لقد ذبح ابني وأعرف أن ذاك تم من قبلك
واقترفت الآثام على أراضي التي اخذتها
كن واحدا من رجالي وسأكون مولاك
ثم تعال واعمل في خدمتي من هنا الى الشرق
وقال شارلمان : لا ، أنا أعد ذلك خيانة
لن اظهر لمسلم ادنى حب أو سلام
آمن أنت بما أوحاه الرب
اعتنق المسيحية وعندها سأكون صديقك الأول
وقال باليغانت :« طقوسك » ماهي الا دعوة مريضة
ومجددا حارب أحدهما الآخر

وتم أخيرا التفوة بالكلمة التي تــوجب التفــوه بهــا منذ زمـــن بعيد :« لن أظهر لمسلم أدنى حب أو سلام » ، ولابد أنه تم التفــوة بها في ذلك الاجتماع المأساوي الأول ، ولكن شــارلمان مــع أن عقله وضميره قد غفــرا له ، اســـتشار الفـــرنسيين ، واختـــار الفرنسيون ــ بعد اقناعهم من قبل نايمون وغانلون ــ السلام مــن أجل السلام ، وصحيح أن مارسليون قد وعد ــ اذا ماأزيل الخــطر العسكري ــ أن يعتنق المسيحية ويقدم الولاء للامبراطور ، لكن هــل يمكن لرجل قادر على قتل السفراء ، أن يفي بمثل هذه الوعود خلال ثلاثة أشهر ، أو يعطي أدنى قيمة لحياة رهــائنه ؟ وكان شــارلمان عندما سمع بالعرض للمرة الأولى ، ألمح أن لديه بعض الشكوك حول ماكان حقا في ذهن مــارسليون ، لكن هـــذه النقــطة لم تناقش أثناء الاجتماع ، وكان رولاند وحده المصمم على عدم الوثوق بالمسلم ولو لانش واحد ، فقد أراد استسلاما كامــلا ، وفــق شروط يفــرضها المنتصر ، ولسوء الحظ أعطى الانطباع بشــدة أنه أشــار بــالرأي الصواب من أجل سبب خاطيء ، وأنه أراد الحرب من أجل الحــرب فقط ، وأخذت الدبلوماسية طريقها ، ونسي المسيحيون ، وكان هذا هو الذنب الذي سبب وقوع المأساة ، وتم التلاعب بالحكمة الدنيوية بشكل خياني من قبــل غانلون ومــارسليون ، وكان الثمــن فقــدان الرفاق الاثني عشرة مع العشرين ألفا من الفرنسيين ، وفي النهــاية كان لابد من مواجهة النتــائج ، وقبــل كل شيء أرســل مــارسليون رسولا الى معسكر الامبراطور يخبر أن بــاليغانت قــد أبحــر مــن الاسكندرية ٠

وهكذا حددت الخطوط العظمى للملحمة نفســها ، هناك حــرب خاصة نشبت داخل حرب وطنية ، والحرب الوطنية ثانية داخل حرب عالمية بين الصليب والهلال ، وقــد هــز الصراع الصــغير في المركز الهيكل بأكمله ، ومــافعله الشـيطان كان مـــن غير المــمكن منع حدوثه ، وقضى الرب بقضائه الحــق ، فــكان أن قتــل مــارسليون وباليغانت ، وتم الاســتيلاء على سرقســطة وطلب مــن أهلهــا أن يختــاروا بين الموت والتعميد ، وتحــولت الملكة بــراميموند بـــكل

سلام ، لكن رولاند مات وأترابه ماتوا ، والحرب بين المؤمنين وغير المؤمنين مستمرة هناك بلا توقف ، وسأل مرسليون عن شارلمان قائلا :« انه رجل مسن ، ومتى سيتعب من الذهاب الى الحروب »؟ وأجابه غانلون :« لن يتوقف مطلقا مادام رولاند حيا ومتى مامات رولاند سنمتلك السلام » لكن ذلك كان كذبا ، صحيح انه بات مسنا ، لكنه يبذل كل ماأمكنه لتقديم المساعدة ، فضلا عن انه – أي شارلمان – مايزال عبدا تابعا للمسيح ، ماانفك يقول :« لن أظهر لمسلم أدنى حب أو سلام » ولقد استدعاه الملاك وامره بالذهاب :

قلب شارلمان صغير حتى يتحمل أعباء السفر والقتال
وقال الملك :« ياالهي كم هي حياتي متعبة »
وبكى ثم ربط لحيته البيضاء المتطايرة
هنا نهاية سجل الأعمال

انتهت الملحمة مثلما انتهت الاليانة والاينياد ، بمفتاح صغير ، ومع نهاية الانشاد لاأرى أن هناك مايمكن خشيته من عقد المقارنة .

وما أن فرغنا من رؤية البناء المنهجي للملحمة ، بات من الصعب أن نعد النصوص المتعلقة بشخصيته باليغانت « سجل حوادث » أو أن نعتبر قصة الانتقام « اضافة »، وحتى اذا ماقدرنا الشعر فقط ، من أين سنقوم بالقطع ؟ بعد وفاة رولاند ؟ لكن كنا قد سمعنا لتونا صوت البوق وهو يجلجل ، وصوت النفير والأبواق الامبراطورية ، وبعد الانتقام من مارسليون هل نترك البكاء على رولاند ، أم نترك وفاة ألدا ، أم ندع حكاية غانلون بلا نهاية ، هل نفعل ذلك فنخسر الكثير الكثير ؟ ولقد نسيت ، حتى قرأت الملحمة ثانية ، فعرفت كم هو جميل ، لابل كم هو مشرق النصف الثاني من نشيد رولاند ، فقد جعل الاسطول المسلم ، بمشاعله التي لاتعد ولاتحصى ، الليل جميلا وأضاء ساحل اسبانيا بطوله ، ولمع مثل

صاروخ ألعاب متلألىء الالوان ، وهناك صورة مارسليون وهو يموت وقد جلله العار ، يموت في مخدعه العالي والمقيت ، وهو يسلم قفازه واقطاعه الى باليغانت ، مضفيا عليه شرفا لم يتمتع به خلال حياته ، ثم هناك المبارزة الاخيرة للمعركة الأخيرة عندما اشتبك هذان الشيخان المرعبان بالقتال يدا بيد ، ووقفت الأرض والسماء حابسة أنفاسها تنتظر النتيجة ، وهي لحظة يبدو أنها حدثت خارج الزمان ، لقد كانا عظيمان وقديمان بشكل خارق ولحيتاهما « بيضاوتان مثل أي وردة على شوكة » وتلقى شارلمان لكمة كاد يسقط أرضا بسببها ، وأتاه صوت القديس جبرائيل فاستعاد وعيه واسترد قواه ، ذلك أن الصوت السماوي تتباين قوته عن صوت التقوى الخافت :

وقال :« ماأنت مقبل عليه أيها الملك العظيم »؟

وتوجد هنا قسوة حقيقية ، كان بامكان القديس ثيراس أوف أفيلا ملاحظتها ، وتبعت الأحداث بعضها بعضا بسرعة صحيحة ، وبدون اضاعة كلمة واحدة ، وذلك من الدخول الى سرقسطة ، الى الرحلة الجنائزية الى بلاي ، الى العودة الى اكس (آخن) الى وفاة ألدا ، الى أعمال الاستئناف ذهابا وايابا أثناء المحاكمة ، الى المحنة بالقتال ، الى الاعدام المريع لغانلون ، كل ذلك مع المشهد الصغير اللطيف المتعلق بتعميد براميموند ، وسيكون من السهل عدم تدارك هذه السرعة بسبب التسارع ، سهل ، ولكنه مصطنع ، وهذا ماصنعناه مع أعمال الخصام الخاصة ، واللا حسم ولا قرار ، والتطور البطيء للنقاش والتآمر ، فالأحداث الآن ضربة من ضربات مطرقة الرب ، ولهذا وقعت مسرعة ، وهناك عيب عام امتاز به القصاص في العصور الوسطى هو عدم القدرة على توزيع فراغاتهم لتتواءم مع أوزانهم الشعرية ، لكن المهم أن يعرف المرء موضوع الحديث ، وهكذا فان نشيد رولاند وأن كان قصيرا وبسيطا في اسلوبه قد حقق الوصول الى درجة ملحمة ، إنه ليس كتاب سيرة رومانسية ، بل شعر ملحمي عظيم حول موضوع عظيم .

وبين الملاحم الشعرية العظيمة في العالم لعل ملحمة رولاند هي الامتن ، ليس في الموضوع فقط بل في المعالجة ايضا ، فالاسلوب غير مزخرف كليا ، هناك تصريحات مباشرة، وخطابات مباشرة ، ونادرا ماتجد اصداء عامة ، كل ماهنالك تجد هنا وهناك خلاصات حكيمة تجمل الاوضاع أو تشير الى المقاصد الخلقية والمعنوية .

عندما يعرف أنه لن يكون هناك أسرى
سيقاتل الرجال بكل شجاعة وسيتمسكون بصفوفهم
الخيانة تدمر نفسها وتدمر الآخرين أيضا

ويوجد بين الأربعة آلاف بيت أقل من نصف دزينة من التشابيه البلاغية ، وهذه التشابيه ليست مثل تشابيه هومر ، وهي لم تحكم صنعها من أجل خاطرها ، بل لتعبر عن أشياء بديهية بأدنى الحدود وأبسط الكلمات :

لم يكن الفهد أو الاسد حادا قط مثله
لحيته بيضاء مثل أي وردة من ورود الربيع
ومثلما يهرب الغزال أمام كلب صيد الغزلان
أبدى المسلمون أعقابهم وهربوا أمام رولاند

وأعقبت أعمال المبارزة أحدها الآخر ، مع قليل من محاولات التنويع ، بل صدرت كلها عن الوصف نفسه ، الأبيات نفسها وكذلك أنصاف الابيات ، ولائحة الحشود نفسها ، والتعليقات نفسها من البداية الى النهاية ، فهذا مايقتضيه بناء الملحمة ، ولذلك جميع الأبطال شجعان وكل منهم مقدام ، طليت خوذاتهم بالذهب ، مهورهم سريعة الجريان أسلحتهم متينة ، وسالت الدماء على الأعشاب الخضراء ناصعة براقة ، وتم الايحاء بهذا المشهد في بيت أو بيتين :

- ٤١٠٥ -

الهضاب عالية والوديان عميقة مظلمة
الصخور مخيفة والشعاب عابسة مريعة
وكان النهار مشرقا وتلألأ نور الشمس بوضوح

وقام في مواجهة، هذه الخلفية الازرق والابيض والارجواني والذهبي ، والاشرطة البراقة ، والترسة الملونة والمرصعة بالكريستال البراق والمسطح المقطوع باتقان مثل رمز خط على قطعة من الرق ، واذا ماقررنا الا نجد اية متعة بل تجارب وتعقيدات فالافضل لنا أن نترك ملحمة رولاند وشأنها ، أنها تقدم لتوقعاتنا المتداخلة أضيق الحلول وأشدها اختصارا : المسلمون على خطأ ، والمسيحيون جميعا على صواب ، ومايهم هو الشجاعة والاخلاص ، والوفاة النبيلة تاج لحياة نبيلة .

وتغير الزمان ، وانهار البناء الاقطاعي العظيم ، وجاءت الثقافة الجديدة من الشرق ،« وعلم بهجة » الحب من بروفانس ، وأعطت القلعة مكانها للبلاط ، وحول قصاص الحكايات نفسه من القاعة الصاخبة الى العزلة الهادئة ، وتبددت الموسيقى الخشنة لروايات الاعمال واضمحلت ، وتخلى السجع عن مكانه لصالح القافية ، أما القصائد الطوال والكثيرة التكرار وذوات الاشكال والابنية غير المحكمة فقد حل محلها المقطعات المقفاة المتدفقة بلا عوائق والرشيقة بالوقت نفسه والنقية ، وتخلى شارلمان عن مكانه لصالح إرثر البريطاني ، وقام مقام رولاند وأولفر فرسان الطاولة المستديرة ، ثم عاود هؤلاء الظهور بعد قرون بمثابة الابطال الغامضين وغير الطبيعيين ، لشدة المبالغة ، لدى بوياردو ، وأريستو ، ومع منتصف القرن الثاني عشر تغيبت الملحمة وقام في مكانها الرومانسيات ، ونسيت الآن معظم أناشيد الاعمال الا من قبل الباحثين ، ومن الذي مايزال يتذكر اسماء : وليم دي أورانج ، وراؤول دي كامبراي ، وكواتر فلزايمار ، وجيرارت دي فيين ، وحقل السكانز ؟ قد يكونوا

قلة ، لكن مع ذلك مايزال صوت بوق رولاند يصدح خلال ممر رونسيفو « ياالهي كم هو محزن صوت البوق في قلب الغابات »

٢ ــ الصورة الاقطاعية:

غالبا ما استخدمت عبارة « عصور وسطى » بشكل غير محدود لتغطي الفترة الممتدة من نهاية عصور الظلام (حوالي القرن التاسع) الى بداية عصر النهضة (حوالي القرن السادس عشر) ومن السهل أن نخرج بانطباع أن المجتمع الاوروبي بقي خلال تلك الفترة متشابها بعضه من بعض ، وكان كله منظما بشكل ماعلى أساس « النظام الاقطاعي » وهذه اليتنا القانونية والاجتماعية حتى هذا اليوم ، لكن التنظيم الاقطاعي الأصيل كان قد بدأ بالتمزق في كل مكان تقريبا في حوالي القرن الحادي عشر ، (الوقت الذي دونت فيه ملحمة رولاند كتابة للمرة الاولى) ليتخلى عن مواقعه لصالح نمط من الحكومات الأكثر مركزية في ظل التيجان التي تزايدت قوتها بشكل كبير ، ومع منتصف القرن الثاني عشر كان وجه المجتمع قد تبدل كليا ، فقد توفرت ثقافة جديدة وأدب جديد ، ومواثيق جديدة للعلاقة والسلوك بين الرجل والمرأة ، وأخلاق جديدة ، وعادات جديدة ، وأسلحة جديدة ، واهتمامات جديدة ، وتطورات جديدة في الكنيسة والقلعة ، والمعسكر والبلاط ، وان هذا ماذكر بالعادة فيه عندما نسمع عبارة « العصور الوسطى » لأن القصة والصورة جعلتهم معروفين بالنسبة لنا ، لكن نشيد رولاند ينتمي الى قلب الفترة غير المتطورة ، وعندما جعل انعدام الأمن الكلي في الحياة من القوة المادية الضرورة التي هي أساسية لعدد كبير من الفضائل ، وكان الشغل الشاغل لكل بارون في أن يجعل من نفسه ملاذا قويا للقاطنين على أرضه ، وبناء عليه جاءت البنية الاقطاعية حسبما ظهرت ــ بشكل غير مقصود التنظيم ، من الاوضاع السائدة ، بنية مجتمع منجذب بشكل دائم الى الاعمال الحربية ، وكانت أغانيه كلها تقريبا حكاياته حول المقاتلين الشجعان والأعمال البطولية في

المعركة ، وليس حول السيدات أو الافتتان ، أو مغامرات العالم الاخرى مثل رومانسيات الفرسان التي ستأخذ مكانهم ، وكان العالم الفرنسي أيام « اناشيد الاعمال » عالما للرجال بشكل واضح أكثر من عالم هومر ، أو عالم الحكايات الكلتية الشعبية ، أو حتى عالم الملاحم الاسكندنافية ، وأحيانا صدف بالفعل للمرأة أن صنعت ظهورا لنفسها ، أحيانا كما فعلت سيدة صلبة متماسكة مثل غيوبروك ، زوجة وليم أوف أورانج ، التي كانت قادرة على الاحتفاظ بقلعة زوجها أثناء غيابه ، وتمكنت أن تطبخ له ايضا وجبة عظيمة جدا لدى عودته من ميدان المعركة ، وأحيانا كضحية غير سعيدة لحظوظ الحرب ، مثل الحسناء أودي في نشيد رولاند ، وأحيانا مثل الملكة المسلمة براميموند ، التي كانت امرأة روحانية ، لكن بأفق ضيق لتدرك فيه امكاناتها ، لكن لم تسلط أية انفعالات عاطفية قوية على هذه السمات الانثوية ، وكانت العلاقات التي تلامس شغاف القلب هي العلاقات التي تربط التابع بمولاه والمقاتل برفيقه بالسلاح وصديقه ، وكانت الروابط فيما بين الجنود الاتباع قوية دوما ، ووضحت قوتها الفائقة عندما سببت الحرب الغياب عن المنزل لسنوات في وقت لم تتوفر فيه الرسائل أو وسائل الاتصال ، وامتلكت العلاقة فيما بين رولاند وأولفر البريق والعمق والاخلاص في روابط الحب ، لكن بدون سوء نية أو انفعال عاطفي حولها ، وبذل ذلك القرن جهده التقليل من قيمة العلاقات البشرية الى حد أنه من الصعب ايجاد كلمة كافية وافية لوصف هذه العلاقات القوية من التعاطف والاعجاب والاخلاص بين رجلين ، ان كلمة « صداقة » صغيرة وليس فيها مايكفي من حرارة ، وعبارة « عبادة متبادلة البطولة » هي صغيرة أيضا وجافة في نبرتها العالية

ولعل الشيء الأكثر اثارة بالنسبة لنا حولها هو أن نلاحظ أنه في الأحوال الجادة والرسمية ، كانت عبارة التخاطب والتشريف الفردية في الحزن والسرور وفي الغضب والهيام ، وفي القتال والموت هو دوما « سيدي اللطيف » رفيقي

-٤١٠٨-

٣ ـ التابعية الاقطاعية :

قام البناء الاجتماعي في العصر الاقطاعي على التابعية ، ورسا هذا ـ في جميع مستويات أصوله ـ على رباط شخصي للخدمات المتبادلة والحماية بين السيد وتابعه ، وتأكد بقسم وبطقوس اعطاء الولاء ، ووضع التابع يديه بين يدي السيد ، كما لو أنهما يصليان معا ، وتعهد مقسما أن يكون رجله طوال حياتهما ، وكان بعد ذلك يقبل الاثنان بعضهما بعضا على الفم ، ومن الواضح أن كلا الدورين من الطقوس يرمزان الى المقايضة في العلاقات فهذا ما عبر عنه التشابك بالايدي والخضوع والقبلة المتبادلة ، وبتعهد التابع في أن يكون مخلصا لسيده وأن يخدمه في مختلف الطرق والوسائل بما في ذلك (ماهو رئيس بالنسبة لموضوعنا هنا) واجب اللحاق به الى الحرب مع أكبر عدد ممكن من الرجال المسلحين جرى اختيارهم من بين أتباعه ، وفق ماتوجب عليه تبعا لثروته ومرتبته ، وكان واجب السيد حماية تابعه في أثناء الحياة والانتقام له في حالة الموت ، وتحقيق العدل واقامته بينه وبين أتباعه ، والاحتفاظ به ومكافأته على خدماته ، وكان الاحتفاظ على نوعين : وكان التابع يؤخذ في النوع الأول الى مقر سكني السيد ، حيث كان يسكن ، ويأكل ويلبس ويجهز بما يلزم على حساب السيد ، وشكل هذا النوع من الاتباع حاشية السيد وأهل بيته أو عزبته ، واحتفظوا بعلاقة شخصية خاصة معه ، وعرف النوع الآخر باسم « السكنية » حيث أعطي التابع مسكنا ، أي قطعة من الارض ، كان من المتوقع أن ينفق على نفسه من دخلها ، ودعي تعداد الخدمات ، لاسيما تعدادها على شكل منح من الأرض باسم « إقطاع » وهي كلمة أعطت اسمها النظام الاقطاعي ، وأصبحت مع مرور الوقت هذه الاقطاعات وراثية ، انما احتفظ بها في بداية الفترة الاقطاعية على شكل ايلاء ، وتمثل منح الاقطاع بمناولة أعطية ماأمام شهود ، وقد تكون هذه الأعطية صكا مكتوبا ، وغالبا ماتكون بعض الاعشاب مع جذورها أو حزمة

حصاد ، أو (في حالة التعيين في مـركز عسـكري هـام) عصـا صولجانا و علم ونرى في مخطوطة المانية لملحمة رولاند صورة تمثـل شارلمان وهو يناول رولاند علما وذلك كأمـارة على اقـطاعه تخـوم اسبانيا ، ونلاحظ في نشـيد رولاند أن الأمـارة التـي غالبـا مـا استخدمت لمنح اقـطاع أو تسـليمه كانت قفازا • (الابيات ٢٨٢٧ ـ ٢٨٣٩) .

٤ ـ العلامات والأمارات :

ولا شـك أن مناولة الأمـارة المرئية كعـلاقة على تعيين أو اتفاق ، مشهد قديم جـدا ، ويبـدو أنه كان لهـا مقصـدان اساسيان ، أولهما اظهارها كنية على السلطة المعهودة الى انسان ما :« جئت مـن عند الملك ، هـذا هـو خـاتمة (عصاه ـ علمه ـ قفـازه ـ أو أي شيء آخـر) كبـرهان على ذلك ، وكان هـذا له عظيم الفـائدة وعملي في مجتمـع عرفـت قلة القراءة ، انما استخدمت أيضا بمثابة وسيلة للتأثير في تلك المناسبة على ذاكرة ذوي العلاقة والحضور سواء ، وبالروح نفسها ، وبغية اثارة الشهود الشباب للاهتمام بأمر ما ، قدم لهم صـناديق لطيفـة لتوضع على الأذن ، لتدليل على أن مـاسمعوه لن ينسـوه بسرعة ولعل تقديم القفاز قصد به أن يكون أمـارة للتـذكير مـن هـذا القبيل ، وجاء استخدام أمارة القفاز في نشـيد رولاند كعـلاقة على منح اقطاع كما رأينا من قبل ، وقدم القفاز والصولجان أثناء تعيين سفير ما أو رسول ، وقدم شارلمان القوس الى رولاند عندمـا عينه آمرا لقوات المؤخرة .

٥ ـ الفروسية :

نجد من خلال شعر الملحمة أن كلمتي « فـارس وفـروسية » لم تستخدم لتشير بالضرورة الى رجال رسموا بالسيف ليكونوا بشكل

رسمي أعضاء في منظمة الفروسية ، وعلى الرغم من اشتقاق الكلمتين من كلمة « فرس » فان أيا منهما لاتساوي بكل بساطة ماتسميه الآن « خيال أو فارس » وصحيح أن الفارس دوما مقاتل له مطية ، لكن ليس كل مقاتل محمول هو فارس ، ذلك أن السادة ، والسيرجندية وشطر كبير من أي جيش قد يزحفون نحو الحرب وهم على ظهور المطايا ، وعلى ظهورها يقاتل اكثريتهم ، والعلامة المميزة للفارس هي جمعة بين « فرس حربي » وسلاح كامل ، وينبغي أن يكون السلاح متوائما مع ثروة الرجل ومنزلته ، ويتكون السلاح بالعادة من خوذة فولانية ، وسابغة معدنية (درعا كاملا من الزرد أو بنة مقواة بالصفائح الفولانية) وترس ، ورمح وسيف ، واضيف أحيانا الى هذا هراوة معدنية ، علما أنه لم يرد ذكرها في شعر رولاند ، وكانت أسلحة المراتب الأدنى أخف مع سابغة من الجلد أو القماش المبطن ، وكانت خيولهم بالتالي أخف وأدنى متانة ، وبناء عليه عندما يتوجه اقطاعي كبير نحو معركة ما ، سيسير خلفه فرسان مقره مع الاتباع الرئيسين في اقطاعيته ، وسيتبع هؤلاء بدورهم اتباعهم الذين قد يكون بعضهم في مرتبة الفروسية ، وسيحاط الجميع بأتباع من مراتب أدنى نزولا الى [illegible] والفلاحين الملاكين الذين توجب عليهم تأدية الخدمة العسكرية لصالح اللوردات بحكم كونهم من « رجالهم » وكانت الخدمات العسكرية المطلوبة من فلاحي الأرض محصورة حكما بعدة ايام من السنة ، مع الدفاع عن أراضي الموطن ، وعندما باتت الاوضاع تتطلب حملات طويلة الأمد خارج الحدود ، توجب اعطاء المزيد من المشجعات ، والمحرضات ، وكان السيد مسؤولا بشكل دائم عن اطعام رجاله وتزويدهم بما يلزمهم في ساحات القتال ، وقد يقدم أحيانا على توزيع بعض الأعطيات النقدية أو العينية ، ولتعويض هذه النفقات وسواها نظر الجميع من أعلى المراتب الى أدناها بشكل رئيس الى الحصص التي سينالونها من غنائم الحرب ، وكونت اسلحة القتلى والمبالغ المدفوعة من فداء الأسرى ، والجزية المفروضة على المغلوبين والثروات المنهوبة من

المدن ، مكافأة النصر ، وبما أن الحديث الآن عن الغنائم والاهتمام مركز عليها (تصدرها الفضة والذهب والبسة القتال الصالحة) كان على رأس الهدايا الثمينة التي عرضها مارسليون (أسود ودببة وخيول ، وكلاب الصيد ، وبغال محملة بالذهب) ثمنا لابرام معاهدة سلام ، بيد انه كان على رأس الكنوز جميعا شكة سلاح جاء وصفها بأنها حوت (خوذات محلاة بالذهب ، وسرج مطلي بالذهب وقربوسة من الفضة وسيوف رصع قراب كل منها بالجواهر وهكذا دواليك)، وبصرف النظر عن الاشارات الى هذا كله ، ان النغمة العامة المنتشرة في شعر الملحمة مع سلوك جميع الشخصيات ، اتسمت بالفروسية ، واللامبالاة ، وتحكم بجميع المشاعر الأعمال العسكرية ، فما من واحد أضاع الوقت ـ مثلما فعل مقاتلوا هومر دوما ـ بالتوقف في وسط المعركة لينتزع جثة واحد من أعدائه ويجمع سلبه ، ويشعر المرء أنه وقف خلف بساطة المعركة ووحشيتها شعور دقيق بالتمسك باللياقة .

٦ ـ أحكام المعركة :

وقال الفارس الابيض للفارس الأحمر :« طبعا إذك ستراعي أحكام المعركة » وقالت أليس تحدث نفسها وهي ترقب القتال :« لعلك تتذكرين أن أحد الاحكام هو اذا ماضرب فارس فارسا آخر يسقطه عن ظهر حصانه ، واذا أخطأه عليه أن يؤرجح نفسه من جانب الى آخر »، وكان حظ الفارس في القرن الحادي عشر اثناء المعركة سيئا ، وقيل له :« اذا أردت البقاء حيا ، من أهم الأمور التي عليك مراعاتها هي أن تبقى فرسك واقفا على رجلية ، وأن تبقى أنت نفسك على ظهره ، فإذا ماالقيت أرضا ، أو سقطت ستواجه مخاطر عظيمة ، فاما ستجر الى الموت جرا ، أو ستفقد رقبتك على أيدي أي رجل مسلح يصدف أن يراك » وصمم السرج في العصور الوسطى على أساس أن يكون له أحزمة

قوية ، وأن يكون وسطه عبارة عن مقعد مبطن أمامه قربوس مرتفع وخلفه واحد آخر ، من أجل ابقاء الفارس ثابتا في مكانه ، ويختلف هذا السرج عن سرج السباق الحديث الذي يمكن الفارس من الانزلاق بسهولة من على ظهر حصانه اذا ماكبا على الأرض ، وذكر الشاعر بشكل واضح (الأبيات ٢٠٣١ ـ ٢٠٣٤) أنه عندما فقد رولاند وعيه وهو في سرجه على ظهر حصانه نتيجة الألم ونزف دمه « كان حتما سيسقط ، لكنه بقي منتصبا عليه بفضل الأحزمة » وقيل للفارس :« اذا مافتك طعنة رمح الى الخلف ، ستجد نفسك مسنودا بقربوس السرج الخلفي ، واذا ماجعلتك ضربة شديدة بالسيف تنبطح على رقبة الفرس ، أمسك بقربوس السرج الأمامي ، ذلك أن انزياحك عن سرج فرسك هو الطامة الكبرى ، لأنه سيقودك حتما للسقوط على الأرض ، ووقع هذا الحادث مرتين في ملحمة رولاند ، لكن كان ذلك في كلتا الحالتين أثناء مبارزة فردية ، ولحسن الحظ انزلق الفارسان في وقت واحد ، لهذا امتلكا الوقت والمكان ليعودا الى وضعهما السابق ومن ثم متابعة النزال .

وعلى كل حال يمكننا أن نستخرج بعض أحكام ـ أو لنقل بعض أسس ـ المعركة التي اتسمت بها المبارزات في الملحمة ، ولابد هنا من ترك بعض المساحة لأسلوب الشعر ، لكن الخطوط العامة مرجح أنها قامت على الممارسات الفعلية ، وكان القتال الذي يأخذ مداه الكامل يسير نظريا على ستة مراحل :

١ ـ التحدي : عندما يلتقي المتبارزان وجها لوجه ، ويسبق المنازلة تهديدات واهانات (انظر على سبيل المثال الأبيات : ١٢٣٨ ـ ١٢٤٢)

٢ ـ المبارزة بالرماح :
استخدم المتبارزون في ملحمة رولاند الرمح وفق ماعرف بالطريقة الحديثة ، وهي أن يجري تثبيت الرمح تحت الذراع الأيمن بكل

قوة ، وأن يسدد في الوقت نفسه نحو صدر الخصم أو خوذته ، وكان الهدف أما خرق صدره أو اقتلاعه من على سرجه بفعل وزن الرمح وسرعة اندفاع الحصان ، ونجد على سجادة بايو التي تعود الى فترة ملحمة رولاند نفسها تقريبا ، الفرسان يستخدمون الطريقتين الحديثة والقديمة معا ، فقد صور بعض الفرسان وهم يحملون رماحهم فوق رؤوسهم وبذلك استخدموا الرمح كسلاح رمي ، ويلاحظ أن الرماح التي استخدمت للرمي كانت قناة كل منها بسيطة بدون زينة ، بينما زينت التي استخدمت في الطريقة الحديثة بعلم مثلث الشكل صغير أو بريشة أثبتت تحت السنان ، تماما مثلما جاء الوصف في رولاند (على سبيل المثال الأبيات : ١٢٢٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٧٦ ، الخ)

٣ ــ المبارزة بالسيف :

أ ــ على ظهور الخيل :

اذا انقصفت الرماح بدون نتيجة حاسمة ، ولم يتوفر تابع للتزويد برماح جديدة ، يشهر المتبارزان سيفيهما ويتابعان القتال ، وكان السلاح في تلك الآونة سلاحا للاستخدام بيد واحدة ، لكن لم يكن أمرا شاذا أن يؤخذ باليدين لتوجيه ضربات قاسية جدا ، ووقتها يرخي زمام فرسه ، ويترك فرسه المدرب يقوم بواجبه ، واستخدم حد السيف ولم يعتمد على رأسه ، وتوجب توجيه الضربات على رأس الخصم ، وإذا ما تفادى الرأس الضربة ، أو صدتها الخونة قد تنزل الى الكتف فتحدث جرحا مميتا يعطل الذراع الأيمن ، أو كما حدث عندما تمكن رولاند من قطع يد مارسليون اليمنى عند مفصلها ، فعطله عن متابعة القتال (البيتان : ١٩٠٢ ــ ١٩٠٣)

ب ــ المبارزة بالسيف على الاقدام :

اذا ماترجل المتبارزان وتمكنا من الوقوف على أقدامهما يتابعان القتال بالسيف مترجلين وفق طريقة الطعن والضرب نفسها .

٤ ـ الدعوة المتبادلة للاستسلام :

غالبا مايحدث في المبارزة الفردية الطويلة ، كالتي قامت بين شارلمان وباليغانت (الأبيات ٣٥٦٤ ـ ٣٦٢٤) أو بالاحتكام الرسمي بوساطة محنة القتال كما حدث بين ثيري وبينابل (الأبيات ٣٨٧٣ ـ ٣٩٣٠) ، وقفة لاسترداد الأنفاس ، ويحق في تلك اللحظة أن يدعو كل مبارز الآخر الى الاستسلام حسب شروط ، واذا مارفض كلاهما يتابعان القتال حتى يموت أحدهما .

٥ ـ ضربة الموت :

عندما يفقد أحد المتبارزين سلاحه أو يتعطل عن متابعة القتال ، أما أن يدعوه المنتصر الى الاستسلام والأسر ، أو يوجه اليه ضربة الموت ، وأعلن في رولاند (البيت ١٨٨٦) وجوب القتل وعدم أخذ أسرى .

٦ ـ مباهاة المنتصر وافتخاره :

بعد قتلك لعدوك ، ستتولى تشجيع نفسك ورجالك بكيل السباب والشتائم الى الجسد الميت ، وصحيح أن هذه العادة لاتتماشى كليا مع صورة الفروسية لدى الانكليز ، لكنها كانت جزءا من الاجراءات الصحيحة في جميع الملاحم المبكرة ، فعند هومر غالبا ماجاءت المباهاة على شاكلة التحدي وعرضت في خطاب طويل محكم الصنعة ، وكقاعدة يتكون الخطاب في رولاند من بيت او ما يشبه ذلك ، وقد لايتجاوز القول :« خذ ذلك ، انت يا ... » وهذا مسموح به حتى في المعايير المعاصرة في مثل هذه المبارزات الحامية (انظر على سبيل المثال الابيات ١٢٣٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٧ ، ١٢٩٦) .

وغني عن القول أنه اعتبر عملا خيانيا وليس من أخلاق الفروسية مهاجمة انسان من خلفه ، ولم يدع الشاعر أولفر رفيق رولاند ، والبطل الذي لانظير يموت في قتال مباشر ، بل جعله يقتل بضربة قذرة من هذا النوع (البيت ١٤٩٥)

- ٤١١٥ -

٧ ـ التنشئة والمرافقة :

كان هناك فوق وأعلى من رباط التابعية العام ايضا الرابط الخاص الذي ربط رجلا بسيد تربى معه ونشأ ، أو الذي ربط سيدا بمرافقه ، وقضت العادات القديمة بإرسال ولد من أسرة كريمة ليتربى وينشأ ويرعى في بيت سيد رفيع المقام ، ويتلقى هناك مايحتاجه من تعليم وثقافة ، ويتعلم الأخلاق الجيدة ويدرب على استخدام السلاح ، والرياضة والفروسية ، واذا حدث وتربى صبيان هكذا ونشأ معا في الجد واللعب ، سيغدوان صديقان من نوع خاص أو لنقل رفيقين ، وسيستمر هذا التقارب مع تنافس الأصدقاء وسيتطور مع تقدم الحياة ، وكان التعاطف بين الرفاق ، أو بين السيد والفتى الذي تربى ونشأ في بيته قوية جدا ، وغالبا ماغطت علاقات القرابة بالدم ،وهكذا نسمع عن « العزاب الشباب » في بيت شارلمان « الذين دعاهم بأبنائه »، ونرى كيف مضي تفكير رولاند ساعة موته فقط نحو « الرجال في صفه » بل أيضا نحو « سيده شارلمان الذي رعاه ورباه منذ أن كان صبيا » ، وبشكل خاص نحو « رفيقه » أولفر ، وسنلاحظ ايضا أن كل واحد من الاتراب الاثني عشر كان له « رفيقه » ولذلك غالبا وردت الاسماء بشكل مزدوج : غيرين وغيرير ، ايفز وايفوز ، أوثون وبيرنغر ، أنسيس وسانسون يبدو ان الزوج المتبقي جيرارد أوف روسيلون وانغلر أوف بوردوا ازدواجا معا من خلال المرافقة ، ولهذا لم يرد ذكرهما بشكل خاص ، ولعل ذلك ايضا بسبب أن جيرارد عرض بمثابة رجل عجوز

٨ ـ الخيول والسيوف :

لعله ليس من الضروري كثيرا اظهار أهمية الخيول الجيدة والسيوف الماضية ولا الالحاح على العواطف تجاههم مع مراعاة هذه الممتلكات الثمينة والعناية بها ، وهذا ليس بغريب فعليهما اعتمدت سمعة الرجل المقاتل وحياته ، وكان فقدان أحدهما معناه كارثة حقيقية وأن نرى وقوع أحدهما بيد العدو فذلك يسبب العار

- ٤١١٦ -

والشعور بالاسى ، ومنحت السيوف والخيول المتميزة أسماء تشرفها وترفع من قدرها ، ونلاحظ أن الأمير المسلم باليغانت قد منح سيفه اسما حتى لايبدو بحال من الاحوال أقل منزلة من سيف شارلمان وسيمر بنا في نص رولاند اسماء العديد من السيوف المسيحية والاسلامية .

نشيد رولاند

- ٤١٢٠ -

١ ـ قارله الملك ـ امبراطورنا شارلمان
أمضى سبع سنين طوال كاملة مسافرا في اسبانيا
استولى على الأراضي المرتفعة بعيدا حتى ميان
ما من قلعة أمكنها الوقوف في وجهه
أو مدينة أو أسوار تركت له الا واقتحمها
باستثناء سرقسطة في موقعها الجبلي المرتفع
يحكمها مارسليون الذي يكره اسم الرب
إنه يطيع مهوند ولأبولو يصلي
لن ينجو من الدمار الذي ينتظره
٢ ـ أقام مارسليون في بلدة سرقسطة
وبحث عن حديقة ليقيم فيها ظلته
وأقامها على دكة رخامية لامعة
ووقف حوله والتف حول علمه عشرون ألفا من اتباعه
وللمثول في حضرته استدعى قادته وأمراء جيشه
اصغو الي ايها السادة ـ إن ما أزعجنا وأضر بنا
الامبراطور شارل المرتدي لتاج فرنسا الجميل
هاجم بلادنا بهدف الاستيلاء على ثرواتنا
ليس لدي ما يكفي من الحشود لمنازلته
أنا لم أجد قوة كافية لطرد قواته
أيها الرجال العقلاء أشيروا علي الآن
أبقوا على حياتي واحفظوا لي شهرتي
ما من مسلم تفوه ببنت شفه
حتى تكلم بلانكاندرين سيد فالفوندا
٣ ـ كان بـــلانكاندرين حـــكيما وســـط حشـــد المسلمين(٢٤ ـ ٤٦)
وبالشجاعة كان فارسا قويا ومقداما
ولائقا بالعقل لتقديم المشورة الى سيده
وقال الملك : لا تخش شيئا ولا يدخلك الفزع
بل أرسل الى شارلمان المتكبر والغاضب

خدماتك المخلصة وعرضا بصداقة مستقبلية
وعده بأسود ودببة وكلاب صيد
وسبعمائة جمل وألف صقر مدرب
وأربعمائة بغل محملة بالذهب وكنوز الفضة
وخمسين عربة تشكل قطار عربات
وبهذا سيمكنه اعطاء عساكره هدايا ثمينة
وقل : يكفيك ما قمت به من حرب في هذه الأرض
الى اكس في فرنسا دعه يعود ثانية الى وطنة
ويوم عيد القديس ميخائيل الحق به الى بلاطه
وهناك ستقدم طاعتك للقانون المسيحي
وكن من رجاله بالايمان والعهد والميثاق
وإذا ما طالب برهائن ليطمئن
اعطه ربما عشرة أو عشرين
واذا كان مفيدا سنبعث بأولادنا الذين ولدوا من زوجاتنا
سأرسل بابني مع أنه سيموت لذلك
الافضل كثيرا أن تسقط رؤوسهم
من أن نفقد شرفنا وأملاكنا وكل شيء
وأن نصبح مدقعين متسولين
٤ ــ وقال بلانكاندرين :« أنا اقسم بيميني (٤٧ ــ ٧٥)
وبلحيتي التي ترتعش حول حضني
سترى بالحال حشد الفرنسيين يتبدد
سيعودون مسرعين نحو موطنهم فرنسا أرضهم ومحلهم
وعندما سيستقر كل واحد مع أحبائه من جديد
سيتخذ شارل مقامه في بيعته في اكس
وسيقيم هناك احتفالا عظيما يوم القديس ميخائيل
سيمضي الوقت وستمر الساعات
ما من اخبار عنا ، ما من رسائل منا سيستلم
الملك سريع الغضب في قلبه حقد وحشي
سيقطع رؤوسنا ويفصلها بضربة فأس
الافضل سقوط رؤوسهم في أحضانهم

من أن تسقط اسبانيا الجميلة وتذهب من بين ايدينا
وسنعاني من خسائر مروعة ومن المآسي
وقال بلانكاندرين : « في ذلك شيء من الصحة »
٥ – وانهى الملك مارسيل النقاش
واستدعى للمثول أمامه كلارين البلاغاتي
واسترامارين ويودروبين صديقه
وغارلرن ذي اللحية الطويلة واسمه برايامون
وما كنير وعمه ماتثاي
وجوهون من وراء البحار ومالابين
وبلانكاندرين ، وصنع هؤلاء العشرة الحكاية
كانوا شجعان بلانظير واليهم توجه بالخطاب قائلا :
أيها السادة ، سادتي توجهوا الى شارلمان
الذي يلقي الحصار على قرطبة يريد الاستيلاء على المدينة
ليحمل كل منكم بيده غصن زيتون وليظهره عيانا
فالخضوع والسلم يظهران بهذه الطريقة
إذا ما نجحت جهودكم في اعداد هذه المعاهدة
سأعطيكم ذهبا وفضة بأوزان مفيدة
وأراضي واقطاعات بقدر ما يتمناه القلب (٧٦ – ١٠٠)
وأجاب العشرة سيكون ذلك كثيرا ومرضيا
٦ – وأنهى الملك مارسيل مؤتمره
وقال لرجاله : سادتي اذهبوا بسرعة
احملوا في ايديكم أغصانا من شجر الزيتون
وفي سبيلي اطلبوا من الملك شارلمان
من أجل الرب أن يظهر الرأفة نحوي
وقولوا صدقا لن يمضي هذا الشهر قبل أن يراني
قاصدا اياه أقود معي الفا من الاتباع
عندها هناك سأتلقى شريعة المسيح
وبإيمان وحب سأكون تابعا له
سأرسل اليه رهائني إن كان هذا يرضيه
ثم قال بلانكاندرين : تأكدوا من استجابته لرجائي

٧ ــ وطلب مارسيلون احضار عشرة من البغال بيضاء كالثلج
(هدية أرسلها من قبل ملك سواتيليا)
سروجهم من فضة واعنتهم جميعا من ذهب
واعتلى الآن ظهورهم الرجال الذين كانوا على نية الذهاب
كلهم حمل في يده غصن زيتون
وقدموا على شارلمان المتملك لفرنسا
وبطريقة ماغرروا به فهذا ما كان مقدرا
٨ ــ كان الامبراطور شارلمان مسرورا مليئا بالبشر
سقطت قرطبة ، أسوارها الخارجية خرقت
المجانيق دمرت الأبراج وأحالتها الى ركام
آلت الغنائم الثمينة الى جميع فرسانه
ذهب وفضة ومعدات حربية ثمينة
لم يعد في المدينة أحد من المسلمين (١٠١ ــ ١٢٩)
فالذي لم يذبح تحول الى المسيحية رعبا وخوفا
وجلس الامبراطور في حديقة في الجوار
ومن حوله رولاند وأولفر
والدوق سمسون وأنسيس الشجاع
وغودفري دي أنجو حامل علم الملك
وغيرين أيضا ومعه غيريير أيضا
وحيث هؤلاء كان هناك أخوة كثيرون
خمسون ألفا كاملة من فرنسا الجميلة والعزيزة
على زرابي بيضاء جلس هؤلاء الأتراب النبلاء
وقدم الصرافون الداما والشطرنج
واحتفظوا بهما لتسلية الشيوخ من البارونات
وتسلى العزاب الشبان بالسيف والرمح
تحت صنوبرة الى جانب شجرة عليق
قام سرير من الذهب الأحمر الخاص
بجلال جلس ملك فرنسا الجميلة
شعر رأسه أبيض ولحيته فضية
جسمه نبيل مظهرة مخيف

إذا ما قصده قاصد لاحاجة للقول : انتبه هنا
عن بعد ترجل الرسل عن ظهور مهورهم
أحسنوا صنعا فحيوه بمظاهر الحب والاخلاص
٩ ـ أمامهم جميعا تقدم بلانكاندرين ووقف
وحيا الملك :أضفى الرب نعمته عليك
الرب سبحانه الحقيق بالعبادة
هكذا تكلم الملك مارسليون العظيم في حكمه
كثيرا ما تعلم العناية بالايمان والصدق
اليك وارضاء لك سيرسل الآن ثرواته
أسود ودببة وأعداد غير قليلة من كلاب الصيد بمقاودها
وسبعمائة جمل وألف صقر مدرب
وذهب وفضة حملوا على أربعمائة بغل (١٣٠ ـ ١٥٣)
قطار من خمسين عربة لنقل
وتخزين ما يكفي من النقود الذهبية الجيدة
منها ستدفع لجندك كما تريد
لقد أقمت طويلا في هذه البلاد لاتعاسنا
عد الى اكس في فرنسا تلبية لمطالبنا
الى هناك من المؤكد سيتبعك مولاي
وسيكون رجلك بالايمان والاخلاص
ومملكته كلها سيحتفظ بها اقطاعا من يدك
وبيدين رفعهما الامبراطور نحو الرب مستلهما
ثم طأطأ رأسه مفكرا
١٠ ـ ولوقت طويل مكث الامبراطور يحدق نحو الأرض
فهو لم يكن رجلا يتسرع في اجاباته
بل اعتاد أن يتكلم بعد مشاورات طويلة
وعندما نظر نحو الاعلى كانت نظراته صاقبة وعالية
وقال للرسل : كلامكم جميل وجيد
ومع ذلك إن الملك مارسيل عدو لي وعدوي
في كل ما تفوهتم وعرضتموه علي
لا أجد ما أثق به وأعول عليه

لتأكيد هذا وضمانه أجاب المسلم
سنعد عشرة رهائن أو خمس عشرة أو عشرين
واحدا منهم ابني سأرسله برغم خوفي عليه من الموت
آخرون أيضا نبلاء أقسم سيكونوا لديك
عندما ستحتفل في قصرك العظيم بعيد
القديس ميخائيل الكبير أوف بيرل على الشاطىء
سيلحق بك ، على هذا يمكنك أن تعود
وفي هذه الحمامات التي أعدها لك الرب بقدرته (١٥٤ ــ ١٧٠)
سيتحول الى المسيحية وهناك سيعمد
وقال شارلمان :وقتها يمكن أن يبقي نفسه حيا
١١ ــ كان المساء جميلا وأشرقت الشمس بجلاء
بالحال أرسل الملك شارلمان البغال البيض العشرة الى الحظيرة
في الحديقة الكبرى أمر الرجال بنصب
خيمة للرسل العشرة كي يقيموا
مع اثني عشر من السيرجانتية لتلبية جميع مطالبهم
وأمضوا الليل هناك حتى انبلاج ضوء الصباح
ونهض الامبراطور الآن من فراشه مبكرا
وفي القداس والتراتيل قدم صلواته
ثم توجه الملك نحو شجرة صنوبر
والى هناك دعا باروناته لعقد اجتماع
وتبعا للنصيحة الفرنسية سار، ولها استجاب دوما
١٢ ــ ومضى الامبراطور ليجلس تحت شجرة صنوبرطويلة
وللاجتماع به دعا باروناته :
الدوق أوغيير وبرئيس الاساقفة توربين التقى
ورتشارد العجوز وحفيده هنري (١٧١ ــ ١٩٥)
والكونت أسلين شجاع غاسكوني
ومايلز وابن عمه اللورد تيبولد أوف رايمز
وأيضا غييرن وكذلك حضر غيريير
وجاء الكونت رولاند ومعه جاء البقية
وأولفر النبيل والجيد وقت الحاجة

وجميع فرنسيو فرنسا وربما كانوا الفا أو أكثر
وغانلون ذاك الذي حاك المؤامرة
هكذا بدأ ذلك الاجتماع الذي وصل الى تلك النتائج المحزنة
١٣ ـ وبدأ الامبراطور شارلمان بقوله :أيها البارونات سادتي
من عند الملك مارسيل ، جاء رسل ، ينشدون السلم
وعرض على منحي عطايا عظيمة
من الأسود والدببة وكلاب الصيد المقودة
وسبعمائة جمل وصقور مدربة شجاعة
وأربعمائة بغل محملة بالذهب العربي
وخمسين عربة محملة بشكل جيد مقطورة الى بعضها
لكنه يستعجل الآن ذهابي الى قصري في اكس
وهناك سيغير ايمانه الى ايمان أكثر فائدة
سيصبح مسيحيا وسيعتبرني قائده
لكن ماهي مقاصده الحقيقية ؟ هذا ما لا أستطيع الاجابة عليه
وقال الفرنسيون جميعا : الأحسن أن نكون حذرين
١٤ ـ وماأن أنهي الامبراطور شارلمان خطابه
حتى رفض الكونت رولاند بحدة
وسارع بالمعارضة بانبعاثه واقفا على قدميه
وقال للملك : لاتثق بمارسيل مطلقا (١٩٦ ـ ٢٢٥)
لقد مضى على وجودنا في أرض اسبانيا سبع سنين طوال
لقد حصلت لك على كل من نوبل ووكوميبلز
واستوليت على فالتيرنا وحزت على أرض الصنوبر
وعلى بالاغيت واشبيلية وطليطلة
ثم اقترف مارسيل عملا خيانيا عظيما
وأرسل رسله وعددهم خمسة عشر
ويحمل كل منهم غصن شجرة زيتون
وبكلمات طيبة ينشدون منكم السلام
ثم كان أن سألتم السادة الفرنسيين عن رأيهم
لقد أعطوك نصيحة حمقاء حقا
لقد أرسلت الى المسلمين كونتين من حاشيتك

باسان كان الأول وباسيل كان الآخر
لقد قطع رأسيهما على رابية دون هاليتايل
هذه الحرب التي بدأت أججها ولاتوقفها
والى سرقسطة قد حشودك الى الوغى
أمض حياتك ، ان اقتضى الحال ، في الحصار
انتقم للرجلين من الخائن الذي سفك دمهما
١٥ ـ وجلس الامبراطور شارلمان ساكنا مطرق الرأس متفكرا
وحرك لحيته وشاربيه بكل لطف
ولم يرد على ابن أخته لابخير ولابشر
ولازم الفرنسيون الصمت ، باستثناء غانلون وحده
هب واقفا والى حضرة شارلمان تقدم
وقال للملك : لاتثق بهذا الفتى الثرثار
ولابي أيضا ، وابحث عن مصالحك فقط
ان كان الملك مارسيل قد أخبرك بوساطة رسله
أنه سيضع يده في يدك ويعطيك العهد والميثاق بالولاء لك
ويحكم اسبانيا كلها باسمك ووفقا لرغباتك
والأيمان الذي نتبعه سيقبله
الرجل الذي طالبك بعدم القبول ارفضه (٢٢٦ ـ ٢٥١)
لاتهتم سيدي بالموت الذي يهددنا به
لايصح أن يتعجرف المستشارون ويركبوا رؤوسهم
ودعنا نصغي الى الرجال الحكماء وألا نستمع الى الحمقى
١٦ ـ وانتصب نايمون في هذه اللحظة أمامهم جميعا
لم ير تابع قط أفضل منه بالقاعة
وقال للملك : حسنا مولاي هل استمعت
الحجج التى عرضها الكونت غانلون
فيها ثقل وعليك الاهتمام بها
الملك مارسيل هزم في الحرب
وانتزعنا منه قلاعه وحصونه
وبالمحانيق دمرت أسواره
لقد أحرقت مدنه وجيوشه أبدت

جاءك الآن ناشدا رحمتك
انه لاثم عظيم مضايقته أكثر
ولأنه سيقدم رهائن تؤكد حسن ايمانه
علينا الاسراع بايقاف هذه الحرب الكبيرة
وردد الفرنسيون جميعا : لقد تكلم الدوق كما ينبغي
١٧ ـ أيها البارونات ، سادتي ، من سنرسل فورا
الى سرقسطة الى الملك مارسليون ؟
أنا سأذهب ، اذا سمحت ، قال نايمون
لهذا امنحني القفاز والصولجان
أنت احكم حكمائي ـ هكذا أجاب الملك بفخار
والآن بحق لحيتي ووجنتاي وذقني الحوامل لها
لن نجشمك السفر لمدة اثني عشر شهرا طويلا
لذلك ، اجلس ، لأننا لم نستدعك
١٨ ـ أيها البارونات ، سادتي ، من سنرسل منكم (٢٥٢ ـ ٢٧٦)
الى سرقسطة ، الى الملك المسلم ؟
أنا ان كنت للمهمة أصلح ، قال رولاند
لن تكون أنت ، أوضح أولفر :
أنت انفعالي وعنيد في أعمالك
أنا عندي أرض أنت أعطيتنيها اقطاعا
ان سمح الملك أنا سأقوم بهذه المهمة
ورد الملك : اصمتا أنتما هناك
لاأنت ولاهو سيخطو خطوة على ذلك الطريق
بحق لحيتي هذه ذات المرأى الفضي
لن أسمي أيا من الأتراب الاثني عشر حتى لاأبكيه
ولم يقل الفرنسيون شيئا ووقفوا مصعوقين صامتين
١٩ ـ ثم نهض من بين صفوفهم توربين أوف ايمز
وقال للملك : دع باروناتك الفرنسيين يرتاحون
لقد مضى على وجودهم في هذه الأرض سبع سنين طوال
فيها عانوا كثيرا من الخوف والمتاعب

أرجوك ياسيدي ، أعطني ـ بناء عليه ـ الصولجان والقفاز
سأقصد مسلم الاندلس وأراه
وفي نظراته سأقرأ مقاصده
وبمظهر غاضب أجابه الامبراطور :
على تلك السجادة البيضاء اجلس وابق دونما حركة
وأيضا أقول : الزم الصمت حتى آمرك بالكلام
٢٠ ـ قال الامبراطور : عصبتي من الاحرار والفرسان
تعالوا واختاروا لي واحدا من بارونات أرضي
ليحمل رسالتي ويضعها في يد الملك مارسليون
وتكلم رولاند فقـــال : غانلون زوج أمـــي ، ياســـيدي هـــو الرجل (٢٧٧ ـ ٣٠٢)

وقال الفرنسيون جميعا : في الحقيقة هو الأكثر جدارة
اذا لم تختره لن تجد له نظيرا
وانفجر الكونت غانلون مغضبا غضبا عظيما
وتنهد مغضبا ولشدة ذلك مال نحو الخلف
ووقف أمامهم بردائه الحريري الممشوق
عيناه تبرقان ، مظهره مظهر سمو وكبرياء
قوامه رشيق وعرض صدره كبير
الاتراب كلهم حدقوا به فقد كان شكله شكلا عظيما
وقال لرولاند : أحمق ، مالذي جعلك أحمقا
أنا مولاك وزوج أمك ، وهؤلاء جميعا يعرفون من أنا
وأنت سميتني لأقصد معسكر مارسليون
اذا ما قدر الرب العظيم أن أعود من هناك
سأنزل بك فوق ماتستحق وأدمرك
ورد رولاند : هذا كله تبجح وادعاء
التهديد لايخيفني ، والعالم كله يعرف ذلك
لحمل هذه الرسالة نحتاج الى رجل جيد
أنا سآخذ مكانك لو أن الملك أذن
٢١ ـ قال غانلون : مكاني لن تأخذه

أنت لست تابعا لي وأنا لست مولاك
شارلمان أمرني وخدمة له أنا مطيع
سأقصد مارسيل لألقاه عند أبواب سرقسطة
وهناك سأحيك مؤامرة مميتة
ان لم أجد منفذا لاطفاء غضبي اللامحدود
ماأن سمعه رولاند حتى ضحك في وجهه
٢٢ ـ عندمــــا رأى غانلون رولاند يضـــحك بـــــلا مبالاة (٣٠٣ ـ ٣٢٨)
كاد ينفجر من غضبه وانزعاجه
وكاد أن يخرج من عقله
وأخبر الكونت : أنا لاأحبك ، لأأنا ...
وأنت تسلطت علي بظلم وارغام
أيها الامبراطور العادل ، هنا أنا أقف أمام ناظريك
جاهزا لصنع كل ماتراه صحيحا
٢٣ ـ الى سرقسطة أرى ان علي المضاء
لاعودة لي من تلك الرحلة الى هنا
أعتقد أنك ستعد زوجتي بمثابة أخت لك
لقد ولدت لي صبيا هو الأجمل والأفضل بين الأولاد
بلدوين (قال هو) وبطلا سيكون
له أترك أراضي وماأمتلك
لن أراه ثانية ، سيدي اعتن بقريبك
وقال شارلمان : قلبك في جوفك رقيق جدا
عليك الذهاب الآن ، لأنه مع ذلك أنا آمرك
٢٤ ـ ثم قال الملك : قف أمامي ياغانلون
هاك تسلم من يدي القفاز والصولجان
لقد سمعت الفرنسيين ـ أنت الرجل الذي يريدون
وقال غانلون : مولاي رولاند اقترف بحقي هذا الخطأ
أنا لن أحبه طوال حياتي
ولاأوليفر صديقه ورفيقه الحميم

ولاالأتراب الاثني عشر النين عليهم يعتمد
سيدي : بحضورك أنا أتحداهم جميعا
عندها قال الملك : ان انفعالاتك عالية جدا
آمرك بالذهاب وماعليك الا بالرحيل
حسنا أنا يمـــــكنني الذهـــــاب ، انمـــــا بـــــدون
حراسة (٣٢٩ ـ ٣٤٤)
فكهذا كان باسيل ، وكذلك باسان ، الرب يعلم
٢٥ ـ وناوله الملك قفاز يده اليمنى
مرغم سيكون الكونت غانلون على قطع مئات الأميال
عندما تناول القفاز ، وقع في التراب
فصرخ الفرنسيون جميعا على الفور : ياالهي ، ماهذا ؟
لا شك أن هذه الرسالة ستحمل لنا سوء الحظ
وقال غانلون : سيدي لن تلبث حتى تعلم ذلك
٢٦ ـ سيدي إئنن بالذهاب من هنا الى هناك
طالما علي الذهاب ، فلا يذفع الانتظار
وقال الملك : امض ، باذن يسوع وأذني
وبيمناه حاله ، وبها وسمه
ولتيسير أموره أعطاه رسالة وصولجانا
٢٧ ـ وبادر الكونت غانلون الى مقره مسرعا
ومن بين صفوف أتباعه بدأ يبحث
عن خيرة من يخدمه ويلبي حاجاته (٣٤٥ ـ ٣٧٢)
وربط مهمازيه الذهبيين على عقبيه
وشد على وسطه مورغليز سيفه الفولاذي
وامتطى ظهر مهره تاشيبرون
وحمل عمه غونمير ركابيه
ثم لك أن تتصور عددا كبيرا من الفرسان الشجعان يبكون
ويقولون له : واحسرتاه على فقدان شجاعتك
كنت في بلاط الملك منذ سنين طوال
تابعا نبيلا بتقدير الجميع
الذي سماك للقيام بهذه المهمة الكبيرة

شارلمان نفسه لن يحميه ولن يغطيه
ماكان رولاند محقا في حياكة هذه الخطة
لانك رجلا جئت من أصل نبيل
ثم قالوا : مولاي خذنا معك ، نرجوك
وأجاب غانلون :« الرب يحظر وقوع ذلك
خير أن أموت وحيدا من أن يقتل معي بعض خيرة الفرسان
أيها السادة ستعودون قريبا الى فرنسا الجميلة
باسمي قدموا التحيات لزوجتي
والى بينابل صديقي وتربي
والى بلدوين ابني الذي تعرفون جيدا ، آمالي نحوه
ستساعدونه وستقبلونه سيدا لكم
ثم انطلق وأخذ طريقه مسافرا
٢٨ ـ وامتطى الكونت غانلون مهره تحت شجرة زيتون عالية
ومالبث أن لحق بالسفراء المسلمين في الوقت المناسب
وتراجع بلانكاندرين ومن ثم قام بمسايرته
وشرعا الآن يتحادثان بمكر
وقال بلانكاندرين : شارلمان محارب رائع
على بيولا استولى وعلى كالبريا ايضا
والى انكلترا عبر فوق أمواج البحر المالح
ولصالح القديس بطرس جبى جزية الجزيرة (٣٧٣ ـ ٣٩٦)
مالذي يريده هنا من حربه داخل حدودنا ؟
وأجابه الكونت غانلون : هكذا ينال سروره
في العالم أجمع لن تجد نظيرا له
٢٩ ـ وقال بلانكاندرين : الفرنسيون قوم محترمون
ومع هذا يسيئون الى مولاهم
فهؤلاء الامراء والكونتات عندما أشاروا عليه بهذا العمل
سارعوا بالحاق الضرر به وبآخرين
وقال غانلون مامن أحد آثر مثل هذه الكلمات المريبة
باستثناء رولاند وحده الذي سينال جزاءه كأسوأ مايكون
تمعن الآن ، كان الامبراطور جالسا يتحدث تحت ظل لطيف

واذا بابن أخته قادما في ثيابه الملكية
متحمسا يحمل غنائمه التي عاد بها من كاركاسون
حمل رولاند بيده أرفع الجوائز
وعرضها على عمه قائلا : خذها مولاي العادل
التيجان التي أعطيك تيجان ملوك الأرض جميعا
مؤكد في يوم من الأيام سيؤنيه كبرياؤه
خطر الموت المحتم يقترب منه يوما تلو آخر
لو أن أحدا قتله لأمكن تحصيل بعض السلام
٣٠ ـ قال بلانكاندرين : شرور رولاند وآثامه
على هذا يريد شعوب الأرض كلها أن تقتتل
وأن تقع كل أرض مرغمة تحت نيره
من الذي أمره وأمده بسلاحه وقوته
وأجاب غانلون : لقد تآمر على الفرنسيين
هم لم يخذلوه قط وهم يحبونه حبا جما (٣٩٧ ـ ٤٢٤)
فضة وذهبا يعطيهم بلا مقدار
وخيولا وبغالا وحريرا ويمدهم بالمعدات
وكل مايريده الامبراطور يؤمنه له
وهو سيستولي له على الأرض فيما بين الشرق والغرب
٣١ ـ وتساير غانلون مع بلانكاندرين ذلك اليوم طويلا
حتى تعهد كل واحد منهما للآخر بالصدق والايمان
واتفقا على ايجاد الوسائل لقتل الكونت رولاند
وتسايرا طويلا وانتقلا من درب الى طريق
الى سرقسطة وعلى مقربة مـن شـجرة طقسـوس ألقيا عصـا الترحال
وفي ظل شجرة صنوبر تحتها نصب سرير
قد لف بثوب من حرير الاسكندرية
عليه جلس الملك المسؤول عن حكم اسبانيا
ومن حوله اصطف عشرون ألفا من المسلمين
لم يتفوه أيا منهم بكلمة واحدة

- ٤١٣٤ -
كلهم انتظر بلهفة سماع الأخبار
والى حضرته وصل غانلون وبلانكاندرين
٣٢ ـ وتقدم بلانكاندرين على غانلون
وبيده امسك الكونت غانلون
وخاطب الملك قائلا : مولاي ، وقيت ، بحق مهوند
وبحق أبولو الذي نمجد عقيدته المباركة
أعطينا رسالتك الى شارلمان بكل مافيها
رفع يداه عاليا نحو السماء
وحمد ربه ، وبعد هذا لم يعطنا جوابا
وأرسل واحدا من نبلائه ، هذا الذي تراه
سيد من فرنسا ، من أشهر فئاتها
منه ستسمع ان السلم هو الرابح أم الخاسر
وقال مارسيل ، منه سنسمع ، دعه يتكلم
٣٣ ـ وكان غانلون قد فكر بهذه المسألة مليا (٤٢٥ ـ ٤٥٠)
وبمكر عظيم بدأ الآن يتكلم
وكأنه رجل للأخلاق ولد
وقال للملك : حفظك الرب بكلماته
الرب سبحانه الذي ينبغي أن نعبده
الملك شارلمان العظيم بعث يقول لك :
عليك تلقي الأيمان بالمسيح ربنا
وسيكافئك بنصف اسبانيا اقطاعا لك
واذا ما رفضت عرضه
ستؤسر وتقيد بكل شدة
وتحمل بعيدا الى اكس ، الى بلاطه
هناك ستدان وينفذ فيك الحكم حالا
هناك ستموت منفيا مهانا
ولدى سماع مارسيل هذا شعر بضيق عظيم
وكان يمسك نصلا مذهبا ومريشا
وكان على وشك أن يرميه به غير أنه تحمل وصبر
٣٤ ـ وتغير لون الملك مارسيل كليا

أمسك قناته وهز رمحه
وعندما رأى غانلون ذلك مد يده الى سيفه
واستله من غمده مقدار اصبعين
وقال له : أنت صقيل تماما وشجاع
في بلاط الملك حملتك أياما عديدة
لن يحجبني امبراطور فرنسا أن أقول
سأموت وحيدا ، بعيدا في أرض غريبة
قبل ذلك ستدفع أغلى ثمن
وصرخ المسلمون : علينا أن نمنع هذا الخصام
٣٥ ـ هكذا احتج عليه عقلاء المسلمين (٤٥١ ـ ٤٧٨)
فما كان من الملك مارسيل الا أن تراجع وجلس على عرشه
وقال الخليفة : لقد عرضتنا النقد
ظننا أننا سنخيف هذا الفرنسي بضربة
ماعليك الا الاصغاء وتسجيل الملاحظات
وقال غانلون : مولاي علي تحمل هذا كله
لن أبالي بكل الذهب الذي خلقه الرب
لا ، ولن أعبأ بجميع الثروات التي تفتخر بها بلادك
لأن اتفوه بالرسالة ـ طالما أعطيت الفرصة ـ
التي الملك شارلمان ذلك الرجل العظيم البنيان
أرسلها معي الى هذا العدو المميت
المتلفح برداء مبطن بفراء الفنك
والمغطى بحرير نسجته الاسكندرية
أنه يدليه الى الأمام حتى يمسكه بلانكاندرين
لكن لن يحرك سيفه ويشهره بدون حكمة
هو ممسك بيمينه مقبضه الذهبي
وقال المسلمون : انظروا هاهنا بارون جريء
٣٦ ـ واقترب غانلون من الملك وخاطبه كما يلي
قال له : أنت تعبث باثارة المتاعب لنفسك
شارلمان الذي يمتلك فرنسا يأمرك بما يلي :
عليك تقبل الايمان المسيحي

وسيمنحك نصف اسبانيا اقطاعا لك
والنصف الآخر الى ابن أخته رولاند
سيكون لديك في الاقطاعية شريك متعجرف حقا
اذا مارفضت هذه الشروط من قبلك
في سرقسطة سيحاصرك وسيضيق عليك الخناق
وبالقوة سيأسرك ويقيدك
ومن ثم سيرسل بك الى أكس مباشرة
ولن تسافر بعدها الى بالفري ولا الى دستريير
ولن يقدم اليك للسفر لابغلا ولامهرا قصيرا (٤٧٩ ـ ٥٠٦)
على ظهر أتان عجفاء هزيلة سيضعك
وستفقد رأسك هناك بقضائه
انظر الآن ، لقد كتب اليك الامبراطور بهذه الرسالة
والى يمناه سلم المسلم الرسالة
٣٧ ـ ولشدة غضبه إبيض لون الملك مارسيل
فدمر الختم ورمى بالشمع جانبا
ونظر الى الرسالة وقرأ مافيها
هذه هي الكلمات التي كتب بها شارلمان ملك الفرنسيين الي
علي أن أتذكر حزنه وانزعاجه
بسبب هذين الأخوين : باسان وبأسيل السامي
اللذين قطعت رأسيهما في هالتوي على الهايت
واذا كنت أغالي في تقدير قيمة حياتي
علي ارسال عمي الخليفة بمثابة مكافأة
وإلا لن يكون بعد اليوم صديقا لي
وفي هذه الساعة دخل ابن مارسليون وهو يصرخ :
كلمات غانلون جنون وبلا عقل
هذا شيء كثير ـ انه لن ينال طعم الراحة حيا
سلمه لي وسيواجه العدالة
عندما سمع غانلون هذا هز سيفه عاليا
واستند الى جزع شجرة صنوبر
٣٨ ـ وداخل الحديقة جدد الملك مارسيل الاجتماع

- ٤١٣٧ -
واصطحب معه خيرة رجاله لمشاركته
والى هناك جاء بلانكاندرين ابيض الشعر
وجورفرات الذي كان ابنه ووريثه
والخليفة عمه وقائده
وتكلم بلانكاندرين قائلا : استدع ذلك الفرنسي الى هنا
انه سيخدم مقاصدنا ، هذا ماسمعته يتعهد
به (٥٠٧ ـ ٥٣٤)
وامره الملك قائلا : احضره بنفسك فهذا أفضل
وبينما امسك الكونت غانلون وجاء به
الى الحديقة حيث كان الملك ومستشاريه
وهكذا شرعوا يحيكون مؤامرة شريرة
٣٩ ـ قال مارسيل : غانلون أيها السيد الرفيع ، لقد عاملتك
بشيء كبير من اللطف حتى الآن
عندما كنت مغضبا وددت لو أني صرعتك
لكن أقسم بحق هذه الاحزمة من فراء الفنك
التي تساوي قيمتها خمسمائة قطعة ذهبية جيدة
سأجعلك غنيا في أقرب وقت اليوم أو في الغد
هذا ماأرفضه ـ قال الكونت غانلون
الرب ان شاء ، سيعدل الاحوال
٤٠ ـ ثم قال الملك مارسيل ، حقا ، ياكونت غانلون
نويت أن اجعلك صديقا لي فهذا ماتستحقه
عن مشاكل شارلمان بودي أن أسمعك تتكلم
هو عجوز تقدمت به السنون وعانى من حياة صعبة
مائتي سنة وأكثر ، كما أعرف قد رأى
في البلدان كثيرا مالاقى جسده المتاعب
ضربات قاسية لاتعد ولاتحصى تلقى على ترسه
ملوك أغنياء كثر حولهم الى متسولين
متى سيتعب من القتال على ساح الوغى ؟
وقال غانلون : هذه ليست عادته مطلقا

مامن انسان عرف الامبراطور أن نظر الى طلته
الا وقال عنه : حقا انه رجل عظيم
مهما أطنبت في مدحه وتقديره
ستظل مكانته وسموه فوق أن أفيه حقه
شجاعته الجبارة ، من بامكانه وصفها بالكلمات ؟
الرب أسكن فيه شجاعة بلا حدود (٥٣٥ ــ ٥٦٢)
انه يفضل الموت على أن يتخلى عن فرسانة وقت الحاجة
٤١ ــ قال المسلم : أنا في تفكيري مندهش
من شارلمان في أنه عجوز وشعره أبيض
انا أعرف أنه عاش مائتي سنة وأكثر
في البلدان كثيرا ماعلى جسده من المتاعب
حمل أعداد كبيرة من السيوف القاطعة والحراب والرماح
كثير من الملوك الاغنياء صاروا متسولين وباتوا في حالة الاملاق
متى سيتعب من الذهاب الى الحرب ؟
وقال غانلون : لن يتعب مادام رولاند يحمل سيفا
ما من واحد شجاع مثله تحت أديم السماء
وأولفر صديقه سيد شجاع ايضا
والاتراب الاثني عشر الذين يحبهم شارلمان حبا جما
يحمون ساقة الجيش مع فرسان عددهم الف
شارلمان في أمان لايخاف من انسان أبدا
٤٢ ــ قال المسلم : أنا متعجب في عقلي
من شارلمان الذي رأسه أبيض وعجوز
كما أعلم مرت به مائتان من السنين
قهر من البلدان كثيرا طولا وعرضا
بالحربة طعن كثيرا ممن أسره أثناء القتال
من الملوك الأغنياء كثير من نقلهم الى الفقر والاملاق
متى سيتعب من المضي الى القتال
قال غانلون : لن يتعب مادام رولاند يرى الضياء
فيما بين الشرق والغرب ليس لشجاعته نظير
وأولفر صديقه فارس شجاع ايضا

والاتراب الاثني العشر الذين يحبهم الملك
ركبوا مع عشرين الفا من الفرنسيين في ساقة الجيش
شارلمان في أمان لايخشى من انسان من الاحياء
٤٣ ـ ثم قال الملك مباشرة : غانلون أيها السيد الجليل (٥٦٣ ـ ٥٨٧)
عندي جيش لن تجد أحسن منه
اربعمائة الف من خيرة الفرسان حسب تقديري
هل يمكنني الاشتباك بشارلمان وبرجاله الفرنسيين ؟
ورد غانلون : لايمكنك ، وسأخبرك لماذا
لان الخسائر بين رجالك ستكون مريعة
دع عنك هذه الحماقات وعد الى عقلك بجد
أرسل الى الامبراطور كميات هائلة من الذخائر
تجعل الفرنسيين جميعا يندهشون لعظمتها
عشرين كرة ستتابع ارسال الشيء نفسه اليه
عندها سيعود شارلمان الى فرنسا الجميلة راضيا
تاركا وراءه قوات ساقة لحمايته
معهم ، أنا أؤكد ، سيكون ابن أخته رولاند
وأولفر أيضا السيد الشجاع
اقتل هؤلاء الكونتات ، اذا أردت الوثوق بي
عندها سيرى شارلمان سقوط كبريائه ونهايته
ولن يملك الشجاعة للقتال معك منذ ذلك الحين فصاعدا
٤٤ ـ وصرخ الملك مارسليون : غانلون أيها السيد الحكيم
مالذي ينبغي علي القيام به لقتل رولاند ؟
وأجابه غانلون : سأخبرك بذلك
عندما سيصل الملك الى بوابة سيزر (كول دي سيزين رونسيفو وبامبلونا)
سيخلف قوات المؤخرة لحفظ الممرات ورائه
هناك سيكون ابن اخته رولاند الفارس العظيم
وأولفر ايضا الذي عليه يعتمد كثيرا

ومن حولهما عشرين ألفا من خيرة الفرنسيين
ارسل مائة ألف من بني جلدتك من المسلمين (٥٨٨ ـ ٦٠٨)
وسيشتبك هؤلاء أولا مع الفرنسيين في قتال
ولن تكون الخسائر في صفوف الفرنسيين قليلة
ورجالك سيقتلون وهذا لن يغضبني
وبهجوم مماثل للمرة الثانية عليك القيام
وأولا أو أخيرا سيلقى رولاند مصرعه
وستكون قد قمت بانجاز بالسلاح رائعا جدا
ولن ترى بعدها حربا طوال حياتك
٤٥ ـ من الذي سيطعن الكونت رولاند ويقتله ؟
عندها من جسد غانلون تحركت اليد اليمنى
عندها الجيش العظيم سينهار ويباد
ولن يستطيع شارلمان جمع حشد عظيم مماثل
وبذلك ستنعم أرض آبائنا بالسلام والراحة
وماأن سمع الملك مارسيل بهذا حتى انحنى
ومال فورا الى خزائن نخائره فأمر بفتحها
٤٦ ـ ثم قال مارسيل : بقي شيء واحد
، ليس هناك رباط جيد حيث لاايمان جيد

أعطني ميثاقل مقسما على خيانة رولاند
وأجابه غانلون : سأفعل كل ما تقوله
على آثار سيفه موغلاس الجيد
أقسم على الخيانة واقسم على التخلي عن ايسانه
وكان هناك عرش صنع كله من العاج (٦٠٩ ـ ٦٣٠)
وأمر مارسيل بجلب كتاب مجلد
فيه شريعة .... ومحمد
عليه أقسم مسلم اسبانيا
بالبحث عن الكونت رولاند بين قوات المؤخرة
وإذا ما وجده هناك ، سيقاتله بكامل قواه
وسيبذل غاية جهده لقتله والتخلص منه الى الابد

- ٤١٤١ -

وأجاب غاناون : ولعل ذلك سيكون هكذا

٤٨ ــ وفيما القوم هكذا منشغلون دخل المسلم ولد برون

ووقف أمام الملك مارسيلون

وقال لغانلون وهو يضحك بحيوية :

هاك ، خذ سيفي ، فلن تجد شفرة خيرا منه

حليت مقبضة بألف مثقال

إنه لك يا سيدي الحكيم خالصا لحبك

للمساعدة ضد البطل رولاند

إذا ما وجدناه في قوات الساقة حسبما طلبنا

وقال غانلون له : سيتم تنفيذ ذلك

وقبلا بعضهما بعضا على الوجنات والذقون

٤٩ ــ ثم جاء بعد ذلك مسلم آخر اسمه كليمبورين

وشرع وهو يضحك يقول بحيوية لغانلون :

أقبل وخذ خوذتي التي لم أر أثمن منها

على عرفها ياقوتة

أعطيكها عربون صداقة صافية

إن كنت ستساعدنا ضد رولاند ببراعتك

في أن نسبب له ميتة تعيسة (٦٣١ ــ ٦٥٣)

ورد غانلون على ذلك : هذا ما سينفذ

وقبلا بعضهما بعضا بالفم والذقن

٥٠ ــ ثم توجهت الملكة براميموند بالخطاب الى الكونت :

عزيزي السيد الحكيم اني احبك عن صدق

مليكي يثني عليك ثناء عظيما وكذلك أتباعه

امنح هذا الزوج من الاقراط باسمي الى زوجتك

مثقلين بالياقوت والزمرد والذهب

هما أثمن من جميع ثروات روما

مثلهما امبراطورك لم يمتلك قط

وتناول الجوهرتين ودسهما في قبعته

٥١ ــ واستدعى الملك مالدويت ، القائم على بيت المال وسأله :

هل انتهيت من اعداد هدايا الملك شارلمان

فأجابه : نعم يامولاي ، بكميات هائلة :
سبعمائة جمل محملة بمعادن ثمينة
وعشرين رهينة لا نظير لهم تحت قبة السماء
٥٢ ـ ووضع مارسيليون يده على كتف غانلون
وقال مخاطبا اياه : أنت عاقل وشجاع
الآن بحق الايمان الطيب المشع من عينيك
لا تدع قلبك يتراجع عما صممناه
سأعطيك كنزا عظيما وله قيمة كبيرة
حمولة عشرة بغال من الذهب المستخرج من مناجم ديار العرب
وما من سنة ستمر الا وستستلم مثل ذلك
خذ الآن مفاتيح برجي الكبير (٦٥٤ ـ ٦٧٩)
وقدم للملك شارلمان كل ما فيه من ثروات
لكن تأكد أن رولاند سيكون في جيش الساقة
وإذا أمكن ان نجده في ممر أو في معبر
سأشتبك بالقتال الحاد معه حتى الممات
وقال غانلون : يخيل لي أنني أبدد الوقت
واعتلى ظهر حصانه وبدأ رحلته مسرعا
٥٣ ـ عاد الامبراطور الآن أدراجه
ووصل امام مدينة غين
(استولى الكونت رولاند عليها وأزال أسوارها
وقد بقيت بعد هذا مائة سنة مدمرة)
وهناك انتظر الملك وصول أخبار من غانلون
ووصول جزية بلاد اسبانيا العظيمة
ومع انبلاج الفجر وعند تباشير الصباح
دخل الى مخيم الكونت غانلون
٥٤ ـ مبكرا في ذلك اليوم غادر الامبراطورفراشه
حضر القداس وردد الآن صلواته
على العشب الأخضر أمام خيمته وقف رولاند
وكان مع رولاند أولفر الشجاع أيضا
والدوق نايمون وأيضا آخرون كثر

- ٤١٤٣ -
ثم جاء غاذلون الخائن اليهم ليخدعهم
وشرع يتكلم بزيف حاضر بارع
وقال مخبرا الملك: اليك حماك الرب
جلبت اليك الى هنا مفاتيح سرقسطة
وجلبت لك ايضا ثروات ترضي قلبك
وعشرين من الرهائن انظر اليهم محفوظين بدقة
وأرسل الملك مارسيل الشجاع هذه الرسالة (٦٨٠ ـ ٧٠٧)
يرجوك الا تغضب من غياب الخليفة
رأت عيناي أربعمائة ألف رجل
بالسوابغ تسلحوا وعلى الرؤوس شدوا الخوذ
وعلى أوساطهم علقوا السيوف المحلاة المقابض بالجواهر الثمينة
حضروا أمامه ثم الى شاطىء البحر ذهبوا
الايمان بدين المسيح لن يقبلوا وله لن يحفظوا
ولهذا السبب هربوا من امام مارسيلون
لكن ما ان سافروا بالبحر أربع مراحل ، ربما ، أو أقل
هبت عليهم عاصفة سوداء وعليهم حل الغضب
كلهم غرقوا ولن يروا ثانية
لو أنه ظل حيا لجئت به بنفسي
والآن ، بالنسبة للملك المسلم نفسه
صدقني يا سيدي إنه قبل مرور شهر
سيلحق بك الى فرنسا الى مملكتك
هناك سيتلقى الايمان الذي انت به تعتقد
وهناك سيضع يديه بيديك ويؤدي يمين الولاء
ومنك سيتسلم مملكة اسبانيا اقطاعا له
ثم قال الملك : تبارك اسم الرب
حسنا صنعت ، سأجيزك خير الجزاء
في وسط الحشود ألف من الأبواق صدحت
وقوض الفرنسيون المعسكر ووضعوا بضائعهم على دواب التحميل

الى الوطن الى فرنسا الجميلة كلهم باتوا قاصدين
٥٥ ـ عاث الملك شارلمان فسادا بالحدود الاسبانية
استولى على القلاع ، والمدن دمر والسكان ذبح
الآن قال الملك :إنه أنهى حروبه
نحو الوطن الى فرنسا الجميلة أدار الامبراطور رؤوس خيوله
....(سقط بيت أوبيتان من الأصل)
علم صغير الى سنان رمح رولاند ربط
على الروابي عرضه هناك وراء الحدود (٧٠٨ ـ ٧٣٣)
في السهوب نصب الفرنسيون معسكراتهم حول بعضها بعضا
في داخل الوديان الواسعة مضت الحشود الاسلامية الى الأمام
(كلهم شاكي السلاح) لبس لأمته وحمل سلاحه
خوذاتهم مربوطة وسيوفهم في جفونها
الدروع معلقة على رقابهم ورماحهم مجهزة بشكل جيد
في أعالي الجبال في مكان كثيف توقفوا
أربعمائة ألف انتظروا هناك قدوم الصباح
يا الهي إنه لمخيف أن يكون الفرنسيون بدون تحذير
٥٦ ـ ومضى النهار وتبعه الظلام وحل محله
الامبراطور مستغرق في نومه ، شارلمان الجبار
حلم أن سبيله اعترض في بوابه سيزرا العالية
ممسكا بيده رمحه الأسمر العظيم
أمسكه الكونت غانلون ، وهزه
وبغضب عظيم لواه بشده وحطمه
والى السماء العالية طار الحطام وتناثر
وظل شارلمان نائما ، ولم يستيقظ
٥٧ ـ وبعد هذا الحلم رأى مناما آخر
رأى نفسه في بيعته في اكس في فرنسا
على ذراعه الأيمن وضع دب شرير أسنانه
قادما من أردنز رأى فهدا مقبلا نحوه بسرعة
وارتعش جسده بسرعة واستبد به الغضب
ثم من القاعه جرى كلب صيد بكل سرعة

-٤١٤٥-
واقبل نحو غاذلون يعدو ويقفز
وبأول عضة أزال بوحشية أذنه اليمنى
ثم انعطف نحو الفهد واشتبك معه في معركة حامية
وقال الفرنسيون جميعا القتال جميل صالح للمشاهدة
(٧٣٤ _ ٧٥٨)

لكن ما من أحد يمكنه أن يحزر من سيكون المنتصر
وظل شارلمان نائما ، ولم يستيقظ من نومه
٥٨ _ وعبر ظلام الليل وانبلج نور الفجر
(ألف بوق) صدحت الحشود
وركب الامبراطور بأبهة ملكية وتابع ذهابه
وقال شارلمان : أيها البارونات ، سادتي انتبهوا الآن
هذه هي الممرات العالية ، هذه هي المسالك الضيقة قريبة
ثم قال : من سيتولى قيادة جيش المؤخرة ويقوم بحفظهما
وقال غاذلون : أنا اسمي رولاند ابن زوجتي
ليس لديك بارون يمكن أن يباريه في جسارته
وعندما سمع الملك ، نظر اليه نظرة حادة
وخاطبه بقوله : الشيطان حل بك حقا
الشر قد تلبسك واستولى عليك كليا
من الذي سيحفظ المؤخرة أثناء تقدمي ؟
قال غاذلون : أوغيير الداني ، أنا أصوت له
ليس لديك بارون آخر يمكن ان يقوم بذلك بشجاعة أكبر
٥٩ _ عندما سمع رولاند ما عين القيام به
قام بالرد حسبما يليق بالفارس أن يفعل
مولاي ووالدي العزيز : إنني أدين لك بالشكر
في أنني عينت لقيادة المؤخرة بناء على رغبتك
شارلمان ملك فرنسا لن يعاني من الخسارة أبدا
أنا مفوضك بالمهر هناك وبسرجه
ما من حيوان ركوب أو بغلة أو بغل
أو فرس نقل أو كديش لذلك سيخسر

باستثناء السيف أولا الذي اعطيته حقه (٧٥٩ ـ ٧٧٣)
وقال غانلون : أعرفه ، لقد تفوهت بالصدق
٦٠ ـ عندما سمع رولاند أنه ذاهب الى قوات المؤخرة
وأن زوج والدته هو الذي سماه ، تكلم بغضب صادر عن القلب :
له ، أيها الساحر الجبان ، والمجرم القذر ، والمنحط الأصل
لاتظنن أن القفاز سيسقط من يدي
كما سقط الصولجان منك أمام الملك شارلمان
٦١ ـ ثم طالب الكونت رولاند الامبراطور بجسارة قائلا : أيها الامبراطور العادل

من يمينك أعطني قوسك
واقسم ما من انسان سيتفوه بكلمة نقد
في أن أسمح له بالسقوط من يدي
كما فعل غانلون حين خلى الصولجان يهوي
وجلس الامبراطور مطرقا برأسه نحو الأسفل
وعبث بلحيته لحزنه وشدها حينا على وجنته وحينا على ذقنه
ولم يستطع أن يمنع دموعه من التدفق
٦٢ ـ وتقدم نايمون بعد دخوله نحو الملك(٧٧٤ ـ ٧٩٦)
ثم اتخذ مجلسه بشكل لائق جدا
وخاطبه بقوله : لقد أصغيت الى هذا كله
الكونت رولاند سريع الغضب
قيادة الساقة قد لزمته
وليس لديك بارونا قادرا على جعله يستقيل
أعطه القوس الذي تمسكه بيدك
واختر خيرة الرجال لعونه في هذه المهمة
وبناء عليه ناوله الملك اياه ، وامسكه رولاند
٦٣ ـ ثم توجه خاله الملك نحو رولاند بالخطاب قائلا
ابن أختي ، أيها السيد العاقل اسمعني الآن وانتبه لي جيدا
نصف جيشي سأترك بعهدتك لأداء هذا الواجب
احفظهم معك وستكون محفوظا معهم

وأجاب الكونت : لا ، أنا لن أوافق ابدا
ربي يقيني من مقارفة العار
سأحتفظ بعشرين ألفا من شجعان فرنسا
امض خلال الممرات بسلام وكن مطمئنا
لا تخش من انسان ما دمت على قيد الحياة
٦٤ ـ وامتطى رولاند حصانه المعد للقتال
ثم التحق به رفيقه أولفر
وجاء غيرين الشجاع والكونت غيريير
وجاء أوثون وكذلك فعل بيرنغير
وانسيس العجوز واستو المليء بالفضائل
وجيرارد ايضا وروسيلون الأمير المتكبر (٧٩٧ ـ ٨١٨)
ومعهم جاء غانفير الدوق الغني
وقال رئيس الاساقفة : بحق السماء أنا معك سيدي
وأنا ايضا ، أكد الكونت وولتر
أنا رجل رولاند ، أنا به مرتبط لخدمته
اختاروا عشرين ألفا من الفرسان ليكونوا اتباعا لهم
٦٥ ـ الى وولترهوم أعطى الكونت رولاند أوامره
خذ الف فرنسي من فرنسيي أرضنا
واحفظ الشعاب والمرتفعات على كلا الجانبين
لا تدع الامبراطور يفقد من جانبه رجلا واحدا
وقال وولتر : أنا مقبل على فعل كل ما طلبته
مع ألف فرنسي من فرنسا بلادهم العزيزة
على الشعاب والهضاب نشرهم الكونت وولتر لحفظ الجانبين
ليأتي ماسيأتي هو لن يتخلى مطلقا عن مواقفه
حتى يطبع سيفه بحده سبعمائة طبعة
الملك الميرك صاحب بالفيرنا الشاطيء
سيشتبك في ذلك اليوم مع هذه العصابة في قتال صعب
٦٦ ـ الهضاب عالية والوديان عميقة ومظلمة
الصخور مخيفة والشعاب عابسة مريعة
وأمضى الفرنسيون ذلك اليوم بألم وحزن

كان ضجيجهم مسموعا عن بعد خمس عشرة مرحلة كاملة
لكن عندما بعد طول انتظار رأوا أرض آبائهم
أرض سيدهم ، أرض غاسكوني (٨١٩ ـ ٨٤٥)
وقتها تذكروا مواطن عزتهم واقطاعاتهم
وزوجاتهم العزيزات اللائي هم بشوق لتحيتهم
مامن واحد كان هناك لم يبك لشدة انفعاله
وكان شارلمان أكثرهم شعورا بالحزن
فابن اخته ترك لحماية بوابات اسبانيا
في كل خلجة لم يكن قادرا على غير اختيار البكاء
٦٧ ـ الأتراب الاثني عشر خلفوا في اسبانيا
معهم عشرين ألفا من الفرنسيين الشجعان
كانوا شجعانا ، ومن الموت لا يخشون
الى أرض فرنسا ، سارع الامبراطور نحو أرض الوطن
وظل رأسه تحت ردائه مخفيا له
الى جانبه ركب الدوق نايمون
وسأل الملك : ما هي الهموم التي تفكر بها ؟
وقال شارلمان :إنه لعمل سيء أن تسأل لماذا
إنني حزين جدا ولا يمكنني إلا أن أتنهد
من خلال غانلون فرنسا الجميلة دمرت تماما
أراني ملاك رؤيا في الليل
كيف حطم في يدي رمحي تحطيما كاملا
هو الذي عين ابن أختي لقيادة قوات المؤخرة
في التخوم الأجنبية المهجورة رولاند مقيم
يارب ، ان فقدته ، لن أجد مثله أبدا
٦٨ ـ ولم يستطع شارلمان حبس دموعه
مائة ألف من الفرنسيين بكوا من أجله
ومن أجل الكونت رولاند كانوا بكل دهشة خائفين
هو الذي خانه اللورد غانلون
الملك المسلم دفع جائزة عظيمة
ذهبا وفضة وثياب الحرير والسقلاطون (٨٤٦ ـ ٨٦٩)

وخيول وبغال وجمال وحيوانات الصيد
واستدعى مارسليون بارونات اسبانيا
وامامه وقف نائبه الكونت المنصور
ايها السادة والأمراء والشباب ذوي المكانة الرفيعة
اربعمائة الف جمعهم في ثلاثة أيام
في سرقسطة أمر بضرب الدفوف
مهوند وثنهم عاليا على البرج رفعوه
وكل مسلم تعبده وأثني عليه وحمده
ثم زحفت جيوشهم بقوة ومضت بعيدا
من خلال تيرا سيرتاقطعوا الهضاب والوديان
رأوا الآن أعلاما فرنسية منشورة
والرفاق الاثنا عشر الذين كانوا في المؤخرة وقفوا ينتظرون
جاهزين للقتال ، ومامن أحد قادر أن يقول لهم لا
٦٩ ـ ومضى ابن أخت مارسليون مسافرا أمام الحشود
وكان يركب بغلا كان يضربه بعصاه
وقال لخاله وضحكة بادية على لسانه
سيدي الملك العادل : لقد خدمتك جيدا وطويلا
كثيرا ماعانيت ومن المتاعب تحملت
في العديد من ساحات الوغى قاتلت وكثيرا من المعارك ربحت
الضربة الأولى نحو رولاند هي المكافأة الأولى التي أريد
بسيفي البتار سأشطر جسمه الى شطرين
وقتها ، سأنال رضى مهوند وحظوته
بذلك سأحرر اسبانيا ، وأفك قيودها .
من بـــوابة اســـبانيا الى دور ســـتانت ومـــاوراء
ذلك (٨٧٠ ـ ٨٩٣)
سيخاف شارلمان وسينهزم الفرنسيون بالحال
وستتخلص من الحروب طوال حياتك
وحصل على القفاز من الملك مارسليون
٧٠ ـ وامسك ابن أخت مارسليون القفاز بيده

ثم شرع يخاطب خاله قائلا :
سيدي الحكيم ومليكي لقد أعطيتني عطية ثمينة
اختر لي اثني عشر أميرا ، خيرة من تستطيع انتقائه
ضد الأتراب الاثني عشر شجعاننا سيكمذون
وكان فالسرون أول من استجاب وتميز
وكان اخا لمارسليون الملك
أنا وأنت يابن أختي سنذهب بسرور لها
بكل يقين سنذبين في هذه المعركة
مع مؤخرة شارلمان ، تلك القوات التي حشدها لنفسه
ان كل شيء قد تم ، وكلهم قد قتلوا من قبلنا
٧١ ـ واندفع الآن الملك كورسابليس من بين الجموع
بربري المولد لفن السحر متقن
ومثل رجل شجاع شرع بكل جسارة يتكلم
لن أكون جبانا ، لا ، ليس من أجل جميع ذهب الرب
...... (سقط من الأصل عدة أبيات)
وجاء مالبريمس صاحب بريغيل يتدفق شجاعة
كان يمكنه أن يسابق على قدميه مهرا سريعا
وقال بصوت مرتفع متبججا أمام مارسيل
سأذهب بنفسي معك الى رونسيفو
واذا ماوجدت رولاند سأقاتله حتى أقتله
٧٢ ـ جاء من بالاغويت أمير (٨٩٤ ـ ٩١٨)
شكله شكل نبيل عيناه شجاعتان وذقيتان
وعندما يمتطي ظهر حصانه للقيام بمهمة
يحمله بشجاعة شاكي السلاح للمعركة
وكانت شجاعته معروفة من القريب والبعيد
وهو وان لم يكن مسيحيا ظهر بمظهر فارس صحيح
وأمام مارسيل صرخ حتى يسمعه الجميع :
قائلا الى رونسيفو أنا آخذ طريقي مسرعا
اذا ماوجدت رولاند سيكون الموت نصيبه
وأولفر أيضا وجميع الاتراب الاثني عشر

- ٤١٥١ -
الفرنسيون سيموتون ميتة عار ودموع
الملك شارلمان العجوز الفاني والاصم
سيمل حالا من اثارة الحرب هنا
ستكون اسبانيا لنا في سلام لسنين طويلة
وصب الملك مارسيل كلمات الشكر في أذنيه
٧٣ - وجاء المنصور سيد موريانى
لم يكن هناك أشد شكيمه منه في اسبانيا كلها
وأمام مارسيل وقف متبجحا متفاخرا يقول :
الى رونسيفو سأقود جماعتي مباشرة
عشرون ألفا في الصفوف يحملون الرماح والحراب
بحق عقيدتي اذا مالقيت رولاند سأقتله
ومامن فجر يوم سيمر الا وسيبكيه شارلمان
٧٤ - وبعده جاء تورغيز صاحب تورتيلوزا
كان أميرا وكان يمتلك المدينة كلها
وأبدى دوما سوء نواياه تجاه المسيحيين
وقف أمام مارسيل واصطف خلفه أتباعه (٩١٩ - ٩٤٦)
وخاطب الملك قائلا : لاتخف من أي واحد من الأعداء
مهوند اسمى بكثير من القديس بطرس الروماني
أخدمه ، ساحة الوغى لنا ، وغنائم الحرب لنا
الى رونسيفو أنا ذاهب للقاء رولاند
هناك سيموت ، هناك لن يلقى مساعدة انسان
انظر هنا الى سيفي كم هو طويل وأصيل
أعده ضد دورندال وأراه له ند شجاع
من الذي سينتصر ؟ لن يطول بك المقام حتى تعرف
الفرنسيون سيلاقون حتفهم اذا ماتجرأوا على التصدي لنا
شارلمان العجوز سيبكي طويلا وينتحب
التاج لن يلبسه بعد تلك اللحظة
٧٥ - وكان اسكريميز صاحب فالتيريني هو التالي
هو مالك لها كاقطاع ، وهو مسلم
وأمام مارسيل صرخ وسط الجموع :

أنا ذاهب الى رونسفال لأفرق جموعهم
واذا ماوجدت رولاند هناك سيفقد رأسه
وأولفر الذي هو رئيس البقية
الاثني عشر رفيقا سيعدون بين الأموات
والفرنسيون سيموتون وفرنسا ستكون خاسرة
وقلة من الرجال الجديرين سيتركون لشارلمان
٧٦ ـ ثم جاء مسلم اسمه استورغان
ومعه جاء استرامارين رفيقه
شريران خبيثان كلاهما كانا ومتآمران خائنان
ثم قال مارسيل : ايها السادة اقتربا مني ، أرجوكما
هل تريدان ان تشقا طريقكما خلال رونسيفو
وأقود قواتي وتقدما لنا أفضل مساعداتكما ؟
وأجابا : أئمرنا ونحن سنطيع
على كل من أولفر ورولاند سننقض (٩٤٧ ـ ٩٧٤)
من الاتراب الاثني عشر ن ينجو ' ـا من الموت
سيوفنا مشحونة ونصالها ممتازة
كلهم سنصبغهم بالدماء الساخنة الحمراء ذلك اليوم
الفرنسيون سيموتون وشارلمان سينزل به الويل
وسنقدم لك هدية وطن عرقهم
ايها الملك تعال معنا وانظر كيف ستمضي المعركة
وكهدية سنعطيك شارلمان
٧٧ ـ ثم جاء مسرعا مرغريس صاحب اشبيلية
الذي يمتلك من البلاد بعيدا حتى كازمرين
السيدات جميعا يحببنه ، لأنه كان جميلا جدا
تلك التي تحتويه على شفتيها ابتسامة
سواء اشاءت هي أم أبت لابد أن تضحك كثيرا
وليس هناك مسلم يوازيه بالفروسية
لقد التحق بالجميع وصرخ نحو الملك قائلا :
سيد الجميع لاتخش أبدا من الخسارة
في رونسيفو الى رولاند هذا سأذهب وأقتله

- ٤١٥٣ -
وأولفر سوف لن يعيش طويلا
جميع الرفاق الاثني عشر سأمزقهم اربا اربا
تعالوا وانظروا ، هذا هو سيفي بمقبض مذهب
أمير الأمراء أعطانيه هدية
أقسم أنني سأصبغه بالدماء القانئة حتى مقبضه
الفرنسيون سيموتون وفرنسا في العار ستعيش
شارلمان ذي اللحية الشهباء ، لن يعيش كما أظن
يوما ، الا وسيزمجر ويبكي لهذا
فرنسا ستكون لنا ، في سنة ، اذا ماأردنا
في سانت ديذس سنأكل وننام كما نريد
وقدم الملك المسلم تحية وافية وعميقة له
٧٨ ـ وأخيرا جـــاء شـــيرذوبلز صـــــــاحب مونغير (٩٧٥ ـ ١٠٠٣)
شعره غير المقصوص جره متدليا حتى قدميه
بامكانه أثناء التباري ان يحمل على كتفيه اذا أراد
وزنا أكثر مما يستطيع أربعة بغال أقوياء أن يحملوه
انه يقطن في منطقة ، فيها كما يعتقد
الشمس لاتشرق أبدا ، وهي لاتنبت حبة قمح
لامطر يمكن أن يهطل والندى لم ير فيها قط
هناك كل حجر أسود أكثر من السواد
وبعض الناس يقول انها موطن الشيطان
وقال شيرذوبلز : سيفي موضوع في غمده
في رونسيفو سأصبغه كله بالدم الأحمر
اذا ماعبر رولاند من ممري ، ذلك الرئيس الشجاع
ولم أطعنه ، لاتثقن بي أبدا
امام سيفي هذا سينهزم دورندال
الفرنسيون سيموتون وفرنسا ستترك عرضة للنهب
هذا ماقيل ، واجتمع الأبطال الاثنا عشر للتشاور
لقد قادوا مائة الف مسلم شجاع
كل واحد منهم كان يلتهب حماسا ليقوم بانجازات عظيمة

في ظل ايكة من شجر الارز سلحوهم للقتال
٧٩ ـ ارتدى المسلمون الآن السوابغ الاسلامية
وضاعف معظمهم سوابغهم ثلاث مرات
وشدوا على رؤوسهم باحكام الخوذ السرقسطية الجيدة
سيوف من فولاذ فيانا علقت على أوساطهم
وحملوا رماحا بلنسية وترسة جيدة تماما
وكانت راياتهم ارجوانية وزرقاء وبيضاء
وخلفوا بغالهم وأكاديشهم
وامتطوا ظهور مهورهم
وساروا في صفوف متلاصقة
وكان النهار جميلا ، وتلألأ نور الشمس بوضوح
الف بوق صدحت لاظهار مزيد من السرور (١٠٠٤ ـ ١٠٣١)
وكانت الضجة عظيمة ، ووصلت الى صفوف الفرنسيين
وقال أولفر : يخيل لي يارفاقي
سنحتاج الى هذا اليوم للقتال ضد المسلمين
ورد رولاند : أرجو الرب أن تكون محقا
هنا ينبغي ان نقف لنخدم الى جانب الملك
على الرجال أن يتحملوا في سبيل ساداتهم مصاعب جمة
وأن يتحملوا الحر الشديد والبرد القارص في كل موسم
وأن يضحوا في سبيله ـ اذا اقتضت الحاجة ـ بالبشرة والروح
انتبهوا الي الآن ـ ليطعن كل رجل بشدة
لن تغنى أغاني مخجلة لتعييرنا
المسلمون على خطأ والمسيحيون على صواب
وأنا أقول : لن تحكى عني حكايا مريضة
٨٠ ـ وتسلق أولفر على شرف مرتفع
ونظر الى يمينه عبر الشعب المعشوشب
ورأى المسلمين وكيف كانوا يسيرون متراصين
ودعا رفيقة رولاند وقال :
أرى من اسبانيا أمواجا وصفوفا تتدفق
وسوابغ كثيرة لامعه ، وكثيرا من الخوذ المشعة

يوما من الغضب سيجعلونه لفرنسيينا
غانلون ذي القلب الزائف والمتورط في الخيانة كان يعرف ذلك
عندما سمانا للامبراطور للقيام بهذه المهمة
وقال رولاند : اسكت ياكونت أولفر اسكت ياصديقي
هو زوج والدتي ، لن أسمح بكلمة ضده
٨١ ـ وتسلق أولفر تلة مشرفة على السهل
منها كان يمكنه ان يرى ارض اسبانيا كلها
ويرى كم هي صفوف المسلمين كبيرة
ويرى الخوذ البراقة والمتلألئة بالذهب والجواهر
وجميع التـــــــــــــرسة وكل الدروع والســـــــــــــوابغ اللامعة (١٠٣٢ ـ ١٠٥٨)

وجميع الرماح التي ترفرف الأعلام فوق اسنتها
حتى فيالقهم كان غير قادر على تقديرها
لم يستطع عدها ، كانت أعدادها كبيرة جدا
ومع أنه قوي متماسك فقد شعر برعب عظيم
وبادر الى الهبوط بكل ماأوتيه من سرعة
وجاء الى الفرنسيين وأخبرهم بحكايته كلها
٨٢ ـ قال أولفر : القوات المسلمة التي رأيت
لم يجتمع مثلها قط على وجه الأرض
مائة ألف متقاطرون تحت التروس
خوذهم مشدودة وسوابغهم براقة
رماحهم مرفوعة بأسنة فولانية مشعة
ستواجهون معركة لم يواجه أحد مثلها على ساحة الوغى
سادتي الفرنسيين ليمدكم الرب بالقوة وقت الحاجة اليها
انقذوا موقفكم بسرعة ، هذا المكان لايمكن الحفاظ عليه
وقال الفرنسيون جميعا ، عار مهين ان نفر
نحن رجالك حتى الموت ، مامن رجل منا سيتراجع
٨٣ ـ قال أولفر : حشود المسلمين هائلة
وفرنسيونا عددهم ليس بالكبير

يارفيقي رولاند : أرجوك دع بوقك يصدح
حتى يمكن لشارلمان أن يسمع ويعود مع قواته كلها
ورد رولاند : مجنون أنا اذا ، لابل اكثر
وسمعتي في فرنسا الجميلة ستتشوه
سأضرب الجموع العظيمة بسيفي دورندال
سأصبغه بالدم الاحمر حتى مقبضه
وصل المسلمون الى هذا الممر في صباح تعيس
اقسم لكم الموت سيكون ماكتب لهم هاهنا
٨٤ ـ يارفيقي رولاند ، اصدح ببوقك العاجي
سيسمعنا الملك شارلمان وسيعود نحونا مع قواته
سينقذنا بوساطة قوات فرسانه
ورد رولاند : لاسمح الرب بذلك
في أن القي العار على بيتي
او على فرنسا الجميلة أنزل أي عار
الافضل أن أقاتل بدورندال وأضارب
بهذا السيف المعلق بكتفي والمتدلي برباط منه
من راسه حتى مقبضه سترى الدماء تسيل عليه
الويل للمسلمين الذين سيعاذون من هزيمة ماواجهوا مثلها قط
اقسم بايماني سنطعنهم ونلقيهم موتى على القاع
٨٥ ـ رفيقي رولاند ، انفخ في بوقك
شارلمان في الممرات سيسمع الصوت وهو يسير
صدقوني سيعود الفرنسيون مباشرة
وأجاب رولاند مغضبا ، الآن الرب يمنع ذلك
ذلك الرجل الحي ينبغي أن يقول انه رآني أذهب
نفخ الابواق من أجل أي من أعدائنا المسلمين
لن يتعرض أقربائي للانتقاد قط
عندما سأقف في صدام الحشود العظيمة هذا
سأضرب الف ضربة ثم اتبعها بسبعمائة اخرى
الدماء الحمراء ستسيل على فولاذ دورندال
الفرنسيون أقوياء ، سيذشبون معركة جسورة

رجال اسبانيا هؤلاء سيموتون ولاأمل أمامهم
٨٦ ـ قال أولفر : هاهنا لاأرى ملامة (١٠٨٢ ـ ١١٠٩)
لقد تفحصت مسلمي اسبانيا فوجدتهم
يغطون جميع الجبال والوديان
وقد انتشروا على أطراف الهضاب والسهول
الطاقة التي يعرضها هؤلاء الأجانب هائلة
وصفوفنا تبدو صغيرة
وقال رولاند : أنا مشتاق أكثر للنزال
وأصلي الآن للرب وملائكته ليحول
دون وسم فرنسا الجميلة بالعار من قبلي
أنا أفضل أن أموت على أن يلحق بها العار
اذا كان الملك يحبنا فمن أجل شجاعتنا
٨٧ ـ رولاند مندفع وأولفر متعقل
وكلاهما في ميدان الشجاعة فازا بالجائزة
وماأن يمتطيا فرسيهما ويتسلحا فقرار الحرب قد اتخذ
خوفا من الموت لم يهربا قط من ساح الوغى
الكونتان شجاعان كلاهما يحرض ويرفع المعنويات
والآن زحف المسلمون المزيفون بحذق عظيم
وقال اولفر : انظر رولاند انهم على مدى البصر
شارلمان بعيد جدا ، وهؤلاء قريبون جدا
انت لن تنفخ ببوقك بسبب كبريائك
لو كنا مكان الامبراطور لكنا على أحسن مايرام
التفت نحو بوابة اسبانيا وارفع عينيك
انظر بنفسك الى الوضع المأساوي الذي فيه قواتنا
الذي سيقاتل هذا اليوم لن يرى قتالا بعد هذا
ورد رولاند : لاتتفوه بمثل هذا الكلام الممجوج
ملعون الصدر الذي يعرف قلبه الجبن
هنا في هذا المكان سنقف وهنا سنقيم أبدا
ليكن اللكم والضرب لنا حتى نأخذ ونطعن
٨٨ ـ عندما رأى رولاند أن المعركة لابد واقعة

هناك (١١١٠ ـ ١١٣٦)
لا الفهد ولا الاسد بدوا أكثر شجاعة منه
هو دعا الفرنسيين وأمر أولفر ان يصغي :
السادة الأصدقاء والرفاق بكلمات من هذا القبيل لن تتفوهوا
عندما أعطانا الملك الفرنسيين القيام بهذا الواجب
هؤلاء العشرين الفا اختارهم لأداء هذا العمل
عرف جيدا أن مامن واحد منهم سيتردد أو يهرب
على الرجال تحمل المشاق العظيمة من أجل مولاهم
وأن يتحملوا في سبيله البرد القارص والحر المحرق
وأن يعانوا من الجراح الكبيرة وأن يدعوا أجسادهم تنزف
اطعنوا بأسنتكم سأضرب بسيفي البتار
دورندال الذي أعطانيه الامبراطور
واذا مامت على الذي يناله أن يوافق
على أن من سيحمله لابد أن يكون فارسا جيدا وجديرا
٨٩ ـ ثم الى جانبهم جاء رئيس الأساقفة توربين
ممتطيا فرسه وعلى طرف رابية اعتلى
ودعا الفرنسيين وأقام لهم قداسا وقال في مواعظه :
أيها البارونات ، سادتي ، اختارنا الملك شارلمان لهذا الغرض
علينا ان نستعد للموت في خدمة مليكنا
المسيحية بحاجة لنا ، لذا ساعدونا على الحفاظ عليها
المعركة ستخوضون ، أعينكم قد شاهدتهم
اضربوا الآن صدوركم واسألوا الرب رحمته
انا سوف احللكم وأضمن أرواحكم
اذا مامتم ستكون الشهادة نصيبكم
وستقيمون في أعالي الفردوس أبدا
وابتهج الفرنسيون وجثوا على ركبهم يتعبدون
وللرب اعترفوا ولهم منح رئيس الاساقفة التبريكات
(١١٣٧ ـ ١١٦٤)
ولنيلهم الغفران أمرهم بالضرب بصلابة

٩٠ - ونهض الفرنسيون ووقفوا على أقدامهم متقاربين
كلهم قد حللوا من ذنوبهم وتحرروا
ولهم منح رئيس الأساقفة التبريكات
ثم قفز كل منهم على ظهر مهره السريع واستقر على سرجه
وكلهم تسلح بالسلاح الذي أوجبه قانون الفروسية
نحن الآن جميعاً جاهزين للذهاب الى ساحة العراك
وقال الكونت رولاند لأولفر ما يلي مباشرة :
سيدي ورفيقي الكلمة التي تفوهت بها صحيحة جدا
لقد باعنا غانلون جميعا
لقد أخذ ثروات عظيمة وبضائع وذهبا
وأعتقد أن انتقام الامبراطور لن يكون بطيئا
لقد راهن الملك ما رسيل على أجسادنا
سيحتاج الى السيف لجلب ما اشتراه الى الديار
٩١ - مضى رولاند خلال بوابات اسبانيا عابرا على ظهر فرسه
نحو ميلانتف ساق فرسه مسرعا
وكان هو الذي مضى شاكي السلاح
نحو السماء رفع سنان رمحه بعيدا
وربط على قناته ريشة بيضاء كالحليب
وكانت حوافها تلامس يده عند المقبض
جميل بذبل وبوجه مشرق ضاحك
وسار مرافقوه خلفه مجدين
وأعلن الفرنسيون جميعا عنه أنه حاميهم
وألقى نحو المسلمين نظرة كبرياء
لكن ما ألقاه نحو رجال فرنسا كان لطيفا ناعما
فإليهم تحدث دوما من قلب ودود
والآن سادتي البارونات ، ازحفوا تقدموا بخطاكم
(١١٦٥ - ١١٨٧)
انظروا الى هؤلاء المسلمين المرعبين وهم يزحفون بحجم عظيم
سنحصل مع مرور هذا اليوم على غنائم ثمينة ورائعة
لم يحصل أي ملك فرنسي على نصف مثلها قط

وفيما هو يتكلم كانت المعركة قد بدأت وكان القتال قد نشب
٩٢ ـ وقال أوليفر : ليس لدي المزيد لأقوله
لن تسمع بنفخ بوقك طالبا المساعدة
والى هنا لن يأتي شارلمان
ما يعرفه قليل ولن يوجه اللوم الى القلب الشجاع
ومثله الذين معه ، فهم لم يقترفوا خطأ من الأخطاء
ازحف الآن الى الإمام وافعل خير ما يمكنك فعله
أيها البارونات ، سادتي ، اثبتوا وسط المعمعة
أرجوكم ، من أجل الرب ، كونوا شجعان ثابتين
لتطعنوا بشدة وتضربوا ، لتأخذوا منهم وتعطوهم
لا تنسوا شعار الملك شارلمان أن لاتتنادوا به
وصرخ الفرنسيون معا صوتا مجلجلا
جعل كل من سمعه يهب مرعوبا
وسيتذكر شجاعتهم طوال ايامه
واندفعوا مهاجمين فالرب لم يرقط مثلهم شجاعة
ونخسوا خيولهم لتسرع غاية السرعة
وانقضوا يقاتلون ذلك أنه لم يكن أمامهم سبيل لغير
والتحم المسلمون بهم بكل شجاعة
وبات المسلمون والفرنجة يقاتلون وجها لوجه
وتقدم الآن أدلروث ـ ابن أخت الملك مارسيلون
(١١٨٨ ـ ١٢١٦)
أمام الحشود وكان الاول بين اتباعه
وخاطب الفرنسيين بالكلمات الشريرة التالية :
أيها الفرنسيون الشجعان عليكم أن تدركوا معنا
أنكم قد خنتم من قبل الذي عليه حمايتكم
ينقص ملككم الذكاء لانه في الممرات ترككم
ستخسر فرنسا الجميلة شرفها في هذه المغامرة
من جسم شارلمان ذراعه اليمنى ستقتطع
عندما سمع رولاند هذا ، الرب وحده يعرف مقدار غضبه
غمز حصانه وأرخى عنانه وعلقه بريانه

وسدد ضربة بذل فيها كل ما أوتيه من قوة
فشطر المجن والدرع حطم
والصدر مزق ولعظام الصدر خرق
ومن ظهر الرجل أخرج عظام الظهر ملتوية
وروحه وكل ما فيه أحضره على سنان الرمح
وطعنه طعنة نافذة ومن على سرجه ألقاه
وأطاح به ورمى به بعيدا مقدار طول قصبة أو أكثر
والى قسمين قطع رقبته
ثم اليه توجه بالخطاب وقال له :
لن تتفوه ثانية بأن الامبراطور يعوزه الذكاء
لانه ليس كذلك ولانه لم يحب الخيانة قط
لقد صنع ما هو صحيح ذاك الذي تركنا بالممرات
ولن تفقد فرنسا شرفها بهذه المغامرة
الدم الاول لنا ، امضوا في سبيلكم يا شجعان فرنسا
وكونوا الى جانبنا واسيئوا الى هؤلاء السحرة
٩٤ ـ وكان هناك أمير اسمه فالسارون
وكان أخا الملك مارسيلون
وقد امتلك أرض ابيرام وداثان
ولم يكن تحت السماء من هو أشجع منه
بين عينيه كان حاجباه كثيفان ونافران (١٢١٧ ـ ١٢٤٧)
أفترض أن طولهما كان نصف قدم تماما
وقد ندب مقتل ابن اخته بمرارة
ومن بين الصفوف اندفع وحيدا
وفيما هو مندفع نادى بشعار المسلمين
وعلى الفرنسيين صب اللعنات الشريرة
فرنسا الجميلة ستجد شرفها اليوم قد طار
وسمعه أولفر وازداد غضبه منه
ونخس حصانه بمهمازيه الذهبيين
واندفع بخلق فروسي ليطعن عدوه
فحطم درعه وخرق سابغته

وجعل رمحه ينفذ من صدره وكذلك حربته
وأطاح به ومن على ظهر حصانه رماه مقدار قصبة
انظر نحو الاسفل لترى الكافر قد تمدد ميتا
وهكذا خاطبه بصوت كله فخار :
أيها المنحط أنا لن أعبأ بتهديداتك ولن اهتم
أيها السادة الفرنسيون ، اضربوا ، سنلقيهم جميعا على الارض
وبشعار حرب شارلمان ــ جبل المسرة رنادوا بكل شجاعة
٩٥ ــ وكان هناك ملك اسمه كورسابلس
من أرض بعيدة جاء ، من بلاد البربر
الى المسلمين توجه بالخطاب قائلا :
حسنا هل اتخذنا موقع القتال هذا لنحتفظ به
لأن أعداد هؤلاء الفرنجة ضعيفة
وبامكاننا التخلص من هؤلاء القلة الذين نرى
لن يستطيع شارلمان القدوم لمساعدتهم وقت الحاجة
هذا هو اليوم الذي قضي فيه بموتهم جميعا
وأصغى رئيس الأساقفة توربين الى خطابه
فأبغضه أكثر من ابغاضه لأي انسان في الوجود
وبمهمازيه الذهبيين نخس بشدة مهره
وساق ضده واندفع اندفاع الشجاع
فحطم درعه ومزق سابغته الفولاذية
وفي صدره دفع سنان رمحه عميقا (١٢٤٨ ــ ١٢٧٤)
وجعله ينفذ منه ، ثم القاه كومة هامدة
ورماه ميتا مقدار طول رمح بعيدا عنه
ونظر نحو الأرض فرآه تحت قدميه
لكن ليخاطبه لم يتوقف بل تابع سيره نحوه قائلا :
أيها الكافر الشرير ، كذبت بكل ما تفوهت به
سيدي شارلمان العظيم لن يتوقف عن تقديم المساعدة لنا
وليس لدى فرنسيينا أدنى رغبة بالفرار
وأصدقاؤك هؤلاء من بين جنسيك نريد أن نترك لهم
أخبارا : ستموتون ، وهناك ستكونون

أيها الفرنسيون ، تابعوا سيركم نحو الوطن ولا تنسـوا أصـواكم الطيبة
الضربة الطيبة الاولى لنا ـ حمدا الرب
وصاح ـ جبل المسرة ـ ليشجع جميع المحاربين
٩٦ ـ وضرب غيرين مالبريمز صاحب بريغيل
ولم يصمد درعه ولم يدفعه أبدا
وحطم المجوهرات المرصع بها وأحاله الى فتات
ووقع شطر الدرع على الارض
وقطع السابغة ووصل الى الجسد
والى القلب سدد رمحه وجعله ينفذ
وسقط المسلم وتمدد على الأرض بكل ما عليه
ثم جاء الشيطان وحمل روحه بعيدا
٩٧ ـ واندفع غيريير صديقه نحو الأمير
شطر درعه وقطع عراه
ومرر رمحه في صدره وأحشائه
وبعدما دفعه عميقا مرره من ظهره
ثم رمى به وجعل جسده يطير مقدار طول رمح
وقال أولفر : نحن أفلحنا في عملنا
واندفع الدوق سمسون نحو الأمير المنصور (١٢٧٥ ـ ١٢٩٦)
وخرق درعه المذهب والذي عليه رسوم الورود
ولم تفده سابغته ولم تدفع عنه
مزق قلبه ، وكبده ، ورئتيه
وضربه فخرميتا ، لا يبكي ولا يبكيه أحد
وصرخ رئيس الأساقفة : هذه مهارة الفرسان وأعمالهم
٩٩ ـ وأرخى أنسيس العنان لمهرة الجيد

واندفع وساق مسرعا نحو تورغير صاحب تورتلوز
وخرق درعه حيث كان مطليا بالذهب
ونفذت ضربته خلال سابغته المزدوجة
والى داخل جسمه أنفذ سنانه الفولاذي

وجعله يمر من خلال ظهره
ثم أطاح به وقذفه ميتا مقدار طول رمح
وقال رولاند : رائع ، هذا عمل من أعمال الشجعان
١٠٠ ـ أما انعلير الكاسكوني صاحب بوردو
فقد نخس مهره الطيب وأرخى له عنانه وتركه يمضي
ومن اسكريمر سيد فالتيرنا اقترب
وحطم الياقة التي أحاطت بعنقه
والسابغة مزقها بضربة واحدة
وفصل رأسه عن جسده
وأطاح به ورماه بعيدا مقدار طول رمح تماما
ثم قال له : ليأخذ الشيطان روحك
١٠١ ـ وضرب أوثـــون مســـلما اســـــمه اســـــتورغانت
(١٢٩٧ ـ ١٣١٩)
وسدد ضربة نحو النقطة البيضاء في درعه
وهكذا تمزق البياض وتحطم الارجوان
وخرقت سابغته ومزقت
ومضى الرمح خارقا جسده
ومن على ظهر مهره السريع أطيح به وسقط ميتا
وقال : والآن ، احصل على الراحة إذا تمكنت
١٠٢ ـ ثم ساق بيرنغر نحو استرامارن
فحطم درعه ومزق سابغته
وعلى قناة رمحه القوي حمل جسده
ثم رماه ميتا وسط آلاف المسلمين
وبات الآن عشرة من الأتراب الأثني عشر مقتولين
اثنان منهم وليس أكثر ظلا بين الأحياء
وهذان هما شارنوبل والكونت ما رغاريس
١٠٣ ـ والآن مارغاريس واحد من الرفاق الشجعان
نشيط وقوي ، ماهر وسريع وشجاع
غمز حصانه ليضرب أولفر
وشطر درعه وقطع العلامة الذهبية التي عليه

وعلى طول جنبه مر سنان الرمح اللامع
لكن بنعمة الرب جسمه لم يخرق
كما أنه لم يقع مع أن الضربة حطمت رمحه
ومربه المسلم وهو يؤدي واجبه تماما
واستدعى رجاله بصوت مجلجل واضح
١٠٤ ـ المعركة كبيرة والحشود هائلة (١٣٢٠ ـ ١٣٤٨)
لم يتوقف الكونت عن الطعن في ذلك اليوم
وصال وجال برمحه ما دام سنانه في مكانه
وتلقى خمس عشرة ضربة شديدة حتى انقصف وتحطم
ثم امتشق حسامه دورندال وتناوله
وغمز مهره وساق بسرعة ضد شارنوبل
وبسرعة البرق قطع الخوذة
وجرى وسط العرف الفولاذي ثم في الرأس ثم في المخ
ومضى خلال السرج ذي الصفائح الذهبية
وظل نصل هذا السيف ماضيا في جسد الحصان
لم يقف في سبيله شيء ومر قاطعا
فألقى بالحصان والرجل ميتين على السهل المعشوشب
اسقط أيها القذر ، ايها الجبان ، ولن تقاتل ثانية
وقال ايضا : لن يأتي محمد (صلى الله عليه وسلم) لمساعدتك ابدا
شجاع مثلك عبثا حاول نيل النصر .
١٠٥ ـ ومضى رولاند وسط المعركة على ظهر حصانه
وبسيفه الجيد ، دورندال يضرب ويقطع
وما جباه من المسلمين كان مرعبا
لو رأيته ، لرأيته يلقي جثة ميت فوق جثة ميت آخر
ولرأيت الدم القاني حول طريقه
واصطبغ درعه وذراعاه بالدم أثناء القتال
وتلون حصانه بالدم من عرفه الى حوافره
ولم يتوقف أولفر ايضا عن الضرب

ولم يكن الأتراب الاثني عشر متخلفين عنهما
وكان الفرنسيون جميعا يضربون ويطعنون
وسقط المسلمون بعضهم موتى وبعضهم يموتون
وقـــال رئيس الأســـاقفة :ليبـــارك الرب فـــرساننا
(١٣٤٩ ـ ١٣٧٢)
وصرخ ـ جبل المسرة ـ شعار حرب شارلمان الجبار
١٠٦ ـ ومضى أولفر على ظهر حصانه وسط الحشود
رمحه قد انقصف وظل بعض القناة معه فقط
وساق مباشرة ضد مالون المسلم
فحطم درعه ذي الورود والمحلى بالذهب
واقتلع عينيه من رأسه
وهكذا تطاير مخه حول قدميه
والقى بالجثة وسط سبعمائة من الأموات
ذبح توزغيز ثم الحق به استورغوت
حتى تحطمت القناة وباتت أجزاء
صرخ رولاند : ماذا تفعل يا صديقي ؟
أنا لن أعطيك قناة ضعيفة عوضا عنها
هنا ينفع الفولاذ ، الفولاذ فقط ولا شيء آخر
أين هو سيفك هوتيكلير حسبما سميته ؟
بشاربيه الذهبيين ومقبضه المرصع بالجواهر
وقال أولفر : لم أجد الوقت لامتشاقه
كنت مشغولا بالضرب يمنة وشمالا
١٠٧ ـ وامتشق أولفر سيفه الممتاز
بناء على الحاح من صديقه رولاند
الآن سيبرهن به أنه فارس قوي بذراعيه
ووجه ضربة الى المسلم جوستين صاحب وادي فيرات
فمضى في وسط رأسه وحطمه
وشق منكبيه وصدره وظهره
والسرج المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر (١٣٧٣ ـ ١٣٩٥)

ووصل الى ظهر الحصان فقطعه
وسقط الجميع وتمددوا على الأرض موتى أمامه
وقال رولاند : بعد هذا ، سأدعوك أخي
لمثل هذه الضربات أحب امبراطورنا الرجال
ومضى النداء ــ جبل المسرة ــ عاليا فوق كل يد
١٠٨ ــ انطلق الكونت غيرين على ظهر مهره سوريل
ومثله فعل رفيقه غيرييز على ظهر باسيسيرف
كلاهما أطلقا اعنتهما ومضيا الى الأمام
وتوجها ليضربا المسلم يتموزيل
أحدهما على ترسه والآخر على صدره
وخرق رمحاهما في لحظة واحدة صدره
والقيا به نحو الأرض ميتا
إنني لا أعرف ، كما لا أستطيع أن أروي
أي الاثنين كان أسرع وأمضى
(وبعدها انغلير الفارس من بوردو
قتل اسبريفير الذي كان ابنا لبوريل)
وأطاح رئيس الأساقفة توربين بسغلوريل
الساحر الذي ذهب فورا الى الجحيم
والذي قاد جوبتير بتعاويذه السحرية
وقال تورىين وقتها : كتب عليه الموت
ورد رولاند : جاءت نهاية الدنيء
بضربة من أخي أولفر جعلتني في غاية السرور
١٠٩ ــ وكان القتـــال ضـــاريا وازداد ايضـــــــا ضراوة
(١٣٩٦ ــ ١٤٢٢)

وقاتل الطرفان الفرنسي والمسلم بكل شدة
بعضهم يضرب وبعضهم يرمي
عدد كبير من الرماح صبغت هناك بالدماء وتحطمت
كم من الرايات وكم من الأعلام تلطخت ومزقت
كم من شباب فرنسا في عمر الورود طرحوا أمواتا

الذين لن تلتقي بهم أزواجهم وأمهاتهم ثانية
ولا الفرنسيين الذين وقفوا بانتظارهم على الطريق
لا بد ان يبكي الملك شارلمان وينتحب لما فعله العدو
ماذا يمكنه أن يفعل ؟ هو لا يمكنه انقاذ شعبه
هل سيخدم الكونت غانلون شارلمان عندما يمضي
الى سرقسطه وهو قد باع شعبه كله
لهذا فقد روحه وأطرافه
على حبل المشنقه بعدما حاكموه في اكس
وجرى شنق ثلاثين من أقربائه ايضا
ممن لم يعتقد انه سيلاقي مثل هذه النهاية
١١٠ ـ المعركة ضارية والقتال يزداد قسوة
وضرب أولفر ورولاند بكل شجاعة
وسدد رئيس الأساقفة آلاف الضربات الشديدة
ولم يتخلف الاتراب الاثنا عشر في الوراء
وتقدمت الصفوف الرئسية وقاتلت بكل قواها
مئات الالوف من جثث المسلمين تكومت

ما من أحد أمكنه النجاء ما لم يدير ظهره ويفر
سواء أرغب أم لم يرغب لا بد أن يفقد حياته
ولا بد ان تفقد فرنسا هناك خيرة فرسانها
هم لن يروا ثانية أقربائهم أو ذويهم
ولن يرو شارلمان الذي راقب الممرات بعيون قلقة
وسرت في خلال فرنسا كلها روح من الرعب (١٤٢٣ ـ ١٤٤٨)
سمعت أصوات الرعود وهبت رياح عاصفة شديدة
وتساقط من السماء مطر وبرد لم يعهد لهما مثيل
وكان هناك برق كثيف أضاء الأرجاء
وفي الحقيقة زلزلت الأرض طولا وعرضا
بعيدا حتى القديسيين ووصولا الى شاطىء القديس ميكائيل
وشعر بها من بيسانكون الى ميناء ويسانت
ولم يبق بيت أو جدار الا تشقق وتصدع

وقت الظهيرة حل ظلام مثل الليل الدامس
وباستثناء البرق لم يكن هناك بارقة ضوء
ما من أحد واجه ذلك الا وشعر برعب شديد
وقال كثيرون : هذا يوم الآخرة
انها نهاية الدنيا ودنا يوم الحساب العظيم
هم لم يقولوا الصدق وما كان بامكانهم قراءة العلامات
إنه موت رولاند هو الذي سبب هذه الجلبة الهائلة
١١١ ـ وقاتل الفرنسيون بشجاعة ونجاح
وانتشرت جثث المسلمين بالعشرات والآلاف
من مائتي الف أقل من اثنين سيكون بامكانهما القتال ثانية
وقال رئيس الأساقفة : حقا ان رجالنا رجال شجعان
مثلهم ليس لدي أي سيد تحت قبة السماء
هكذا كتب في تواريخ أعمال الفرنسيين:
قوى امبراطورنا لم تستعد بعد
يبحثون في أرض المعركة عن جرحاهم وموتاهم
بنفوس حزينة وعيون بللها الدمع من الأسى
وبحب وشفقة على اقربائهم ورفاقهم
الذين انقض عليهم مارسيل بكل قواه
١١٢ ـ وجاء الملك مارسيل يسوق فوق أحد الشعاب
(١٤٤٩ ـ ١٤٧٧)
وجيشه كله حوله في قوة عظيمة
فقد حشد عشرين فيلقا قتاليا عظيما
الخوذات تبرق وتلمع بجواهرها وبالذهب الذي طليت به
وكان هناك الكثير من الدروع والترسة المصنوعة بكل دقة واتقان

سبعمائة بوق صدحت ايذانا بالهجوم
وانتشرت أصواتهم في جميع أرجاء البلاد
وصرخ رولاند : صديقي أولفر ، أخي ، ايها السيد العزيز
إنه موتنا ، به تعهد غانلون المزيف
الخيانة واضحة ، ولا يمكن اخفاؤها بعد

سيتولى الامبراطور القيام بأنتقام عظيم مناسب
لكن علينا كتب أن نخوض حربا مريرة
ما من انسان واجه مثلها من قبل
أنا سأتابع معتمدا على سيفي دوراندال
اعتمد أنت أيها الرفيق على سيفك هوتكلير
كم حملنا هذه الأسلحة على الأرض
كم من المعارك المنتصرة قاتلنا بهم
لن ينشد حولهم أناشيد منحطة في القاعات
١١٣ ـ وجمع مارسيل فرسانه المقاتلين
وأمر نفره وأبواقه أن تصدح بالحال
ثم تقدم نحو الأمام مع جماعته الكبيرة
ثم تقدم مسلم اسمه ابيسم
لم يكن في ذلك الحشد من هو أشجع منه
في ابن مريم ، ولد الرب ، لم يؤمن
وكان أسود اللون مثل لون القار
أحب الذبح والخيانة أكثر
من كل الذهب الموجود في غاليشي
ما من أحد رآه مرحا أو مسرورا
بل كان جريئا ومندفعا الى أقصى حد (١٤٧٨ ـ ١٥٠٤)
ولهذا السبب كان محبوبا من قبل الملك مارسيل
وقد حمل تنينا لحشد أتباعه خلفه
وعندما رآه رئيس الاساقفة الطيب لم يكن مسرورا
لقد أراد أن يضربه عن قرب ، هذا ماشعر به
وقال لنفسه بكل هدوء
يبدو هذا المسلم لي بطل حقيقي
من الأفضل لي المضي نحو هذا الوحش وقتله
أنا لم أحب قط الجبناء ولاأعمال الجبن
١١٤ ـ وافتتح رئيس الأساقفة المعركة مجددا
وركب مطيته التي أخذها من كروسايل
(وذاك كان ملك الدانمارك وهو قد تولى قتله)

وكان مهرا سريع الجريان وناعما
عريض الركبتين عالي الحافرين
قصير الفخذين عظيم الكفل
طويل الجناح عالي الظهر
ذنبه أبيض ولون وبره أصفر
أذناه صغيرتان مامن طريق يصعب عليه
له امتطى رئيس الاساقفة المشهور بشجاعته
وماأن غمزة حتى اندفع ومامن قوة تستطيع صده
لقد ساق ليضربه على سابغته الواقية
التي كانت مرصعة بالجواهر الثمينة وكذلك حذاؤه
وكانت هذه المجوهرات بألوانها المختلفة تشع وتبرق
(وكان الأمير غاليف قد أهداه اياها
وله أعطاها الشيطان في وادي ميتاس)
الحسام لايخرقها وكذلك الرمح ، وماأخبرك به هو الصدق
بعدما ضربه لم تعد تساوي فلسا (١٥٠٥ ـ ١٥٣٢)
أطاح بجسده من جانب الى جانب ورماه ارضا
القى به ميتا في المكان الذي وقع فيه
وصرخ الفرنسيون جميعا : انها ضربة شجاعة وعمل بارع
ضربة قوية مكنت من انقاذ صولجان رئيس أساقفتنا
١١٥ ـ الآن بامكان الفرنسيين التصدي لقوات المسلمين
لقد رأوا هذه القوات تغطي السهل من طرف الى طرف
والحوا على رولاند وكذلك طلبوا من أولفر
ومن الاتراب الاثني عشر الفرار والنجاة بأرواحهم
والى هؤلاء تحدث الأسقف معبرا عما في رأسه :
أيها البارونات ، سادتي ، لاتستمعوا الى هذه الافكار المهنية
آمركم بحق الرب بالثبات وبعدم الفرار
حتى لاتدعوا الرجال الشجعان ينشدون حولكم أناشيد مخجلة
من الأفضل الهلاك أثناء القتال
حالا ، لابل الآن ، سنموت نحن جميعا
مامن أحد منا هنا سيرى ضوء يوم الغد

شيء واحد أنا أعدكم به وأتعهد
من أجل وقفتكم أبواب الفردوس باتت مفتوحة
هناك مع الأبرياء الطيبين ستعيشون
وملأتهم كلماته بالشجاعة والحماس
ولم يكن بينهم من لم يصرخ عاليا ـ جبل المسرة ـ
١١٦ ـ مسلم من بلدة سرقسطة
كان سيدا لنصف المدينة وماأحاط بها
كلمبورين كان اسم ذلك الخائن المزيف والقذر
وكان قد تبادل الأيمان مع الكونت غاذلون
وفي سبيل الصداقة قبله على فمه
وبحق خوذته والياقوتة التي نالها
أقسم بالمحافظة على شرف أرض آبائه
ومن الامبراطور سينتزع التاج (١٥٣٣ ـ ١١٦١)
وجاء الآن ممتطيا فرسه باربموخ
سباقا كان لايجاريه عقاب أو نسر
أرخى له عنانه ونخسه بشدة بمهمازه المعدني لينطلق
وباتجاه انغلير الكاسكوني مضى
ومامن قوة كان بامكانها اعتراض سبيله
وطعنه بسنان رمحه طعنة نجلاء
من صدره الى ظهره خرقت القناة وخرجت
وأطاح به أرضا بعدما رماه مقدار طول رمح
وصاح : هذا السلاح صالح للقتل تماما
أيها المسلمون اضربوا بشدة وشقوا طريقكم وسط المنهزمين
ياالهي ـ قال الفرنسيون ـ واحد من خيرة رجالنا سقط
١١٧ ـ واستدعى رولاند صديقه أولفر وقال له :
سيدي الحكيم ، رفيقي ، انظر انغلير قد مات
لم يكن لدينا رجلا أفضل في الفروسية
ورد الكونت : ليمنحني الرب انتقاما عادلا
ونخس طرفي مهره بمهمازية الذهبيين وانطلق
ممسكا بيده هوتيكلير الذي انصبغ نصله باللون الأحمر

وسدد الى أحد المسلمين ضربة قوية ورهيبة
ثم لوح ثانية بسيفه وسقط المسلم أرضا
وحمل الشيطان روحه ومضى بها الى الجحيم
ثم تابع عمله ، فكان الدوق ألفاين ضحيته الثانية
واجتث رأسه من جذوره وأطاح به
ثم رجل سبعة من العرب وتركهم لما بهم
وعلى الأقل لن يتمكن هؤلاء من القتال ثانية
وقال الكونت رولاند : صديقي غاضب
مقاتل لمقاتل هو ساواني تماما
لهذه الفعال أحبنا الملك شارلمان وآثرنا
ورفع صوته صارخا ، اضربوا ، يارجالي الشجعان
١١٨ ـ وتمركز في مكان آخر مسلم اسمه
فالدابرون (١٥٦٢ ـ ١٥٨٨)
وكان من أقرباء الملك مارسليون
وامتلك اسطولا قويا فيه أربعمائة شيني
ولم يكن هناك بحار الا وفي خدمته
وهو الذي استولى على القدس بالخدعة في وقت مضى
ونهب الهيكل الذي بناه الملك سليمان الحكيم
وقتل هناك البطريرك على جرن المعمودية
وحصل على تعهد من الكونت غانلون
وبناء عليه ، ودليلا على الولاء أعطاه سيفا ومنجنيقا
وقد امتطى حصانا دعاه غراميموند
ومامن حصان أصيل باراه بالسرعة
وبالمهماز الحاد حرضه على الاندفاع
وانقض مباشرة على الدوق سمسون العظيم
مزق الترس وخرق الدروع
وجعل سنان رمحه يمضي في جسده وينفذ
وأطاح به من على ظهر حصانه ورماه بعيدا مقدار طول رمح
وصرخ المسلمون : اضربهم بعد ، واقتلهم
وقال الفرنسيون : ياالهي ، ذهب بارون شجاع

١١٩ ـ وعندما رأى الكونت رولاند سمسون متمددا
يمكنك أن تخمن مقدار الحزن الذي شعرت به روحه
وغمز حصانه بمهمازيه واندفع مسرعا لضرب العدو
بدورندال الأغلى من أفضل الذهب
وبقوة وتصميم سدد البارون ضربته
فسقطت على الخوذة المحلاة كلها بالذهب
فشطر الرأس وحطم العنق والصدر
وقطع السرج المحلى كله بالذهب
ومضى السيف عميقا في ظهر الدابة
اراد أو لم يرد ، لقد دمرهما معا (١٥٨٩ ـ ١٦١٢)
وقال المسلمون : هذه ضربة لؤم
وقال رولاند : صدقا انني لاأحبكم
رجالكم الأعداء ، رجالكم المتفاخرون الأدعياء
١٢٠ ـ وكان هناك أفريقيا من أفريقيا أيضا
يدعى ملقوانت ابن الملك ملكود
كان مكسوا بالذهب من رأسه الى قدميه
ومامن أحد في ضوء الشمس كان منظره أكثر لمعانا
امتطى فرسا دعاه ساوت ـ بردو
مامن مهر كان يمكن أن يجاريه في عدوه
وضرب انسيس على وسط ترسه ضربة شديدة صادقة
فأطاح بالأرجوان والأزرق
وخرق سابغته ودروعه الواقية
وأمضى في جسده الفولاذ والقناة
وسقط الكونت ميتا ، ووصل يومه الى نهايته المحتومة
وقال الفرنسيون جميعا : أسفا عليك ايها السيد الشجاع
١٢١ ـ وجال رئيس الأساقفة توربين على أرض المعركة
مامن راهب حليق وسط الرأس يرتل القداس
كان بامكان جسده أن يفعل مثل هذه الأفعال الشجاعة
دعا على المسلم قائلا : لينزل الرب بك السوء
أنت الذي قتلت واحدا يبكي عليه قلبي حزنا

وحرض مهره الطيب على الاسراع في عدوه
وضربه بشدة على درعة الطليطلي
والقاه ميتا على العشب الاخضر
١٢٢ ـ وكان هناك مسـلما ، وكان يدعى غراندوني (١٦١٣ ـ ١٦٣٨)
ابن ملك كابل ، من شواطىء كبدوكية
راكبا على مرمور ، فذاك كان اسم حصانه
اسرع من أي طائر طار وحلق
أرخى له عنانه ، فاندفع يعدو الى الامام
وعدا ليضرب غيرين بكل ماأوتيه من قوة
ومن حول رقبته قطع الدرع الأحمر ومزقه
ومن على جسده خرق السابغة وقطعها
والى قلبه نفذ السنان الحامل للراية الزرقاء
وأطاح به ورماه ميتا على تبة صخرية
وبعد ذلك سدد ضربة الى رفيقه غيرين فأرداه قتيلا
وبعده الى بينير والى غي أوف سانت أنتونيو فأرداهما
ثم ضرب دوق أستورغ الجبار
(الذي دعته أنفير على الرون وفالنس السيد)
والقاه ميتا ، ومن شدة السرور تعالى زئير المسلمين
وقال الفرنسيون : ماأفدح الخسارة التي من أجلها سننوح
١٢٣ ـ وأمسك الكونت رولاند بشدة سيفه المصبوغ بالدماء الحمراء
مدركا مدى الحزن الذي سيطر على الفرنسيين
قلبه بكى ، ولشدة الحزن كاد ينفطر الى شطرين
ودعا على المسلم : أصابك الرب بجميع الأسقام
أنت الذي قتلت واحدا سأجعلك تسدد
ونخس حصانه فاستجاب يعدو بسرور ونشاط
ليربح من يستطيع ، لقد جاءا وجها لوجه
١٢٤ ـ كان الأمير غراندوني فارسا جيدا وشجاعا

قوي الذراعين وشجاعا في المعركة
اليه وصل رولاند القائد العظيم
هو لم يلقه من قبل ، لكنه عرفه بالحال (١٦٣٩ ـ ١٦٦٥)
من منظره العظيم ، وبنيته الرائعة
ونظراته المتعالية وسلوكه وسماته
لم يتمالك نفسه فشعر بخوف مميت
وأراد الفرار ، لكن مالفائدة ، لايمكنه
وانقض الكونت عليه وضربه بشجاعة هائلة
حتى أنه فصم عرف خوذته ، لابل الخونة كلها شطر
شطر الأنف والأسنان ، والحلق
والسابغة وعظام الصدر والظهر
وقربوسي السرج الفضيين فصمهما عن السرج الذهبي
الفارس والفرس شطرهما والقاهما
وتركهما بلا حياة ، أشلاء ممزقة
وأخذ رجال اسبانيا ينوحون من شدة حزنهم
وصاح الفرنسيون جميعا : يالها من ضربة ، ياله من بطل
١٢٥ ـ المعركة حادة ورائعة وعظيمة
لعب الفرنسيون برماحهم وفعلوا الافاعيل
لو رأيتهم لرأيت كم من الرجال تركوا يتألمون
كم من الجرحى ، والذين ينزفون والموتى
تكوموا فوق بعضهم ، وتمددوا على وجوههم أو ظهورهم
ماعاد بامكان المسلمين تحمل هذه المشاق
سواء اسيفرون ، أو لن يهربوا عبر السهل
سيطاردهم الفرنسيون بكل ماأوتوه من قوة
١٢٦ ـ المعركة رائعة ، وازدادت سرعة
قاتل الفرنسيون بغضب ، وبحنق انقضوا
خرقوا الدروع ونفذوا الى الأجساد الحية
سالت الدماء على الأرض الخضراء حمراء ونقية
(وقال المسلمون : نحـــن ليس بـــامكاننا تحمـــل هـــذا

- ٤١٧٧ -
العناء) (١٦٦٦ ـ ١٦٩٣)
لتحل لعنات محمد (صـــلى الله عليه وســـلم) على أرض أبـــاء الفرنسيين
أبناؤك هم أشجع أبناء الرجال
لم يكن بينهم من لم يصرخ : أنجدنا يامارسيل
اركب اركب ايها الملك ، لأننا في شدة عظيمة
١٢٧ ـ نادى الكونت أولفر قائلا :
سيدي الحكيم ، رفيقي ، قدم اعترافك ، دنت النهاية
سيدي رئيس الاساقفة حلله مثلما حللت بقية الاتراب
ليس على وجه الأرض من يدانيه ولاتحت قبة السماء
من اجاد مثلة استخدام الحراب والرماح
واجاب الكونت : دعنا نعينه الآن وهاهنا
وهنا تابع الفرنسيون بكل نشاط
ضرباتهم ، كانت شديدة ، والقتال كان حادا
والخسائر بالنسبة للمسيحيين كانت هائلة
وكل من رأى وقتها رولاند وأولفر
رآهما يضربان بسيفيهما ويخرقان الصفوف
ومضى رئيس الأساقفة يطعن برمحه
بأسلحتهم قتلوا أعدادا جاء ذكرها
في المدونات وروايات المؤرخين
اكثر من أربعة الاف حسبما جاء في تواريخ الأعمال
تحملوا أربع هجمات بشجاعة واضحة
ثم جاءت الخامسة ، ثقيلة ، ومرعبة ، ومخيفة
جميع فرسان الفرنسيين سقطوا موتى
وستون فقط ، بنعمة الرب ، ظلوا أحياء
هؤلاء سيستدون قبل موتهم ثمن أجسادهم غاليا
١٢٨ ـ عندما رأى رولاند جميع رجاله الشجعان قد تمددوا
صرخ بصوت مرتفع لصديقه أولفر :
من أجل الرب ، أخبرني يارفيقي ، ياسيدي الحـــكيم ، مـــالذي تراه الآن ؟

انظر كم من الفرسان الجيدين قد تمددوا على الارض
امامنا (١٦٩٤ - ١٧٢١)
اننا نشعر بالاسى تجاه فرنسا بلادنا الجميلة
لانها تركت مجردة محرومة من زهرة فرسانها
لماذا أنت لست هنا ، ياصديقي وامبراطوري
اخي اولفر ماهي السبل التي يمكن أن نجدها ؟
كيف سنرسل له اخبار ماالم بنا ؟
وقال أولفر : كيف يمكنني أن أعرف ، كيف ؟
أنا افضل الموت على أن أخسر شهرتي
١٢٩ - قال رولاند سأنفخ الآن ببوقي مباشرة
عندما سيسمع شارلمان ، وهو يجتاز بوابة اسبانيا
أنا أتعهد ان الفرنسيين سيعودوا ثانية
قال أولفر : سيكون ذلك عملا مشينا
وسيكون النقد الموجه لآلك عظيما
وهم طوال حياتهم لم يعيشوا في ظل العار
عندما رغبت اليك بذلك ، لماذا قلت لي لا ؟
اذا فعلت ذلك الآن ، لن تنال الحمد مني
انفخ اذا اردت - هذا ليس من أعمال الشجعان
تبصر ، بكم من الدماء غسلت ذراعيك
اجابه الكونت : لقد وجهت ضربات ممتازة هذا اليوم
١٣٠ - ثم قال رولاند : هذا القتال مليء بالمآسي
سأنفخ في بوقي ، وشارلمان سيسمع صراخي
وقال أولفر : هذا سيكون مسيئا ومهينا بالنسبة للفارس

أنا سألتك ذلك ، وأنت رفضت ، بسبب الكبرياء.
فلو أن شارلمان كان هنا ، لمضى وقتها كل شيء بشكل صحيح
هو ليس ملوما ، وكذلك الرجال الذين من حوله
(ثم قال) الآن بحق لحيتي ، لن أرى بعيني
ثانية ولن أضم أختي أودي الجميلة
بين ذراعي ، ولاتظنن أنني أكذب

- ٤١٧٩ -
وقـــــال رولاند : لماذا أنت غاضـــــــب مني هـــــــــــــــكذا
ياصديقي ؟ (١٧٢٢ ـ ١٧٤٩)
ورد هو : أنت يارفيقي الذي وضعتنا في هذا المأزق
هناك شجاع حكيم وهناك مهمل
الحكمة أفضل بكثير من الحماقة
فمن خلال شططك دمرت الفرنسيين
اننا لن نكون ثانية قادرين على خدمة شارلمان
لو أنك أصغيت قليلا لما قلته
لجاء مولاي ومضت المعركة على خير مايرام
ولكان الملك مارسليون الآن أسيرا أو قتيلا
ان شجاعتك يارولاند لعنة على رؤوسنا
منا لن ينال شارلمان المساعدة ثانية
ولن يرى الرجال منا ثانية حتى يوم القيامة
أنت ستموت وسيجلل العار فرنسا الجميلة
صداقتنا المخلصة وصلت هنا الى نهايتها
سنفترق عن بعضنا بكل أسى قبل غروب شمس هذا اليوم
١٣٢ ـ وعندما سمعهما رئيس الاساقفة يتجادلان هكذا
نخس بمهمازيه الذهبيين مهره مجددا
واقترب منهما ووجه اليهما هذا النقد :
يالورد أولفر وأنت أيضا يالورد رولاند
دعونا من الخصام ، باسم الرب أخبركما
صحيح أن النفخ بالبوق لن ينقذنا
مع هذا كان من الأفضل القيام بذلك
دع الملك يأتي ، وسيكون انتقامه قاسيا
لن يذهب أحد الى اسبانيا حاملا أخبارا طيبة
بعدما يلاقيهم رجالنا الفرنسيون على الارض قتلى ممددين
سيبحثون عن أجسادنا وأعضاءنا بقلوب جريحة
وسيحملونا على ظهور بغال التحميل
وسيبكونا بحزن وبآلام مبرحة

- ٤١٨٠ -
وقرب الكنيسة سندفن بشكل لائق (١٧٥٠ - ١٧٧٧)
ولن نكون طعاما للكلاب والذئاب والعقبان
وقال رولاند : سيدي كلماتك صحيحه وجيدة
١٣٣ - وضع رولاند بوقة على فمه
أمسكه بثبات ونفخ فيه بكل شدة
الجبال عالية ، والصوت بعيد ومرتجف
الى ثلاثين فرسخا مضى الصوت وصداه
وسمعه الملك شارلمان وكل الذين كانوا معه
وقال الملك ، انتبهوا ، رجالنا يقاتلون الآن
وبادره غانلون قائلا : لو أن أي رجل قال هذا
فيما عداك ، لظننت أنه يكذب
١٣٤ - وأمسك الكونت رولاند بألم وبمزيد من الاسى
بوقه ونفخ به بكل ماأوتيه من قوة
الدم تدفق من فمه أحمر براقا
ومن بين يديه ومن البوق حلق النداء بصوت مرتجف
وسمعه الملك شارلمان الذي كان يعبر الممرات
وسمعه الدوق نايمون وجميع الفرنسيين بجانبه
وقال شارلمان : انني اسمع بوق رولاند ينادي
هو لم صدح به قط الا في وسط القتال الشديد
ورد غانلون : ليست هناك معركة
لقد تقدمت بك السنون وشعرك شاب وابيض
وعندما تتحدث هكذا تتكلم وكأنك طفل
أنت تعرف رولاند جيدا وأنه مليء بالكبرياء
إنه لأمر غريب أن الرب جعله يتحمل كل هذا الوقت الطويل
ألم يستولي عل نابولي تماما ضد أوامرك ؟
وقام المسلمون بهجوم من الداخل
واشتبكوا هناك بالقتال مع رولاند الفارس العظيم
لذا سفح الدم على الأرض ، وكان بذلك مبدعا
شجاعا (١٧٧٨ - ١٨٠٤)
أراد ابقاء الأرض مضرجة بالدم حتى تراها بعينيك

من أجل أرنب صغير هو سينفخ بوقه من الصباح الى المساء
أنه الآن ، يعرض براعاته أمام أترابه
امض في طريقك ، تابع سيرك ، لماذا تتوقف هنا وتتأخر
أرض آباءنا تقع على مسافة أميال كثيرة
١٣٥ ـ فم رولاند تدفق الدم منه بات لونه أحمر
لقد فجر صدغيه في رأسه
فقد صدح ببوقة بألم وقنوط
سمعه الملك شارلمان وكذلك فعل الفرنسيون جميعا
ثم قال الملك : هذا الصوت طويل وعميق
وقال نايمون : انه يصدح بكل قوة رجل شجاع
هناك معركة ، وهذا أمر أعرفه ومتأكد منه
والذي يريد ابقاءك ماهو الا متورط بالخيانة
الى السلاح ، دع نداء حربك يصعد عاليا الى السماء
سارع لتقديم العون الى رجال حاشيتك الشجعان
الا تسمع كيف يندب رولاند بشكل قانط
١٣٦ ـ وأمر الملك شارلمان أن تصدح الأبواق عاليا
وهب الفرنسيون بالحال الى السلاح
بخوذ وسوابغ وسيوف مذهبة تمنطقوا
دروعهم جيدة ورماحهم شديدة ومتينة
أعلامهم المربوطة بها حمراء وبيضاء وزرقاء
على ظهور خيولهم امتطى فورا السادة المحاربون
وبسرعة تدفقوا خلال الممرات ولم يتوقفوا
تحدث كل منهم الى الآخر وتجاوب معه قائلا :
لو أننا سنصل الى رولاند قبل موته وذهابه
كنا سنقاتل بشدة الى جانبه وسط
الحشود (١٨٠٥ ـ ١٨٢٩)
مافائدة ذلك ؟ لقد تأخروا كثيرا
١٣٧ ـ وانحسر ظلام الليل وبات النهار مشرقا
وفي وجه الشمس لمعت أسلحتهم
وارسلت دروعهم وخوذهم أشعة قوية

وعرضوا كثيرا من الدروع المرسوم عليها صور الورود
وكميات هائلة من الرماح المذهبة والأسنة
وساق الامبراطور بدون توقف وهو مغضب
وكان الفرنسيون جميعا غاضبين ومستائين
لم يكن بينهم من لم يبك من شدة غضبه
ومن أجل رولاند كانوا جميعا محزونين خائفين
واعتقل الملك الكونت غانلون مباشرة
وحوله الى المطابخ في قطار جيشه
واستدعى كبير الطباخين واسمه بيسغون وقال له :
احرسه جيدا ، كما يليق برجل دنيء مثله
وتولى بيسغون اعتقاله ومعه مائة من الطباخين
من أحسن العاملين في تلك الدائرة وأكثرهم سوءا
فنتفوا اللحية من على وجهه وذقنه
وكل منهم صفعه أربع صفعات شديدة
وعلى الفالقة وضعوه وبالعصي جلدوه
وربطوا حول رقبته سلسلة قوية
وكتفوه بشكل محكم مثل دب في قفص
ثم ألقوه على ظهر واحد من خيول التحميل بشكل مهين
وكانوا سيبقونه سليما حتى يطلبه شارلمان
١٣٨ ــ وكانت التـــلال ضـــخمة وذات ظـــلال
وارتفاع (١٨٣٠ ــ ١٨٥٥)
وجرت في الوديان الجداول وتدفقت
وزعقت الأبواق أمامهم وخلفهم
ورددت كلها صوتا واحدا جاء ردا على النداء
وبقلب مفعم بالغضب ساق الامبراطور شارلمان
والفرنسيون جميعا بحزن وحنق
لم يكن هناك غير الحزن والبكاء من العيون
وكلهم توجهوا للرب بالدعاء ليحفظ حياة رولاند
حتى وصولهم وانخراطهم معه في القتال
وما ان يصلوا اليه حتى يقاتلوا الى جانبه قتالا شديدا

ماذفع ذلك كله ؟ صلواتهم كانت فارغة تماما
لقد تأخروا كثيرا ولايمكنهم الوصول في الوقت المناسب
١٣٩ ـ وساق الملك شارلمان عابس الوجه مغضب
على وجهه تطايرت لحيته
واندفع جميع البارونات الفرنسيون الى جانبه مسرعين
ولم يكن بينهم من لم يمتلىء بالغضب
لعدم مساعدة رولاند البالاديني
الذي يقاتل الآن مسلمي اسبانيا
لقد جرح جرحا بليغا ، وأخشى أنه لن يعيش
الرب ، وهؤلاء الذين تبقوا من الرجال الستين معه
لم يعرفوا قائدا خيرا منه ولاحتي ملك
١٤٠ ـ واستعرض رولاند الجبال والمنحدرات
كم من الفرنسيين رآهم هناك ممددين موتى
وكفارس جيد ندبهم كما يلي :
أيها البارونات ، سادتي الرب برحمته الواسعة
ليجلب أرواحكم جميعا الى فردوس الرحمة
وليجعل بين الورود البراقة حفر قبورهم (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥)
أنا لم أر أشجع منكم أو أعظم رجولة
طوال خدمتكم لي لم تتوقفوا وكنتم جيدين
لقد قهرتم أراضي كثيرة لصالح ملك شارلمان
واأسفاه لأي نهاية محزنة رباكم الامبراطور
ايتها الأرض الحبيبة ، الحاضنة الجميلة للفرنسيين
كم عانيت هذا اليوم مما ألم بك ونزل
بارونات فرنسا لاقوا حتفهم من أجلي
وأنا أيضا لايمكنني الدفاع عنك أو منحك الأمان
الآن ليعنك الرب الذي لم يتخل عني بعد
أولفر ياأخي ، لن تعدم مساعدتي
ومع أن أحدا لم يقتلني ، سأموت من حزني فحسب
سيدي الحبيب ، يارفيقي ، دعنا نستأنف القتال
١٤١ ـ عاد الكونت رولاند الى أرض المعركة

- ٤١٨٤ -

وكمقاتل استخدم سيفه دورندال
فأطاح بفالدرون دي بوي وسط الشعاب
مع أربع وعشرين بجانبه من منزلة رفيعة
مامن رجل توفرت لديه رغبة الانتقام بمثل هذه الحدة
ومثلما هرب الغزلان أمام كلاب الصيد
أبدى المسلمون أعقابهم أمام رولاند
وقال رئيس الأساقفة : عمل رائع ، عمل رائع حقا
ليكن شجاعا مثل هذا ، الذي سيتربى فارسا
الذي سيحمل سلاحه وينطلق على مهره الطيب
مقداما وشجاعا عليه أن يكون في المعركة
والا هو لن يساوي فلسا واحدا
الأحسن أن يتحول ليكون راهبا في دير حقير
ومن أجل ذنوبنا يصلي يوميا وهو جاث على ركبتيه
وقال لرولاند : اضرب ولاتوفر أحدا منهم
وعند هذا استأنف الفرنسيون القتال بسرعة
وعانى هناك الفرنسيون من خسائر عظيمة وأحزان
١٤٢ ـ عندما يعرف أنه لن يكون هناك
أسرى (١٨٨٦ ـ ١٩١٢)

سيقاتل الرجال بكل شجاعة وسيتمسكون بصفوفهم
ولهذا ازداد الفرنسيون شجاعة وحنقا
وهنا جاء مارسيل ، الذي لم ير بارون يجاريه شجاعة
ممتطيا فرسا ، واسمه غايغذون
واتجه نحو بيفون وانقض عليه
وهو الذي يمتلك بيون وديجون
وشطر الترس ومزق السابغة
وألقاه ميتا ، لن يحتاج للقتال ثانية
واردى بعده ايفون ثم ألحق به ايفور صديقه
والكونت رولاند الذي لم يكن بعيدا
نادى على المسلم قائلا : ليلعن الرب روحك

- ٤١٨٥ -
هؤلاء رفاقي ، لقد قتلتهم بوساطة الخيانة
وقبل أن نبرح من هنا ستدفع ثمنا عاليا
وستتعلم اسم سيفي البتار
واندفع نحوه مثل بارون شجاع
ومن ذراعه التي حمل بها السيف بتر اليد وأطاح بها
ثم أردى على الطريق بعده جورفيرات الجميل
ابن مارسليون ، وقطع رأسه
وصرخ المسلم : يامحمد ، عونك يامحمد
انتقموا لنا من شارلمان ، انتم ياآلهة عقيدتنا
فالى ارضنا أرسل شعبه الشرير
سواء أجاءت الحياة أم جاء الموت لن يتخلى أبدا عن المكان
ثم صاح واحدا للآخر : اهربوا اذا ، اهربوا بسرعة
مائة ألف هربوا من أرض المعركة مباشرة
انهم لن يعودوا ، ليدعوهم من يستطيع
١٤٣ ـ أية مساعدة هذه ؟ لقد هرب
مارسليون (١٩١٣ ـ ١٩٣٩)

ومع هذا بقي عمه مارغانايس
حاكم قرطاج وألفرير وغارمايل
وأثيوبيا ، أرض ملعونة وشريره
تحت امرته جميع قبائل السودان
أنوفهم كثيفة وآذانهم عريضة جدا
خمسون ألفا كاملة تجمعوا في صفوفهم
وساقوا باقدام وسرعة وغضب
يصرخون عاليا بشعار حرب المسلمين
ثم قال رولاند : هنا قضي علينا أن نموت
أعرف معرفة جيدة لايمكننا العيش طويلا
خوفا من العار ، لاتحجموا واندفعوا ياأحبائي لبيع حيواتكم
سادتي ، ارفعوا عاليا سيوفكم الملطخة وقاتلوا
سواء أجاءت الحياة أم جاء الموت سيدفع العدو الثمن

وعلينا أن نجذب فرنسا الجميلة الذل
عندما سيلقى مولاي شارلمان نظرة على هذه الأرض
سيرى كم استفدنا من قواهم
سيجد خمسة عشر مسلما ماتوا مقابل كل واحد منا
ولن يتردد في مباركتنا لانجازنا العظيم هذا
١٤٤ ـ عندما ألقى رولاند نظرة على رجال القبائل الملعـونين هـؤلاء
جلودهم سوداء كالحبر من رؤوسهم الى أقدامهم
مامن شيء أبيض فيهم غير اسنانهم
عند ذلك قال الكونت : صحيح بدون شك
انني أعرف جيدا ، في هذا اليوم سيجرفنا الموت
ايها الفرنسيون قاتلوا الحشود الى جانبي
وقال أولفر : ليأخذ الشيطان المتخاذل المتقاعس
وسمع الفرنسيون هذا ومرة أخرى اندفعوا يقاتلون
١٤٥ ـ عندما رأى المسلمون كم تناقص عدد الفرنسيون (١٩٤٠ ـ ١٩٦٤)
رصوا صفوفهم وامتلأوا كبرياء وآمال
وقالوا : ستصل الآن جرائم الامبراطور اليه في الوطن
وجاء مارغانايس ممتطيا على مهر أشقر
ونخسه بشدة بمهمازين كلهما من ذهب
وسدد من الخلف ضربة لأولفر
ونفذت الضربة عميقا من خلال الدروع
ووقف سنان الرمح عند عظام الصدر
وقال له : لقد تلقيت ضربة قاصمة
أرسلك شارلمان الى الممرات لتلاقي حتفك
إنه قد أساء الينا ومن المفيد أن يفقد كبرياءه
لقد استوفيت بقتلي لك وحدك جل خسائرنا
١٤٦ ـ وشعر أولفر أنه أصيب اصابة مميتة
فأمسك سيفه هوتيكلير الحاد النصل

وسدد ضربة الى مارغانايس على خوذته الذهبية العالية
قصمت منها الورود والجواهر التي رصعت بها
ومضت عميقا الى أسنانه قاطعة وسط رأسه
وسحب سيفه ثم أطاح به أرضا وقد فارق الحياة
ثم قال اسقط ايها الدنس ايها المسلم البائس التعيس
لقد خسر شارلمان كثيرا ، بهذا سأعترف تماما
لكنك لن تعود أبدا الى الأرض التي غادرتها
لن تعود لتتفاخر أمام السيدات والفتيات
ولن أجعلك تنتفع مني أو من رجال آخرين
ومالن صنع هذا حتى نادى عاليا طالبا من رولاند العون
١٤٧ ــ شعر أولفر أن جرحه كان مميتا (١٩٦٥ ــ ١٩٨٨)
عطشه للانتقام كان لايمكن اخماده
فجال بين الصفوف يضرب بشجاعة
دمر الرماح الصحيحة والدروع
ومزق السوابغ والسروج وقطع الأيدي والأقدام
من رآه رآه وهو يقطع المسلمين الى أشلاء
ويرمي واحدا فوق آخر حتى غدت جثثهم ملقاة على شكل أكوام
يمكنه أن يتذكر أعمال زهرة الفرسان هذا
ونداء حرب شارلمان لم يتوقف عن الترداد
بل ظل يصرخ عاليا وبوضوح :« جبل المسرة »
ودعا رولاند رفيقه وصديقه قائلا :
سيدي يارفيقي اقترب مني وقف معي
لأسانا لابد أن نفترق هذا اليوم
١٤٨ ــ وجه أولفر عندما نظر اليه رولاند كان
شاحبا ومحزنا ، بلا لون ، مليئا بالجراح
وغطى دمه القانىء جسمه من رأسه الى قدميه
منه الى الأرض جرى مشكلا عدة بقع
وقال الكونت : ياالهي ، أنا لاأعرف ماذا سأعمل
سيدي الحكيم ، يارفيقي ، انني أبكي بصدق طاقاتك الهائلة
لن يشاهد رجل يساويك

اسفي ، يافرنسا الجميلة ، على رجال شجعان حقا
عليك ان تبكيهم هذا اليوم ، فقد طرحوا أرضا وماتوا
ان الخسارة التي سيعاني منها الامبراطور مؤلمة
لقد تحدث كثيرا ثم هوى في سرجه مغمى عليه
١٤٩ ـ هـــــوى الآن رولاند في سرجـــــه مغمـــــــــى
عليه (١٩٨٩ ـ ٢٠١٣)

وأولفر عاجز يعاني من سكرات الموت
لقد نزف كثيرا حتى أن عينية تجمدتا
ماعاد بامكانه رؤية شيء مباشرة من قريب أو بعيد
ولاتمييز أي شكل حي
لذا عندما جاء الى حيث كان ينتظر رفيقه
ضربه على خوذته الذهبية بكل عنف
فمضى السيف قاطعا العرف والأماكن المرصعة بالجواهر
فقط لم يلمس السيف رأسه
ثم رفع رولاند ـ وقد علته الدهشة ـ عينيه وحدق في وجهه
وسأله بصوت منخفض وبلطف قدر الامكان
سيدي ، يا رفيقي هل أنت جاد بضربتك ؟
انظر الي ، أنا رولاند ، الذي أحبك طوال ايامه
أنت لم تتحداني قط أو طالبت بمبارزتي
وقال أولفر :أنا لا أستطيع أن أراك بوضوح
أنا أعرف صوتك ، حفظك الرب ووقاك
وأنا قد ضربتك ، اغفر لي ، أرجوك
ورد رولاند قائلا : أنا لم أصب بجراح
أنا اغفر لك ، باسمي وباسم الرب
ثم انحنى كل في مكانه للآخر بكل أدب
وبمثل هذا الحب العظيم افترقا عن بعضهما
١٥٠ ـ شعر أولفر باقتراب الموت
عيناه تجمدتا في رأسه
هو الآن أعمى تماما ، وتماما أصم

- ٤١٨٩ -
ترجل بسرعة من على حصانه وجثا على ركبتيه
وأدى الاعتـــراف بصـــوت مـــرتفع ، وضرب على صـــدره
(٢.١٤ ـ ٢.٣٩)
ثم صفق بيديه ورفعهما عاليا نحو السماء
ودعا الرب ليسكنه في الفردوس
وأن يبارك فرنسا الجميلة وشارلمان
ورفيقه رولاند فوق جميع الرجال
وتقطعت شرايين قلبه ، وألقى بخوذه فروسيته
وجسده على الأرض ، وتمدد هناك على طوله
مات الكونت ، وصلت أيامه الى نهايتها
وبكى عليه رولاند الشجاع وندبه
مامن انسان على وجه الأرض شعر قط بمثل أساه
١٥١ ـ عندما رأى رولاند صديقه ورفيقه قد مات
وعلى الأرض انكب متمددا
ودعه بالكلمات اللطيفة التالية :
سيدي ، يا رفيقي ، أسفي عليك وعلى شجاعتك وقوتك
عشنا سنين طويلة وأياما جنبا الى جنب
لم تخطىء بحقي قط ولم أخطىء بحقك
والآن أنت ميت سأبكيك طوال حياتي
وما أن قال المركيز هذا حتى سقط مغشيا عليه
على ظهر مهره فيلانتف العالي
وبقي على ظهره ولم يسقط لربـطه بـوساطة الأحـزمة الذهبية اللامعة

فأينما ذهب امسكوه وابقوه منتصبا
١٥٢ ـ وما لبث أن عاد رولاند الى نفسه ثانية
واسترد وعيه وتخلص مما ألم به
لقد كتب عليه أن يلاقي حظا تعيسا ومخيفا
جميع الفرنسيين قد خسرهم وقد ذبحوا
وفقط رئيس الأساقفة مع وولتر هيوم بقيا

هبط وولتر من الأعالي ثانية (٢٠٤٠ ـ ٢٠٦٥)
لقد قاتل جيدا ضد رجال اسبانيا
رجاله ايضا أموات ، تمددوا بوساطة سيوف المسلمين
برغبة أو بدون رغبة هرب نحو الوادي
وصرخ عاليا الى رولاند ليمده بالعون :
أين انت ، أين أيها الكونت العظيم ، أيها المحارب الشجاع
ما دمت هناك انا لم أشعر بالرعب
أنا وولتر الذي جاء ممتطيا مالغوت
أنا حفيد درون المتقدم بالسن
أنا لشجاعتي اعتدت أن تحبني دوما
رمحي قد انقصف ، وترسي انشطر الى قسمين
دروعي تحطمت وسابغتي خرقت
طعنت برمح نفذ (من وسط كبدي)
لقد نزل الموت بي ، ومع هذا جعلتهم يدفعون الثمن غاليا
عجبا ، عند هذه الكلمة سمعه رولاند وأفاق
نخس حصانه ومضى نحوه مسرعا
١٥٣ ـ وأمتلأ رولاند بالأسى والغضب المرير
ووسط الصفوف الكثيفة استأنف الآن حربه
وأردى وولتر ستة ، وزادهم رئيس الأساقفة خمسة
وقال المسلمون : هؤلاء الرجال هم أسوأ الجميع
يجب ألا ينجو أحد منهم حيا ، تدبروا هذا ، أيها السادة
من يخش الهجوم عليهم ، ليكن العار نصيبه
من يدعهم يذهبون ، سيجلله العار
ومرة ثانية ارتفع الضجيج وتعالت الأصوات
ومن كل جانب تدفقت حشود المسلمين
١٥٤ ـ الكونت رولاند جبار في حركاته (٢٠٦٦ ـ ٢٠٩٣)
وولتر دي هيوم كان واسع الشهرة لفروسيته
ورئيس الأساقفة محارب مجرب وخبير
بين شجاعتهم ليس هناك أدنى فوارق
وطعنوا وسط الصفوف الكثيفة المسلمين وقتلوا

- ٤١٩١ -
وترجل ألف من المسلمين ليقاتلوا على أقدامهم
وتقدم أربعون ألفا من الفرسان لمساعدتهم
ضد هؤلاء الثلاثة ، وصدقا إنهم خافوا من التقدم
فقذفوهم بحرابهم من على بعد
ففقدوا كثيرا من حـــرابهم وخناجـــرهم وســـهامهم وأقنية رماحهم ، ورماحهم
وواجه وولتر الشجاع في الرمية الأولى منيته
وانشطر درع توربين أوف رايم الى شطرين
وتحطمت خوذته وجرح في رأسه
وخرقت سابغته ، ودرعه تحطم وتقطع
وطعن صدره بأربعة رماح حادة وخرق
وقتل تحته حصانه ولوى رقبته وتكوم
ونزل رئيس الأساقفة يبكي بحرقه ومرارة
١٥٥ ــ وجد توربين أوف رايم نفسه مصابا
بأربعة أسنة نفذت الى داخل ظهره
نهض اللورد الشجاع مسرعا ، ووقف منتصبا
ثم تطلع نحو رولاند ، وركض نحوه وقال :
كلمة واحدة فقط : قواي لم تضمحل بعد
الرجل الحقيقي لا يسقط أبدا ما دامت الحياة تدب فيه
وامتشق الماس ، سيفه الفولاذي البتار
وضرب به ألف ضربة وسط الصفوف
سريعا سيرى شارلمان أنه لم يوفر عدوا قابله
لأنه سيجد قد تكوم حوله أربعمائة رجل
بعضهم جرحى ، وبعضهم تحولت أجسادهم الى أشلاء
وبعضهم جعلوا قصارا بقطع رووسهم (٢٠٩٤ ــ ٢١١٩)
هكذا تحدثت تواريخ الأعمال ، أنه قاتل هناك على هذه الصورة
بحق القديس جايل ، الذي باركه الرب بالمعجزات
والذي كان راهبا في ليون ، فهكذا جاء في الكتابات
إن الذي لا يعرف هذا ، لا يعرف شيئا مما حدث
١٥٦ ــ قاتل الكونت رولاند بشجاعة حسب الامكان

أكن جسده تعاظمت حرارته وازداد تعرقه
وغرق رأسه كله بآلام محزنة
من شدة نفخة الذي مزق عروقه
لكنه كان سينشط لو عرف أن شارلمان قادم لعونه
أمسك ببوقه ونفخ به بضعف تام
وتوقف الامبراطور ، وقد سمع صوتا متحشرجا
فقال : سادتي : هذا يخبرنا خبرا مريعا
فقدنا يومنا هذا رولاند ابن اختي
هذا النداء يعلن أنه بات على حافة الانهيار
من أراد الوصول اليه عليه ان يسوق نحوه بسرعة يائسة
نادوا بين الحشود ، على كل بوق أن ينعق
ستون ألفا نعقت أبواقهم بصوت مرتفع
رددت الروابي الأصوات ، ونعقت الوديان ثانية
وسمع المسلمون ذلك ، فانعدمت لديهم الرغبة بالضحك
وقالوا : لن يلبث شارلمان ان يقدم
١٥٧ ـ المسلمون قالوا : الامبراطور كر راجعا
لقد سمع كيف صدحت أبواق هؤلاء الفرنسيين
اذا جاء شارلمان ، سندمر ونهزم
اذا ظل رولاند حيا سيسعر الحرب ضدنا مرة جديدة
ولن نحتفظ بقدم واحدة من اسبانيا
وعلى الفور اندفع نحوه والتف حوله اربعمائة مقاتل على رؤوسهم الخوذ (٢١٢٠ ـ ٢١٤٥)
كانوا خيرة المقاتلين الموجودين في تلك البقعة
وقاموا بهجوم مخيف على الكونت
وتابع اللورد رولاند البطل عمله يبتر
١٥٨ ـ عندما رأى الكونت رولاند هجومهم وقد بدأ
ازداد حدة وقوة وارعابا
ما دام حيا هو لن يتراخى أو يتوقف
ساق حصانه الذي اسمه فيلانتيف

- ٤١٩٣ -
وعلى جنبيه نخسه بمهمازيه الذهبيين
وانقض عليهم ، على حيث أكثر الصفوف كثافة
وساق السيد رئيس الأساقفة توربين الشجاع معه
وصرخ مسلم لمسلم : رفيقي عليك بهما "
ألم نسمع أبواق الفرنجة تصدح ؟
شارلمان عائد ، الملك الجبار والعظيم
١٥٩ ــ لم يحب الكونت رولاند الجبن قط
ولا القلب المزيف ، ولا السيد المتعجرف
ولا أي فارس لم يكن رجلا جيد التصرفات
ونادى لتوربين رجل الكنيسة العسكري
سيدي أنت على قدميك ، وأنا على ظهر فرسي
حبا بك سأتوقف هنا
وجنبا إلى جنب سنتلاقى معا الخير والشر
أنا لن أهجرك من أجل أي انسان فاني
لنذهب كلانا معا لقتال هؤلاء المسلمين
الضربات الجبارة هي ضربات دورندال
وقال رئيس الأساقفة : أنا اشعر بالخجل لأن ضرباتنا آخذة بالضعف
١٦٠ ــ وقال المسلمون : لماذا نحن ولدنا أصلا ؟
(٢١٤٦ ــ ٢١٧٤)

الويل لنا ، لقد دنا يوم نهايتنا
خسرنا الآن رفاقنا وسادتنا
شارلمان الجبار قادم مع جميع قواته
نسمع من هؤلاء الفرنسيين نعيق أبواقهم
وصوت ــ جبل المسرة ــ يجلجل مرعبا عبر الحدود
مخيفة حركات رولاند أثناء غضبه
ما من انسان حي يمكنه أن يصرعه بالسيف
دعونا نرميه ، وعند ذلك تنتهي الحرب
لذا طيروا نحوه رماحا وحرابا ، وصبوا عليه

الذشاب ، والسكاكين ، ونصال النبال المريشة
وخرق ترس رولاند وانشطر وتحطم
وتقطعت عرى دروعه وتمزقت سابغته
ومع هذا لم يصب هو بجسمه أبدا
لكن مطيته أصيبت بثلاثين جرحا أو أكثر
عقر حصانه فيلانتيف وسقط ميتا
انهزم المسلمون وتخلوا عن الحرب
وترك رولاند وسط أرض المعركة مترجلا
١٦١ ـ بغضب وأسى هرب المسلمون
عائدين نحو اسبانيا مسرعين بلا توقف
لم يكن بمقدور الكونت رولاند مطاردتهم
فيلانتيف قد مات وليس لديه مهر ليمتطيه
سواء أشاء أم أبى سيبقى على قدميه
وانعطف ليقدم العون الى رئيس الأساقفة توربين في محنته
ومن على رأسه تفككت اربطة الخوذة الذهبية
وتجرد ت سابغته من عراها المتينة والبراقة
وقطع الى قطع صغيرة جدا غلالته الرقيقة
ليضمد بها جروحه العريضة والعميقة
ثم ضمه الى صدره وحمله بخفة
وبلطف مدده على طرف الرابية المعشوشب (٢١٧٥ ـ ٢١٩٩)
وبخطاب عذب ناعم واساه قائلا :
آه يا سيدي النبيل ، اسمح لي أن أتركك لبعض الوقت
أصدقاؤنا هؤلاء الذين أحببناهم كثيرا أثناء الحياة
لا يجوز لنا أن نتركهم ممددين حيث ماتوا
سأذهب للبحث عنهم ، والعثور عليهم والتعرف
وسأمددهم هنا جميعا أمام ناظريك
وأجابه الأسقف قائلا :اذهب وعد
شكرا للرب ، أرض المعركة هذه ملك لي ولك
١٦٢ ـ غادر رولاند ومضى خلال أرض المعركة
يبحث لوحده بين الوديان والصخور المرتفعة

- ٤١٩٥ -
(وهناك وجد آيفور ، وهناك ايڤون)
وغيريير وغيرين الرفيقين الطيبين
(وانغلير الذي جاء من كاسكوني)
وعثر على بيرنغيز وأوثون
وبعد هذا وجد جيرارد العجوز أوف روسيلون
ورفعهم البارون الشجاع واحدا واحدا
وحملهم بكل سرعة الى عند رئيس الأساقفة
وعند ركبتيه صفهم جميعا
وبكى الأسقف ، ولم يستطع التوقف عن العويل
ورفع يده ومنحهم جميعا الغفران
وقال بعد ذلك : اسفي عليكم ايها الرفاق الشجعان
لتسكن أرواحكم مع الرب المتعال
في الفردوس وسط الورود المتفتحة
أنا ايضا أموت ، وآسف على جماعتي
الذين لن يمكن للامبراطور العظيم أن يراهم ثانية
١٦٣ ــ وعاد رولاند مــــــــرة أخــــــــــرى الى أرض المعركة (٢٢٠٠ ــ ٢٢٢٥)

وأخذ يبحث عن رفيقه أولفر
رفعه الى صدره بكل عناية
وحمله بأفضل ما يمكنه الى عند رئيس الأساقفة
ومدده على ترسه هناك مع الآخرين
وصلبهم الأسقف وحللهم جميعا بصلواته
وبدموع جددا أسفهما وأعلناه
وقال رولاند : تابعي أولفر الحكيم
كنت ابنا للدوق رينير
الذي يحكم التخوم في وادي الروان
أنت يا من حطمت الترسه وقصفت الرماح في كل مكان
واعتاد الرجال العظماء أن يقوموا من على مقاعدهم تقديرا لك
وكنت شجاعا بالكلمة وبالرأي الصائب

- ٤١٩٦ -
وكنت تدمر الشرير وتسبب له الأسى
ما من فارس على وجه الأرض كان شجاعا مثلما كنت
١٦٤ ـ وعندما رأى الكونت رولاند أترابه ممددين موتى
ومعهم أولفر أعز أصدقائه عليه
بدأ يبكي اسى ورحمة
ومن وجنتيه ذهب اللون
ولم يعد قادرا على الوقوف ، وذلك لشدة أساه
فسقط أرضا ، وما عاد قادرا على مساعدة نفسه
فقال الأسقف ، أسفي عليك وحزني ايها السيد الطيب
١٦٥ ـ عندما رأى رئيس الأساقفة رولاند قد سقط مغشيا عليه
لم يكن حزينا مثله آنذاك ، لأنه شعر بأسى عميق
وزحف نحوه ، وتناول بوق رولاند ورفعه
وفي رونسفال جرى هناك جدول من الماء
أراد على ضـــــعفه أن يذهـــــب الى هناك ويجلب له قليلا منه
(٢٢٢٦ ـ ٢٢٥٣)

وبخطوات ضعيفة جدا ، الى حد أنه كان غير قادر على التقدم
لما نزفه من دم لم يكن لديه القوة لمتابعة التقدم
وقبل ان يقطع الطريق سيرا
تخلى عنه ، وانكب على وجهه بلا حراك
استحوذ الموت الكافر عليه بقسوة كبيرة
١٦٦ ـ واستفاق الكونت رولاند واسترد وعيه
ووقف على قدميه مع أنه كان يشعر بآلام مبرحة
ونظر فيما حوله الى الهضاب والى الوديان
فيما وراء رفاقه ، مد بصره الى السهول الخضراء
رئيس الأساقفة العظيم ، خليفة اسم الرب
ضرب على صدره وحملق بعينتيس محبتين
وبصعوبة رفع يديه نحو السماء وشرع بالدعاء
أن يمنحه الرب مكانا بالفردوس
توربين الآن بين الأموات ذاك الذي قاتل من أجل شارلمان

وكان شجاعا في الوعظ ، وفي المعارك الهائلة
وظل ضد المسلمين بطلا العقيدة
ليباركه الرب وليمنحه رحمته
١٦٧ ـ ورأى الكونت رولاند رئيس الأساقفة ممددا
ورأى أمعاءه ومعدته مندفعة الى جانبه
وعلى حاجبيه دماغه قد سال بشكل واضح
وعلى منتصف الصدر حيث مفتاح توزيع العظام
وهكذا أخذ يندبه حسبما قضت العادات المحلية :
آه ، أيها الرجل الأديب ، أنت فارس عظيم ونبيل
الآن أنا أعهد بك الى الرب القادر
عبدا مطيعا خيرا منك لن يجد (٢٢٥٤ ـ ٢٢٨٠)
فمن أيام الرسل لم يكن هناك نبيا مثلك
في الحفاظ على العقيدة وفي كسب الرجال
أرجو ألا تلقى روحك أي عائق في تحليقها
ولتفتح أبواب السماء لاستقبالك
١٦٨ ـ شعر الآن رولاند أنه على أبواب الموت
من أذنيه أخذ دماغه يتدفق خارجا
والآن وقد صلى لأترابه ودعا الرب اليهم جميعا
واليه قدم القديس جبرائيل العون
ثم خشية من العار أمسك بكل من يديه
بوقه وسيفه دورندال
ومثلما يطيرُ الذشاب من القوس
انطلق نحو أرض اسبانيا الى منبسط شاسع
وتسلق رابية حيث نبتت شجرة جميلة باسقة
وتحتها والى جانبها قامت أربع أحجار رخامية
وسقط هناك منكبا على العشب الأخضر
واغمي عليه ، لأنه كان على أبواب الموت
١٦٩ ـ الروابي عالية وعالية جدا الأشجار
قامت هناك أربعة أحجار (صوى) ، من الرخام اللماع
هناك تمدد الكونت رولاند ، على بقعة خضراء بلا حراك

- ٤١٩٨ -
وكان هناك مسلما راقبه بكل دقة
وكان قد تظاهر بالموت ، وتمدد بين قومه
ولطخ صدره ووجهه بالدم
انبعث الآن مسرعا وركض نحوه مندفعا
كان قويا ، رشيقا ، ومتفوقا بشجاعته
والآن بغضبه وآماله المتعاظمة
انقض على رولاند وأمسك ذراعيه وجسده
وتفوه بعبارة واحدة : الآن ابن أخت شارلمان
هزم (٢٢٨١ ـ ٢٣٠٧)

سآخذ سيفه ، والى بلاد العرب سأحمله
لكن عندما سحبه عاد رولاند الى وعيه وشعر به
١٧٠ ـ شعر رولاند أن سيفه قد سرق
فتح عينيه وتفوه بهذه العبارة وحدها :
أنت لست منا ، هذا ماأعرفه تماما
ثم أخذ بوقه الذي كان ممسكا به بقوة
وقذفه على الخوذة المحلاة بالذهب
فحطم الفولاذ والجمجمة والعظام
ومن رأسه أخرج عينيه معا
وعلى الأرض تمدد ميتا ذلك الشرير الدنيء
ثم قال : كم أنت جريء أيها المسلم المزيف
حتى أمسكتني هكذا بحماقة أو بحكمة
وسيراك أحمقا كل من استمع الى رواية هذه الحكاية
ياالهي ، فوهة بوقي قد تحطمت
سقطت منها جميع اللآلىء وسقط الذهب
١٧١ ـ وشعر رولاند الآن أن بصره ازداد ضعفا واظلاما
وحاول بكل مابقي لديه من قوة أن يقف على قدميه
واختفي كل الدم الأحمر من وجنتيه
وقام أمامه حجر أسمر اللون عند ركبته
ضربه عشر ضربات بغضب وأسى

انه انكشط لكنه لم يكسر كما أن السيف لم يثلم
وصرخ الكونت : آه القديسة مريم قادمة لعوني
أسفي على هذا اليوم يادورندال الطيب والحاد
أنا الآن أموت ، أنا لايمكنني الحفاظ عليك
كم من معركة ربحتها معك على أرض الوغى
معك قهرت عددا كبيرا من الاقطاعات الجيدة
ليمتلكهـــا شـــارلمان ، ذلك الســـــيد ذي اللحية البيضاء (٢٣٠٨ ـ ٢٣٣٥)

لاتدع أحدا من الأعداء يستخدمك ومنهم اهرب
انت الذي استخدمت فترة مديدة من قبل تابع جيد
مثلك لن ترى فرنسا المباركة أبدا
١٧٢ ـ وضرب الكونت رولاند الحجر الرخامي على أعلاه
ارتفع صوت الفولاذ عاليا لكنه لم يتحطم أو ينثلم
وعندما رأى الآن أنه لن ينكسر أبدا
اشتكى لنفسه الشكاية التالية :
آه يادورندال ، اللامع والشجاع والنشيط
ماأروعك وأنت تلمع وتبرق تحت أشعة الشمس
عندما كان شارلمان محتفظا بوادي مورين
حملك ملاك الرب وأمره
أن يمنحك الى واحد من الكونتات القادة
على وسطي ربطك ، شارلمان النبيل
وبذلك حصلت له على أنجووبريتاين
وبهذا حصلت له على بواتو وقهرت ميان
وبهذا حصلت له على نورماندي ذات الأراضي الجميلة
وبوساطته ربحت بروفانس وأكوتين
ولومبارديا وجميع أراضي رومانيا
وبافرايا أيضا وجميع الدولة الفلمنكية
وعلى بورغاندي وأبوليا استوليت
والقسطنطينية وضعتها في يد الملك

- ٤٢٠٠ -
وفي سكسونيا تكلم فأطيع
وبهذا نلت سكوتلندا (وإيرلاندا وولز)
وانكلترا حيث أقام دولته
كم من الأراضي والبلدان أنا قهرتها بمساعدته
لأحفظها بقدر ما أستطيع لشارلمان ذي اللحية البيضاء
أنني الآن حزين ومضطرب من أجل سيفي
خوفا أن يقع في يد مسلم فهذا أعظم من الام
الموت (٢٣٣٦ ـ ٢٣٦٣)

حرم ياربي العزيز أن يسبب العار لفرنسا
١٧٣ ـ وضرب الكونت رولاند على الحجر الرخامي
أنا لايمكنني أن أحدثك كم قطع منها وفصل
ومع هذا لم ينكسر السيف ولم ينثلم مع أنه أن وزمجر
وارتد نحو السماء عاليا من أثر الضربة
وعندما رأى الكونت انه لن ينكسر
التفت نحو نفسه وبلا شعور انتحب قائلا :
آه يادورندال الجميل والمحترم والمخلص
أي آثار مقدسة محزنة في مقبضك الذهبي
فيك اسنان القديس بطرس وفيك دماء القديس باسيل
وفي ضمنك مخبوء شعر مولاي القديس دينس
ومثل هذا فيك قطعة من ثوب مريم المباركة
انه ذنب أن أدعك تسقط في يد مسلم
ينبغي أن تستخدم من قبل رجال مسيحيين فقط
ولايجوز أن تسقط الى أي انسان جبان
أراضي واسعة كثيرة استوليت عليها بضرباتك
لأحتفظ بها لشارلمان ذي اللحية البيضاء كالثلج
لتزيد عرشه غنى وقوة
١٧٤ ـ وأخذ رولاند يشعر الآن أن الموت يضغط عليه بشدة
وأنه يزحف من رأسه هبوطا الى قلبه
تحت شجرة صنوبر حضة على الأسراع بالمغادرة

وتمدد هناك ووجهه الى الأسفل على العشب الأخضر
ومدد تحته سيفه وبوقه
وحول رأسه الى حيث كان المسلمين
وفعل هذا من أجل الفرنسيين ومن أجل شارلمان
وبما أنه كان راضيا سيقولون بالتأكيد : قلب شجاع
ذلك أنه مات قاهرا في النهاية
وضرب صدره مرات عديدة وبسرعة (٢٣٦٤ ـ ٢٣٨٩)
ثم عهد بقفازه وبذنوبه الى الرب
١٧٥ ـ شعر رولاند الآن بدنو نهايته
نحو طرف الرابية باتجاه اسبانيا حول رأسه
وبيد واحدة أخذ يضرب على صدره
ويقول : أرجوك يارب ان تغفر لي ذنوبي
جميع ذنوبي صغيرها وكبيرها
جميعها وكل مااقترفته منذ يوم ولدت
حتى هذا اليوم الذي أسقط فيه ميتا
مد بيده اليمنى قفازه نحو الرب
نزل الآن ملائكة من السماء الى جانبه
١٧٦ ـ تمدد الكونت رولاند تحت شجرة صنوبر
وتوجه نحو أرض اسبانيا وهو متمدد
وشرع في استعراض كثير من الأمور في عقله :
جميع الأراضي الحدودية التي استولى عليها في أيامه
وفرنسا أجمل البلدان ، ورجال عصره
ومولاه شارلمان الذي رباه منذ صغره
ولم يتمالك نفسه عن البكاء والتنهد
ومع ذلك بذاته كان مشغولا آنذاك
فضرب صدره واستمطر رحمة الرب :
أيها الأب الحقيقي والذي ليس فيه كذب
يامن بعثت القديس لازاروس من الموت
واستعدت دانيال سالما من بين براثن الأسد
احفظ روحي من الخطر على الرغم

- ٤٢٠٢ -

من جميع الذنوب التي اقترفتها في حياتي كلها
وقدم بيده اليمنى قفازه ليعطى للمسيح
ومن يده تقبل جبرائيل التقدمة (٢٣٩٠ ـ ٢٤١٥)
وفورا سقط رأسه فوق ذراعه
وبيدين متشابكتين وصل الى النهاية ومات
وأرسل الرب له ملاكه شيردباين
والقديس ميكائيل العظيم صاحب بيرل على الشاطىء
ومعهما كان القديس جبرائيل واقفا الى جانبه
وحمل هؤلاء روح الكونت الى الفردوس

١٧٧ ـ رولاند بين الأموات ، وفي السموات تسلم الرب روحه
وسار الامبراطور شارلمان عبر ممر رونسيفو
مامن نهج كان هناك أو طريق
أو ممر أو ذراع أو قدم من الأرض العارية
الا وكان هناك بعض جثث الفرنسيين أو المسلمين ممددة متناثرة
وصرخ شارلمان : أين أنت ، يابن أختي الحبيب ؟ أجبني
أين رئيس الاساقفة وهل تمدد أولفر ميتا ؟
أين غرين وأين تربه غيريير ؟
وأين بيرنغير والكونت أوثون الطيب ؟
وأين ايفور وايفز وهما من أحببت بشكل كبير ؟
وأين انغلير الكاسكوني الكبير والمرموق ؟
وأين الدوق سمسون وانسيس الشجاع ؟
وأين جيرارد العجوز من روسليون ؟
وأين الأتراب الاثني عشر الذين تركتهم لحراسة الحشد ؟
مافائدة النداء ؟ كلهم لم يتحركوا وكأنهم أحجار
وقال الملك : واأرباه ، كم هو مر لومي لنفسي
انني كنت غائبا عندما وجهوا الضربة الأولى
وأمسك لحيته ، وهزها بحنق وغضب
وبكى البارونات والفرسان جميعا وانتحبوا
عشرون ألفا تمـــاما ســـقطوا لحـــزنهم على الأرض بـــلا
وعي (١٤١٦ ـ ٢٤٤٢)

وحزن الدوق نايمون بكل أحاسيسه
١٧٨ ــ لم يكن هناك بارون أو فارس في الجيش كله
لم ينتحب بمرارة وألم
ونادى الأخوة والأبناء والأحفاد بالويل
لأنهم سببوا شكوى مولاهم وصديقهم
وسقط كثير منهم الى الأرض وأغشي عليهم
ثم أظهر الدوق نايمون حكمة عظيمة
حيث تقدم نحو الامبراطور وكان أول من قال له :
أنظر أمامك ربما على مسافة مرحلتين
هذه السحب من الغبار ، المتصاعدة في الجو
تبين كم هي حشود المسلمين كبيرة وكم هي مسرعة في فرارها
أركب ، اركب يامولاي ، وانتقم لهذه الواقعة المؤلمة
وقال شارلمان : واأسفاه ، أي فائدة حصلوا عليها
لاشك أنك أشرت بالصواب وبما يقتضيه الشرف
استلبوا زهرة فرنسا مني في هذا اليوم
واستدعى أوثون وغيبون لمساعدته
وتيبولد أوف رايمز والكونت ميلون الشجاع وقال لهما :
احرسا أرض المعركة ، واحرسا جميع الهضاب والوديان
وأقول : دعوا الأموات المتمددين كما هم متمددين
ولاتمكنوا الأسد من لمسهم ولاأي حيوان مفترس
ولاأن يلمسهم أي سيد أو أي طفل
أنا آمركما ، مامن أحد ، مامن يد توضع عليهم
حتى نعود ــ أرجو الرب ــ الى هذه الأرض ثانية
وأجاباه بحب وباحترام عظيم قائلين :
مولانا الأكثر جلالة ايها الامبراطور العادل ، نحن لأوامرك طائعين
ثم عينا من أتباعهما ألفا من الفرسان
١٧٩ ــ وأمر الامبراطور أن تصدح الأبواق ايذانا بالحرب (٢٤٤٣ ــ ٢٤٧١)

وزحف الى الأمام الملك الشجاع ومعه جيشه كله
وقاموا بعملية مطاردة شديدة لهدف واحد
هو رجال اسبانيا الذين أداروا ظهورهم هاربين
وعندما رأى الملك ان الظلام أخذ بالحلول
ألقى بنفسه فوق العشب في مرج أخضر
وجثا على الأرض وأخذ يصلي للرب مولانا
حبا له أن يبقى الشمس حيث هي
وأن يطيل النهار وأن يأمر الظلام بالانحسار
ومباشرة جاء ملاك اعتاد على الحديث معه
جاء بناء على دعوته واستجابة لندائه وقال له :
أنت ستنتقم من حشود الكفرة
وعندما سمع الامبراطور هذا ، امتطى ظهر فرسه
١٨٠ ـ صنع الرب لشارلمان معجزة عظيمة
وقفت الشمس في منتصف السماء محبوسة
واستمر المسلمون بالفرار ولاحقهم الفرنسيون عن قرب
وأدركوهم في وادي تيذيروسا
فساقوهم الى سرقسطة وأوقعوا بهم ومزقوهم
وبضربات جبارة قتلوهم وهم يطاردونهم
وقطعوا عليهم طريق الانسحاب في طرق الجبال والطرق العادية
ومالبث نهر ابرو أن واجههم وهو يتدفق مسرعا
وكان عميقا جدا ومغرقا مخيفا
ولم يكن هناك سفن ، ولاجسور ولاعبارات
واستمطروا وهم في يأس الرحمة السماوية
وألقى المسلمون أنفسهم بالماء لكن ربهم لم يهتم بهم
والذين حملوا أسلحة ثقيلة من خوذ ودروع
غطسوا الى الأعماق بأعداد فاقت الحصر
وجرف التيار آخرين وسحبهم معه (٢٤٧٢ ـ ٢٤٩٥)
وكان السعيد بينهم من احتفظ بالقدرة على التنفس
وغرقوا جميعا بشكل مرعب جدا
وصرخ الفرنسيون : كان اليوم تعيسا ، يوم نظرتم الى رولاند

- ٤٢٠٥ -

١٨١ ـ وعندما رأى شارلمان المسلمين جميعا موتى بدون شك
بعضهم قد ذبح والجزء الأكبر قد غرق
وأنه على اسلابهم الثمينة يمكنه أن يعتمد
ترجل الملك النبيل من على ظهر حصانه
وجثا على الأرض وقدم الشكر للرب
وعندما نهض وجد الشمس مضت نحو المغيب
وقال الامبراطور : أرى ان الوقت مناسب للعسكرة
فالوقت متأخر جدا حتى نعود الآن الى رونسيفو
لأن خيولنا معقورة وقد أضناها التعب
أرخوا أحزمة السروج قليلا وانتزعوا اللجم من أفواهها
ودعوهم يرعوا في هذه المروج من حولنا
ورد الفرنسيون : مولانا ، ماأشرت به سليما
١٨٢ ـ بات معسكر الامبراطور الآن منصوبا
وترجل الفرنسيون جميعا ووقفوا في السهل الفسيح
وحرروا خيولهم من سروجهم وأحزمتهم
وارخوا المقاود الذهبية وحلوها من فوق رؤوسهم
وتركوهم يرتعون حيث العشب كثيفا وطازجا
كان هذا جل مايمكنهم تقديمه لهم
ومن كان منهم منهكا اتخذ الأرض فراشا له
ولم يمركزوا في تلك الليلة ، من يتولى حراستهم
١٨٣ ـ واستلقى الامبراطور شارلمان على المرج الاخضر (٢٤٩٦ ـ ٢٥٢٢)

ونصب الى جانب رأسه رمحه الجبار
ولم ينزع عنه تلك الليلة دروعه وسلاحه
وظل واضعا عليه سابغته اللامعة والمطلية بلون العصفر
وابقى على رأسه خوذته المحلاة بالذهب والمجوهرات
وربط حول وسطه سيفه جويوس الذي لانظير لشفرته
وهوذاك الذي يتغير لونه ثلاثين مرة باليوم
هل تعرف الجربة التي لطالما سمعنا عنها الحكايات

التي خرقت جنب مولانا عندما كان معلقا على الصليب ليقتل
لقد امتلك شارلمان رأس هذه الحربة ، والحمد للرب
واحتفظ بها كأثر مقدس في صندوق مذهب
واحتفاء بهذه الهبة وهذه المنحة الربانية
أطلق اسم جويوس على سيفة
نادرا ماكان بارونات فرنسا ينسبون ذلك الشيء
فلأجله صنع شعارهم ـ جبل المسرة ـ للحرب
ولهذا مامن أمة تستطيع أن تقف في وجههم
١٨٤ ـ الليلة صافية والقمر يشع براقا
واضطجع شارلمان لكنه لم ينم وبكى مانزل برولاند
ومن أجل أولفر بكى بقدر مااستطاع
وبكى الأتراب الاثنى عشر ، جماعته الفرنسيين الذين خلفهم وراءه
في رونسيفو موتى مضرجين بالدماء وتنهد
ودعا الى الرب ليأخذ أرواحهم الى الفردوس
وكان الملك منهكا ، لأن الحزن كان ثقيلا على عينيه
ولم يعد بامكانه الاستمرار ، فاستغرق بالنوم بعد قليل
ومثله نام جميع الفرنسيون هناك
ولم يكن بين الخيول من استطاع أن يظل واقفا
اذا أرادوا العشب رعوه وهم متمددين (٢٥٢٣ ـ ٢٥٤٩)
ان من يعاني يتعلم اشياء كثيرة في الحياة
١٨٥ ـ وكان شارلمان نائما وكأنه انسان هده الحزن
اليه جاء القديس جبرائيل مرسلا من مقعده في السماء
ليحرس الامبراطور ، بناء على أمر رباني
وبقي الملاك يحرس رأسه طوال الليل
ويريه ماأحب من أحلام :
معركة جديدة ، عليه ان يخوضها
وكشفت الرؤيا وسط معاني مأساوية
بدا شارلمان فيها واقفا ينظر الى السماء
وأمسك هناك عصا مشعة مخيفة ومرعبة

برق ورعد وعاصفة مرعبة وأمطار تشبه الثلج
ونار ولهب مضيء يتساقط وكأنه لوحات
كله بشكل مفاجيء على حشده في أرض الوغى
محرقا الرماح حتى تغدو رمادا وكذلك جذوع أشجار التفاح
حتى الذهب الذي طليت به الدروع كان يحترق
وصدر عن احتراق الرماح الحادة مايشبه الزوبعة
وتمزقت السوابغ والخوذ المصنعة من الفولاذ
ورأى فرسانه في حالة يائسة جدا
ثم جاء لافتراسهم دببة وفهود مخيفة
ديدان ، أفاعي مجنحة وعدد كبير من أنواع التنين ، وشياطين من الاعماق
وثلاثون ألفا من الوحوش المجنحة جاءوا مع هؤلاء
جاء هؤلاء جميعا وانقضوا على الفرنسيين والتهموهم أفرادا وجماعات
وصرخ الفرنسيون : النجدة ياشارلمان اسرع لعوننا
وشعر الملك بآلام بالقلب وبحزن عميق
وكاد ان يسقط مغشيا عليه لكن المصائب الجديدة حالت دون ذلك
وقفز اسد جبار من داخل الغابة
وكان منظره جبارا ومرعبا ومخيفا (٢٥٥٠ ـ ٢٥٧٢)
وهاجم الجسد الملكي وأمسكه
وأمسك أحدهما بالآخر وأخذا يتصارعان : انسان ووحش
ولا يمكن أن نقول من كان هو الأسفل ومن كان هو الأعلى
وتابع الامبراطور غطيطه ولم يستيقظ من نومه
١٨٦ ـ وبعد هذه الرؤيا حلم الامبراطور ثانية :
أنه وقف على دكة في فرنسا ، في مدينة اكس
وكان يقود دبا مربوطا بسلسلة مزدوجة
ومن آردن جاء ثلاثون دبا آخرين
تكلم كل منهم مثلما يتكلم البشر :
وبدوا كأنهم يقولون : سيدي أعده الينا
ذلك أنه ينبغي ألا يبقى في يدك

هو قريبنا وعلينا أن نقدم له العون
ورأى خارج القصر كلب صيد يسعى
رآه ينقض عن بعد على الدب الأكبر ويقاتله
على العشب الأخضر خلفهم مباشرة
أقام الامبراطور مبارزة حادة رائعة
لكن لا يمكن أن نخبر من الذي سيربح اليوم
عرض هذه الأشياء على الملك الطيب ملاك الرب
وظل شارلمان نائما حتى أشرق نور الصباح
١٨٧ ـ هرب مارسيل الى مدينة سرقسطة
وترجل في ظل شجرة زيتون
ووضع جانبا سيفه وبيضته ودرعه المشع
وعلى العشـــــب الأخضر اســــتلقى بشـــــــكل تعيس
(٢٥٧٣ ـ ٢٥٩٩)
ضاعت يده اليمنى ولا بد أن يعتاد على العيش بدونها
لشدة آلامه ونزيفه سقط مغشيا عليه
وأمامه جاءت زوجته الملكة براميموند
تبكي وتندب بصوت مرتجف مخيف
ووقف حوله عشرون ألفا من اتباعه
يلعنون فرنسا الجميلة ويشتمون شارلمان
واقتحموا كهف أبولو ودخلوا عليه
فأهانوه اهانات بشعة وصرخوا في وجهه مهددين
آه ، لماذا أيها الرب الشرير جللتنا بالعار الآن؟
لماذا سمحت للفاجعة تحل بملكنا هذا ؟
تحل بعبد مؤمن وسيد كريم مثله
وانتزعوا صولجانه وتاجه
وعلقوه من يده مربوطا على عمود
وبعصا غليظة ضربوه وحصروه
ثم داسوه على الأرض بأقدامهم
ومزق تيرماغانت رداءه وانتزع مجوهراته
وبأقدامهم ركلوه بعيدا الى أحد المجاري

لتدنسه الخنازير والكلاب وتدوس عليه
١٨٨ ــ واستفاق الملك مارسيل وعاد الى وعيه
فأمرهم أن يحملوه الى حجرته المقببة
التي نقشت بألوان لامعة ودهنت
وكانت هناك زوجته براميموند تبكي عليه
مزقت شعرها وصاحت يالك من سيدة تعيسة
وبكل كلمة تفوهت بها ندبتها وبكتها قائلة :
آه يا سرقسطة ، ستبقين مهجورة
لأجل هذا الملك العظيم الذي كان سيدك وحاميك
حقا إن ربنا تصرف نحوه بشكل رديء (٢٦٠٠ ــ ٢٦٢٩)
فهو الذي تخلى عنه اليوم في المعركة وسبب اخفاقه
وسيظهر الأمير نفسه مستسلما
ولن يخوض القتال ضد هذا الشعب الشجاع
الذي لا يعرف الاستقرار ويحمل أرواحه على أكفه
وامبراطورهم هذا الشيخ العجوز ذي اللحية البيضاء
لن يهرب إذا ما الحرب حمي وطيسها
أسفي أنه ليس هناك من يقوم بقتله
١٨٩ ــ بقوة السلاح والبراعة أمضى الامبراطور شارلمان
سبع سنوات تامات متصلات في اسبانيا
وحاز عددا من المدن والقلاع لنفسه
وبذل مارسيل كل ما أوتيه من طاقة للمقاومة
وأرسلت في السنة الأولى رسائل منه
الى باليغانت في بابليون بعث يقول :
الى الأمير هذا الرجل المغرق بالقدم
الذي عاش أكثر من هومر وفرجيل
دعه يقدم الى سرقسطة مسرعا ليفرج عنا
إن لم يأت سيتخلى مارسيل عن رب المسلمين
(وتقول الأوامر) عليه أن يتخلى عن جميع الأوثان التي يعبدها
وأن يخضع الى الايمان المسيحي المبارك
وأن يعقد سلمه مع الملك شارلمان

كان هناك تأخير فالأمير عاش في منطقة نائية
من أربعين مملكة استدعى شعبه اليه
وبعد طول انتظار أكمل تجهيز مراكبه العملاقة
وسفائنه وشوانيه وبوارجه وقواربه وسفن القتال
في الاسكندرية حيث المرسى واسع وعميق
في البحر اسطوله كله جاهز للاقلاع
في أيار حيث أول بداية الصيف
وانطلق في سبيله مع جميع جيوشه
١٩٠ ـ كانت قوات هـــذا العـــرق المذبـــوذ هـــائلة
(٢٦٣٠ ـ ٢٦٤٨)

وأبحر المسلمون وتحركت سفنهم بالمجانيف والأشرعة
وقفوا على السواري العالية وعلى المقدمات الطويلة
ما لايحصى من المصابيح والمجوهرات لمعت
وبدا البحر في الليل جميلا مشرقا
وعندما وصلوا أرض اسبانيا
أشرق الساحل كله ولمع من خلال الاشعاعات
وسمع مارسيل أخبار أفادت أنهم على الطريق
١٩١ ـ وسارت الحشود الاسلامية باذلة جهدها المستطاع
غادروا البحر وجددوا الآن نشاطهم
وعبروا مار برايس ثم خلفوا ماربروس وراءهم
واتجه الاسطول بأكمله نحو الابرو وأبحر بهدوء
مع اللالىء وما لا يحصى من المشاعل تضيء
ومن المساء حتى الفجر توفرت لديهم الكثير من الأضواء
وفي اليوم التالي وصلوا الى سرقسطة
١٩٢ ـ وكان النهار مشرقا ، وبدت الشمس جميلة المنظر
ومن السفينة نزل الأمير العظيم
وعن يمينه سار الاسبانيون
وسار خلفه سبعة عشر ملكا وتبعوه (٢٦٤٩ ـ ٢٦٧٨)
لا يمكنني أن أحصي عدد الكونتات والبارونات الذين كانوا هناك

في مرج جميل تحت شجرة غار
انتشرت ثياب بيضاء كأنها الثلج على بساط أخضر
وعليها نصبوا عرشا من العاج
هناك اتخذ باليغانت المسلم مجلسه
وأحاط به جميع الذين جاءوا معه ووقفوا أمامه
وكان أول من تكلم منهم سيدهم ومولاهم قائلا :
استمعوا إلي الآن وأصغوا ايها الفرسان الشجعان والأحرار :
إن الامبراطور شارلمان الذي يملك الفرنجة ويدير أمورهم
لن يأكل الخبز ما لم آذن له
لقد عمل ضدي في اسبانيا بشكل مقيت
الآن سأذهب الى فرنسا الجميلة وهناك سأواجه قواه
وما دمت حيا أنا لن أتوقف عن الحرب
حتى يموت أو يستسلم إلى حيا
وكان في تلك الأثناء ممسكا قفازه بيده اليمنى يضرب على ركبته
١٩٣ _ وتحدث ثم أقسم يمينا لهذا القصد
أنه لن يتراجع مقابل الذهب الموجود تحت قبة السماء
عن الذهاب الى اكس حيث يقيم شارلمان بلاطه
وأعلن رجاله عن موافقتهم وأيدوا جميع ما قاله
واستدعى الآن اليه اثنين من الفرسان من بين البقية
وكان احدهما كليرفانت والآخر كليرين وخاطبهما :
أنتما ابنا الملك مالترين
الذي انطلق من عندي سفيرا بكل سرور ورضى
آمركما أن تسافرا من هنا الى سرقسطة
وأن تخبرا باسمي ما يلي الى الملك مارسليون :
إنني قدمت لمساعدته ضد الفرنسيين
وسأثير حربا عوانا حيث ألتقيهم
أعطياه هذا القفاز الموشى بالذهب
وتأكدا من أنه سيرتديه بيده اليمنى
وأعطياه أيضا هذا الصولجان المصنوع من الذهب الخالص
(٢٦٧٩ _ ٢٧٠٤)

واطلبا منه أن يأتي للقائي وأن يقدم لي هنا ولاءه التام
أنا سأذهب الى فرنسا للحرب ضد شارلمان حتى الموت
إذا لم يستلق أمام قدمي رغما عنه
إذا لم يتذكر لايمان الرجال المسيحيين
فإنني سأنتزع التاج من على رأسه
وقال المسلمان : مولاي هذا صحيح وحسنا قلت
١٩٤ ـ قال باليغانت : أيها السيدان الى الخيول ، انطلقا
واخذ أحدهما القفاز ، وأخذ الآخر الصولجان
وأجاب الرجلان بثقة : مولانا العزيز سنفعل
وانطلقا الى سرقسطة فوصلاها ظهرا
واجتازا عشرة أبواب ، وعبرا أربعة جسور
وقطعا الشوارع حتى وصلا الى حيث الحكام
وعندما وصلا أخيرا الى أعلى المدينة
سمعا أمام القصر بكاء عاليا وطويلا
وتجمعت هناك اعداد كبيرة من المسلمين في حشود
يبكون ويندبون بأصوات حزينة
على تيرماغانت ومهوند الهيهما
وعلى أبولو : الذين من خلالهم خسرو
وكان كل منهم يصرخ : ويل لي ، ما الذي سيكون مصيرنا ؟
لقد سقطت على رؤوسنا كارثة مرعبة
وااسفاه ، لقد فقدنا ملكنا مارسيلون
الكونت رولاند قطع يمينه
وجورفرت الحكيم قد مات ايضا
اسبانيا كلها اليوم ستقع تحت نيرهم
وترجل الرسولان وصعدا الى الداخل فورا
١٩٥ ـ وتركا تحت شـجرة زيتـــون فـــرسيهما تنتـــظران
(٢٧٠٥ ـ ٢٧٣٢)
وأسرع مسلمان للامساك بمقوديهما
وأمسك كل من الرسولين أحدهما بثوب الآخر
ودخلا وإلى القصر العالي صعدا

- ٤٢١٣ -

وعندما جاءا الى الحجرة المقببة
حاولا أن يقدما تحيتيهما بشكل لطيف في ذلك الجو الكئيب :
ليقم مهوند ، الذي يحمينا
والرب أبولو ، وتيرماغانت برعايتهم
بحماية الملك ، وأن يجعلوا الملكة سعيدة
وقالت براميموند : لماذا أسمع هذا الكلام الأحمق
أربابنا هؤلاء خونة تعساء
لقد صنعوا عجائب في رونسيفو الحقير
لقد تركوا فرساننا يقتلون بدون عون
وبالنسبة لمولاي ، لقد خانوه تماما
ذهبت يمناه ولم يبق منها ادنى أثر
لقد قطعت بضربة من رولاند ، الكونت الذي لا نظير له
الآن غدت اسبانيا كلها عرضة لأن يمتلكها شارلمان
وماذا عني ، أنا السيدة المثكلة التعيسة
الويل لي هذا اليوم ، اليس هناك من يقوم بقتلي ؟
١٩٦ ـ وقال كليرين : سيدتي ، اضبطي لسانك لبعض الوقت
لقد وصلنا من عند باليغانت المسلم
الذي اعلن انه سيقدم العون الى مارسيل
وقد ارسل قفازه وصولجانه كعلامة
وعلى سطح نهر ابرو هناك الآن أربعة آلاف من السفين
ومراكب أخرى الى جانبها لا يمكن عدها
أميرنا غني ، ليس هناك من يجاريه بقوته
سيذهب الى فرنسا ، وهناك سوف يجد شارلمان
وسيجعله يستسلم أو يقتله ويزيله من الوجود
(٢٧٣٣ ـ ٢٧٦٠)
وقالت براميموند : بعيدا حتى فرنسا ؟ عجبا ، عجبا !
لدينا أعداد كبيرة من الفرنجة على مقربة منا على بعد أميال
هؤلاء هنا منذ سبع سنين دونما انقطاع
الامبراطور شارلمان قوي ومولع بالقتال
ليس هو من يفر من المعركة بل انه يؤثر الموت على ذلك

يعد أفضل الملوك الأحياء ليس أكثر من مجرد طفل
شارلمان لا يخشى أي انسان بين الأحياء
١٩٧ ـ ثم قال الملك مارسيل : صنع ، وصنع
والتف نحو السفيرين قائلا : أرجوكما ايها السادة الي تـوجها بالخطاب
أنا واقف على باب الموت ، كما تريان بكل وضوح
ما من ولد ، وما من ابنة ، ولا وريث أنا سأترك
كان لدي ولد واحد وقد قتل بالأمس
اطلبا من الأمير ان يقدم لزيارتي
دعوى جيدة وصحيحة بالنسبة لأرض اسبانيا
إن ود أن يتملكها سأتخلى له عنها بمحض ارادتـي ضـد هؤلاء اللصوص الفرنجة
وسأعلمه كيف عليه ان يتعامل مع شارلمان
وبشهر واحد سيهزمه ويجعله يخر أمامه على ركبتيه
اذهبا من سرقسطة ، واحملا له المفاتيح
ليأخذها ويمتلكها اذا تمسك بنصائحي
وأجاباه :مولانا ، كلماتك معقولة حقا
ثم قال مارسيل : امبراطور الفرنجة
قتل رجالي وعاث فسادا في أرضي
ودمر مدنيَ ايضا ونهبها
ووصل الليلة الماضية الى ضفاف نهر ابرو
على بعد اقل من سبع مراحل ، أقام معسكره ، وفق ما اقدر
اطلبا من الأمير ليقدم وقواته بأقصى سرعة ممكنة
بوساطتكما أكلفه بالزحف للقتال (٢٧٦١ ـ ٢٧٨٩)
ووضع مفاتيح المدينة في ايديهما
ثم انحنى الرسولان احتراما أمامه
وودعاه وركبا الطريق نحو معسكرهما عائدين
١٩٩ ـ وامتطى الرسولان فرسيهما
وانطلقا مغادرين للمدينة بأقصى سرعة ممكنة
ووصلا الى الأمير وهما على درجة كبيرة من الخوف

وقدما له مفاتيح سرقسطة
وقال باليغانت : مالديكما من أخبار لتحكيا ؟
أين الملك مارسيل ، الذي اليه ارسلتكما ؟
وأجاب كليرين : إنه مصاب بجرح مميت
بالأمس اتجه شارلمان نحو الممرات
وقصده العودة الى فرنسا
ووضع في ساقة جيشه قواتا نبيلة
وخلف هناك ابن اخته الكونت رولاند
وأولفر وجميع الأتراب الاثني عشر
وكان معهم عشرين الفا من الفرنسيين مسلحين
وعليهم انقض الملك الشجاع مارسيل
وعلى أرض المعركة تواجه مع الكونت رولاند
وهناك سدد ضربة بدورندال
فقطعت يمين مارسيل وفصلتها عن جسده
وكذلك ابنه ، الذي أحبه كثيرا ، قد مات
وجميع البارونات الذين قادهم كلهم قتلوا
ولم يستطع تحمل ذلك ، فهرب من ساحة القتال
وطارده شارلمان لمسافات طويلة
ويرجو الملك الآن أن تجلب له المساعدة
واليك يتنازل عن مملكة اسبانيا
وبات الآن على باليغانت أن يفكر بنفسه
ولشدة غضبه وحزنه كاد أن يفقد رأسه
٢٠٠ ـ قال كليرين ثانية : سيدي الأمير (٢٧٩٠ ـ ٢٨١٨)
بالأمس وقعت معركة في رونسيفو
رولاند قد مات والكونت أولفر قد قتل
وكذلك الأتراب الاثني عشر الذين أحبهم شارلمان
عشرون الفا من الفرنسيين تمددوا موتى على أرض المعركة
بترت يمين مارسيل وعن جسده فصلت
وعلى الفور قام الامبراطور وهو حاذق بعملية مطاردة
لم يبق ولا فارس في أرضه

إما قد قتل أو غرق بين أمواج الابرو
ونصب الامبراطور معسكره على ضفاف النهر هناك
إذا ماانطلقت الآن ، ستجدهم معسكرين قريبا من هذا المكان
أي أنهم سيجدون من الصعب عليهم الفرار
وفيما باليغانت يستمع أشرق وجهه بالفخار
وامتلأ قلبه سرورا وانشراحا
وقفز من على عرشه وانتصب قائما
وصاح رافعا صوته : تعالوا ايها الأمراء دونما تأخير
واخرجوا من السفن ، وامتطوا خيولكم ولننطلق مسرعين
حتى لا يتمكن شارلمان من النجاة فرارا
سينتقم الملك مارسيل هذا اليوم
وسأعطيه رأسا بدلا عن الذراع
٢٠١ ـ وخرج المسلمون العرب من السفن
ومالبثوا أن امتطوا خيولهم وبغالهم
وركبوا الطريق مسرعين بأقصى ما أوتوه من قوة
ثم قام الأمير الذي حرك عواطفه الحربية
باستدعاء جمالفين خيرة بحارته
وخاطبه قائلا :أعهد اليك بقيادة جميع قواتي
ثم امتطى مهره ذي اللون البني
واتخذ حرسا لنفسه يرافقونه أربعة من الأمراء
ونحو سرقسطة ارتحل قاصدا
وعلى دكة من الرخام المنحوت أقيمت هناك (٢٨١٩ ـ ٢٨٤٤)
وقف أربعة كونتات لامساك ركابه
وصعد السلم القائم تحت سطح القصر
والى هناك أقبلت براميموند مسرعة لاستقباله
وصرخت وهي تتلقاه : الويل لي من الأخبار المرعبة
مولاي يموت ، موت مشين في غير وقته
وارتمت أمامه ، فما كان منه الا أن ساعدها على النهوض
وقدما الى الحجرة بوضع كئيب

٢٠٢ ــ عندما رأى الملك الأمير يدخل
استدعى على الفور اثنين من مسلمي اسبانيا وقال :
أعيراني أذرعتكما ، وارفعاني حتى أستطيع الجلوس
فأمسك بيده اليسرى أحد قفازيه
ثم قال مارسيل : سيدي الأمير مولاي الملك
انظر ، هذه البلاد كلها (أضعها بين يديك)
وسرقسطة وجميع اقطاعاتها مقدمة لك
بالنسبة لنفسي ، إنا فقدت شعبي وأقربائي
ورد عليه قائلا : انني اشعر بالحزن العميق لهذا
على عدم الاقامة طويلا للتشاور
سيسافر شارلمان ، أنا اعرف ذلك ، انه سيرتحل
ومع هذا سآخذ قفازك وهداياك
واستدار وهو يبكي وقد امتلأ صدره بالحزن العميق
وهبط على السلم ومن ثم غادر القصر
وامتطى فرسه والتحق برجاله المتقدمين
وتجاوزهم جميعا وساق مسرعا
وتقدم وهو يصرخ بصوت مرتفع ومناسب :
أيها المسلمون تقدموا ، صدقوني الأعداء يهربون الآن
٢٠٣ ــ مع انبلاج الفجر ، عندما يظهر أول نور النهار
(٢٨٤٥ ــ ٢٨٦٩)

استيقظ الامبراطور شارلمان من نومه ظهرا
الملاك المكلف بحراسته ، القديس جبرائيل المرسل من قبل الرب
رفع يده ورسم عليه علامة الصليب
وكان الملك متجردا ، قد وضع سلاحه جانبا
ومثله كان الحشد بأكمله قد أرخى أعنة خيوله
وامتطى الجميع خيولهم وتقدموا مسرعين
خلال السهول الفسيحة وعلى طول الطرقات
لقد ذهبوا ليشاهدوا الخسائر الهائلة
في رونسيفو حيث نشبت المعركة

٢٠٤ ـ الى رونسيفو جاء شارلمان وتجول
ورأى الموتى ، وذفرت الدموع من عينيه
وخاطب الفرنسيين قائلا : أيها السادة تحركوا بأناة
سأمضي أنا أولا ، لوحدي ، بدون من يمشي الى جانبي
لأنني شيغشى علي عندما سأجد جسد ابن أختي
بعيدا في اكس ، كنت واقفا في أحد أيام الأعياد
ومن حولي يقف رجالي الشجعان
يتفاخرون بالمعارك وبحروبهم المريرة
قال رولاند شيئا أنا الآن أتذكره
أن عليه الذهاب الى أرض غريبة الموت هناك
وسيتمدد خلفهم جميعا من مشاة او اتراب
وسيجعل وجهه منعطفا باتجاه الأعداء
فقد سقطوا بالقتال ، وانتهى وكأنه منتصر
أمام البقية القيت عصاة أو على مقربة منهم
ومضى الامبراطور ثم تسلق الى قمة رابية
٢٠٥ ـ وفيما الملك ذاهـــب للبحـــث عن ابـــن أختـــه
(٢٨٧٠ ـ ٢٨٩٥)
رأى ورودا كبيرة فوق المروج
حمراء بدم فرساننا
وشعر بالأسى وما كان بامكانه الامتناع عن البكاء
ووصل الآن الى مكان تحت شجرتين
ورأى هناك أن الكونت رولاند قد ضرب على ثلاثة احجار
وشاهد ابن اخته ممددا على عشب أخضر
وليس غريبا ان بكى شارلمان بشكل حاد
وترجل بسرعة والى هناك ركض على قدميه
وأمسك بيديه وجنتي البارون
وسقط فوقه مغشيا عليه فقد اعتصره الحزن
٢٠٦ ـ واسترد الامبراطور وعيه ورفع رأسه
ثم تلاه الدوق نايمون والكونت اسيلون

ومن بعدها غودفري دي انجو واخاه هنري
ونهض الملك ووقف امام جزع شجرة صنوبر
ونظر نحو الارض فرأى ابن اخته ميتا
وبنعومة كبيرة تفوه بهذا الرثاء:
ليظهر لك الرب الرحمة ياكونت رولاند ، ياصديقي
كنت فارسا عظيما ومثلك لن يرى ثانية
للقيام بالحروب الكبرى ونيل النصر ايضا
واأسفي ، امجادي تغرق لتنتهي
وفقد الملك شارلمان وعيه وماعاد بامكانه مساعدة نفسه
٢٠٧ ـ واستفاق الملك شارلمان وبدأ يسترد وعيه
وامسكه اربعة بارونات بين ايديهم ونهضوا به
جسمه جميل ، لكن جلده كله ابيض شاحب
وحرك عينيه اللتين طالهما الليل
وبصدق وحب ندبه شارلمان قائلا :
رولاند ، ياصديقي ، الرب قد رفع روحك
الى جنات الفردوس بين الورود النضرة
مولاك التعيس قد ارسلك الى اسبانيا لتموت
لن يعيد النهار الراحة الى عيني
بسرعة قصوى ذوى سروري وضعفت قواي
لن استطيع الاحتفاظ بشرفي مشرقا
واعتقد انه لم يبق لي صديق واحد تحت السماء
لي اقرباء ، لكن مامن واحد منهم مثلك
ومزق شعره بكلتا يديه لشدة اساه
وشهق مائة الف من الفرنسيين حزنا
ومامن واحد منهم الا وبكى وعلا صوته بالنحيب
٢٠٨ ـ رولاند ، ياصديقي ، انا ذاهب الى فرنسا ثانية
وعندما سأكون في ليون في مملكتي
سيأتي كثيرون من ممالك وشعوب غريبة
يسألون : اين هو ، الكونت القائد العظيم ؟
وانا لابد ان اخبرهم انه متمدد ميت في اسبانيا

وسأحكم طوال حياتي بالحزن
ولن اتوقف يوما من الايام عن الشكوى والالم
٢٠٩ ــ رولاند ، ياصديقي ، ياصاحب القلب الشجاع الطيب
عندما سأكون في اكس تحت سقف بيعتي
سيأتي كثيرون وسيسألون عن الاخبار
وعندها لابد من اخبرهم بالحقيقة الغريبة والثقيلة
ابن اختي ميت ، ذاك الذي اخضع لي جميع ممالكي
ثم سيثور السكسون ضد حكمي (٢٩٢١ ــ ٢٩٤٨)
والهنغار والبلغار وكثير من الشعوب المعادية سيأتون
من روما وبالرمو وابوليا للنهب
وعصابات الافارقة ، فريق الكاليفرنين
وعندما ستتجدد اضطراباتي ومتاعبي
اين هي الطاقة التي تمكنني من قيادة عساكري
بعدما مات الذين اعتاد دوما ان يمكننا من النجاح؟
واأسفي عليك يافرنسا الجميلة ، كم انت تعيسة
انا كئيب جدا ، وسأهلك انا ايضا
ومزق لحيته التي كانت بيضاء كالثلج
واقتلع من رأسه شعره الابيض من الجذور
ومائة الف من الفرنسيين فقدوا وعيهم مثله
٢١٠ ــ رولاند ، ياصديقي ليمنحك الرب رحمته
وليجعل مقر روحك في الفردوس المبارك
ان الذي قتلك دمر فرنسا ايضا
حزني عظيم جدا حتى انني أود لو كنت ميتا
اسفي على اهل بيتي الذين قتلوا دفاعا عني
اجعل الان يارب يامن استلقيت على صدر ماري
قبل ان تتمكن قدماي من جواز ممر سيزر
تخرج روحي من جسدي
واجعلها بين ارواحهم ، ومكنها من السكنى معهم
واجعل جسدي تحت التراب الى جانب اجسادهم
وبكى لأساه ، ونتف شعر لحيته الشهباء

وقال الدوق نايمون : شارلمان في وضع محزن للغاية
٢١١ ـ ثم تكلم غودفري دي انجو قائلا : مولاي الامبراطور
ارجوك ان تهدأ ، والا تحزن بمثل هذه المرارة
دعنا نفتش في ارض المعركة عن رجالنا وامرائنا
الذين قتلوا رجال اسبانيا اثناء المعركة
وان ندفنهم جميعا في قبر واحد
واجابه الملك : سأفعل ، اذهب واصدح في بوقك
٢١٢ ـ وجعل غودفري دي انجو بوقه ينعق
وبأمر من شارلمان ترجل الفرنسيون بلا تأخير
وعندما تم العثور على جثث جميع اصدقائهم
وضعوهم جميعا في حفرة كبيرة تحت الارض
وطاف الاساقفة ورعاة الاديرة بين الحشود هناك
وكذلك القساوسة والرهبان ورجـال الدين الذي حلقـوا منتصـف روؤسهم
وباسم الرب حللوهم وصلبوهم
واحرقوا المر والبخور فتعالى الدخان كثيفا مثل السحاب
وطيبوهم جميعا بكل عناية وايديهم حولهم
ثم رفعوا جميعا بتشريف عظيم نحيب الدفن والعويل
وتركوهم هناك ، ومالذي بامكانهم ان يفعلوا اكثر؟
٢١٣ ـ واعد شارلمان رولاند لطقوس الدفن
والى جانبه الاسقف توربين واولفر
وجعل اجسادهم مكشوفة امامه
وغلف قلوبهم بقماش حريري ناعم
ووضعهم في تابوت من الرخام الابيض
ومالبثوا ان صنعوا الغطاء من جلد خاص
وذلك بعدما غسلوهم اولا بالسدر والخمر
ودعا الملك تيبولد وغيبون للوقوف الى جانبه
وكذلك المركيز اوثون وكونت ميلون وقال لهم :
ضعوهم على ثلاث عربات وانتم ينبغي ان تكونوا قادتهم

ومدوا على كل واحدة شقة من الثياب الغلاطية
٢١٤ ـ كلهـــم انطلقـــوا يريدون الوطـــن تحـــت لواء
شارلمان (٢٩٧٤ ـ ٢٩٩٨)
وفجأة جاء احد الطلائع المسلمين
كان قد ركب مسرعا امام السفراء
المكلفين بحمل اخبار التحدي من الامير :
لاتفكر ايها الملك التفاخر بالمغادرة سالما دون جراح
انتبه إن باليغانت مطارد لك بشدة
جلب معه حشدا عظيما من العرب
والان سنرى فيما اذا كنت قوي القلب
ومرر الملك اصابعه فوق لحيته
وهو يتذكر خسائره والضربات المريرة
وبفخار القى نظرة على حشود فرنسا
ثم ارسل صوتا عاليا سمع عن قرب وبعد :
بارونات فرنسا ، الى خيولكم ، الى السلاح
٢١٥ ـ وكان الملك اول من حمـل الســلاح للنزول الى ســاحة الوغى
ارتدى بكل سرعة دروعه اللامعة
وشد بيضته على رأسه وتمنطق بسيفه الفولاذي
جويوس الذي يفوق شعاع نصله شعاع الشمس
وعلق على رقبته مجنه القوي الاصيل
وتناول رمحه ، وهزه من قناته
ثم امتطى حصانه الاصيل تنسندور وساق
وعند مخاضه ارسون او قبيلها ربح الدابة
والقى مالبالين صاحب نربونه من على مقعده
بعدما ارخى لفرسه العنان ساق ضده بشدة
وعدا يركض مسرعا ليرى جميع رجاله
داعيا الرب وذاك الذي يحمل المفاتيح .
٢١٦ ـ وترجل الفرنسيون في السهل مباشرة

ووضع مائة الف او اكثر على انفسهم دروعهم
وبالنسبة للتجهيزات توفر لديهم كل ما يتمناه القلب
خيول سريعة ورشيقة واسلحة اعدت بشكل جيد
وامتطوا خيولهم واظهروا تدبرهم ونظامهم
وعندما يحين الوقت سيقاتلون بكل شجاعة
وفوق رؤوسهم خفقت الاعلام زاهية
وعندما راى شارلمان كم هو رائع منظرهم
وهكذا التفت نحو الدوق نايمون وانتلمي الشجاع صاحب ميذس
وجوز راين صاحب بروفانس وبادرهم بالقول :
بمثل هؤلاء الرجال يمكن للانسان ان يثق
ومن يشك بهؤلاء يعد احمقا
حسنا فعل هؤلاء العرب انهم جاءوا للانتقام
اظن انهم سيدفعون غاليا ثمنا لموت رولاند
واجابه الدوق نايمون : ادعو الرب ان يمنحك ذلك
٢١٧ ـ واستدعى شارلمان رابل وغوينمانت
ثم خاطبهما الملك قائلا : امركما ايها السيدين الان
ان تاخذا مكان رولاند واولفر
وليأخذ احدكما السيف والاخر البوق
واركبا وتقدما قائدين على رأس الجيش
مع خمسة عشر الفا من الفرنسيين وراءكما
من العزاب والشبان والاكثر شجاعة في البلاد
ثم سيشكل عددا مساويا الرتل الثاني
يتولى قيادته غيبوين ومعه غوينمانت
والدوق نايمون والكونت جوزراين
مارشال الارتال تبعا لهذه الخطة
وسيكون هناك عملا كبيرا عندما سيقاتلون يدا بيد
٢١٨ ـ وتكون الرتلان الاول والثاني من الفرنسيين
والرتل الثالث ، الذي كونوه بعدهما
تشكل كليا من الرجال البافاريين الشجعان
وكان قوامه عشرين الفا من الفرسان

صفوفهم في المعركة لن تكسر ولن تلوى
عددهم شارلمان اغلى ما عنده تحت السماء
اللهم باستثناء فرنسييه الذين ربحوا لصالحه هذه الممالك الواسعة
وكان اوغيير الداني ، الكونت الطيب ، على راسهم
وكانوا عساكر عظيمة وكان هو مقاتلا مرعبا
٢١٩ ـ وامتلك الامبراطور شارلمان الان ثلاثة ارتال
ثم قام الدوق نايمون فشكل رتلا رابعا
وتم تشكيل هذا الرتل من لوردات شجعان جدا
كلهم المان ، وكلهم ولد في المانيا
وروي ان عددهم كان عشرين الفا او ما يقارب ذلك
وكانوا مجهزين بشكل جيد بالسلاح والخيول
هم لم ينكلوا أبدا مع أنهم قد يتعرضوا للفناء جميعا
وقادهم هيرمان دوق تريس الى الحرب
وكان هذا يؤثر الموت على التراجع او النكول
٢٢٠ ـ الدوق نايمون والكونت جوزراين
اختارا الرجال لتشكيل الرتل الخامس من اراضي النورمان
وكانوا عشرين الفا حسبما احصاهم الفرنجة
معهم مايكفيهم من الخيول ومع كل رجل ما يحتاجه من عتاد
وكانوا يؤثرون الموت على ان يديروا ظهورهم للاعداء
ومن الصعب ان يوجد من يحاربهم تحت السماء
وكان رتشارد العجوز قائد صفوفهم
سيسدد ضربات طيبة بسنان رمحه الحاد المحمول بيده
٢٢١ ـ وكان في الرتل السادس رجال بريتاني (٣٠٥٢ ـ ٣٠٧٤)
وكان تعدادهم الكامل ثلاثون الفا من الفرسان
وزحفوا الى الامام ، وساقوا امام الجميع مسرعين
حاملين رماحا ملونة عليها اعلام خفاقة
وتولى يودون القيادة على هذه الجماعة

المركيز اوثون وتيبولد لورد الرايمز
استدعاهما كونت نيفيلون وإليهما توجه بالخطاب
أرجوكما قودا رجالي ، وتقبلا هذه الهبة مني
٢٢٢ ـ بات لدى الامبراطور ستة أرتال جاهزة
ومضى الدوق نايمون لتشكيل السابع
ووقع اختياره على لوردات أوفرين وبواتو
وتجمع لديه أربعون ألفا من الفرسان أو نحو ذلك
وكلهم جيد التسليح وامتطوا خيولا طيبة
وعسكر بهم في بطن أحد الوديان تحت إحدى الهضاب
وباركهم شارلمان جميعا بيمينه
وتولى قيادتهم غودسلم وجورزاين معا
٢٢٣ ـ وشكل نايمون بكل سرعة رتلا ثامنا
تكون من الفلمنكيين وبارونات فريزيا
وكان بصحبتهم اربعين الفا من الفرسان او ربما اكثر
وكانت صفوفهم القتالية مرصوصة بدون خلل
وقال شارلمان : افضل من هؤلاء لايمكنني أن أتمنى
الشجاعة الصحيحة هي المتحكمة بهؤلاء الجنود
٢٢٤ ـ ولم يتوقف الكونت جوزراين ونايمون عن العمل
بل شكلا الرتل التاسع من العساكر الشجاعة
من رجال اللورين ومن شعب برغنديا
وقدرت حشودهم بخمسين الفا من الفرسان
خوذاتهم مشدودة وسوابغهم مربوطة
رماحهم قصيرة لكنها قوية بشكل فائق
اذا لم ينهزم العرب من صدمة المعركة
ما ان يندفع هؤلاء سيعطوهم كل ما يستحقونه
لقد قادهم ثيري دوق اراغون الطيب
٢٢٥ ـ ووقف في الرتل العاشر لوردات فرنسا واصطفوا
وكانوا مائة الف من خيرة قادتنا
ووقفوا بكل فخار ، وكانت قاماتهم ممدودة تماما

وكانت رؤوسهم علاها الشيب ولحاهم شهباء
ولبسوا السوابغ وضاعفوا الدروع
وتمنطقوا بالسيوف المصطنعة بجودة في فرنسا أو اسبانيا
وكان لديهم ترسة رائعة مشرقة بشكل بديهي
وامتطوا خيولهم ومضوا بانتظام الى القتال
وصرخوا – جبل المسرة – وكان معهم شارلمان
وغودفري دي انجو الذي نصب الراية المقدسة
وكان اسمها « القديس بطرس » ثم دعيت « رومين »
لكن الى « جبل المسرة » غيرت فيما بعد اسمها
٢٢٦ – وتـــرجل الامبـــراطور الان مـــن على حصـــانه (٣٠٩٦ – ٣١٢٤)

وجثا على ركبتيه فوق عشب اخضر وطأطأ رأسه
ثم رفع وجهه نحو الشمس المشرقة مباشرة
وتوجه بالدعاء الى الرب باحترام قلبي قائلا :
ابانا الحقيقي ، في هذا اليوم سادافع عن قضيتي
انت الذي مددت عونك الى يونس
في جوف الحوت ، واخرجته سالما من هناك
وبعدما وفرت ملك نينوى
انقذت عبدك دانيال
من بين أنياب الأسد الشجاع المفترس
ووقيت الاطفال الثلاثة وسط النار
مولاي اجعل هذا اليوم هبتي وعوني
واذا كان يرضيك ، امنحني ذلك قبل نهاية النهار
لانتقم تماما لابن اختي رولاند
ونهض بعدما أنهى صلاته ، ووقف منتصبا
ورسم علامة القوة على حاجبه وعلى صدره
وقفز الملك مرة جديدة إلى ظهر فرسه
وأمسك جوزراين ونايمون بركابه
وتناول ترسه ورمحه الحاد السنان أيضا

كان جسمه متماسكا وقامته منصوبة
ووجهه فرنجي ، ونظراته واثقة
وانطلق نحو الامام متمكنا من ركابيه
من المقدمة الى الساقة ارتفع الزئير وتصاعد
وتردد صوت البوق فوق رؤوس الجميع
وذكرى رولاند جعلت الدمع يتحدر من عيون كل الفرنسيين
٢٢٧ ـ ومضى الامبراطور شارلمان في طريقه بشكل مهيب
وترك لحيته تتطاير فوق درعه
وحبا به فعل الفرنسيون مثله الشيء نفسه
هكذا كان من الممكن تمييز هؤلاء المائة الف
وعبروا الجبال وعبروا المرتفعات الصخرية
وخلفوا الشعاب العميقة والوديان الضيقة خلفهم
وزحفوا مسرعين عبر الممرات والأراضي الجرداء
لقد زحفوا عبر الاراضي الاسبانية
وفي أحد السهول عبأوا صفوفهم للقتال
وفي الوقت ذاته عاد الكشافة الى باليغانت
وروى احدهم ، وكان سوريا ، ماراه كما يلي :
رأينا الملك شارلمان بكل عظمته
رجاله أشداء ، ليس للفرار في ذهنهم مكان
احمل سلاحك الآن ، لانك ستشتبك بالقتال
وقال باليغانت : تلك شجاعة ، اعلن هذه الاخبار
الى جميع المسلمين ، اذهب وازعق بالبوق عاليا
٢٢٨ ـ وقرعوا وسط الحشود طبول الحرب
وصوتت نفرهم ، وزعقت ابواقهم
واندفعت حشود المسلمين الى حمل السلاح
وتقدمها في ذلك الامير العظيم
وارتدى سابغة طلي مئزرها باللون العصفري
وشد بيضته المرصعة بالجواهر والمحلاة بالذهب
وتمنطق بسيفه على جانبه الايسر
وبفخاره العظيم اوجد اسما له :

ليتبارز مع شارلمان ، الذي سمع الرجال يتحدثون عنه
(انه حمل لقب « بريشيوس » فبهذا دعي السيف)
وكان هذا شعاره في الحرب عندما توشك المعركة على الوقوع
وحتى ينادي فرسانه بشعاره تعلموا ذاك
وعلق حول عنقه صدريته العريضة
وسطها مذهب وحوافها مرصعة بالجواهر
والحزام من حرير قوي مطرز بشكل انيق
وتداول الان بيده رمحه « مالتيت »
قناته سميكة مثل مطرقة ثقيلة
وكان وزن السنان يساوي حمل بغل او اكثر
وامتطى باليغانت ظهر حصانه
(مركول الذي جـــاء مـــن وراء البحـــار امســـك
بركابه)(٣١٥٦ ـ ٣١٨٣)
متين هو ، وواسع الكف
واسع الكفل ضيق الخصر رشيق
عريض الصدر ، جميل التكوين
كتفاه عريضان ، بشرته نقية وصافية
مظهره مظهر مقاتل ، شعره المجعد طويل
ابيض كوردة في صباح يوم صائف
برهن عن شجاعته مرات ومرات
لو انه كان مسيحيا ، ياالهي ماروعه من مقاتل
نخس مهره حتى تدفق منه الدم النقي
ومضى يعدو مسرعا فوق الهضاب والوديان
على بعد خمسين قدما تعالت هتافات المسلمين جميعا
المحافظة على زحفه قائلين : لدينا قائد عظيم
الفرنجة الذين يحاولون ان يجاروه قوة بقوة
سيزحف او لن يزحف ضدهم جميعا
شارلمان احمق ، عليه الانسحاب
٢٢٩ ـ كانت منظر الامير ذاك اليوم جميلا
لحيته بيضاء مثل اية وردة متفتحة

هو في الراي مستقيم وحكيم
وفي المعركة ثابت لايعرف الذكول
وابنه مالبرامز فارس جدير بالثناء
قوي البنية وطويل ومعتمد من شعبه
واخبراباه قائلا : مولايي ، دعنا نشرع في سبيلنا
اذا مارأيت شارلمان سأثير اعجابك
وقال باليغانت : سنفعل ، لانه شجاع
في كثير من تواريخ الاعمال ملأ صفحة مشرفة
لكن ابن اخته رولاند ، فقد وقتل
لن تكون لديه القوة ليصمد امام هجومنا
٢٣٠ — قال باليغانت ، انتبه يامالبرامز ، ولدي الحكيم
(٣١٨٤ — ٣٢١١)
بالامس واجه الامير الكبير رولاند حتفه
مع اولفر صديقه النبيل الشجاع
والاترا ب الاثني عشر الذين اثرهم شارلمان بمحبته
وعشرين الفا من المقاتلين الفرنسيين المنتخبين
انا اثمن البقية مثلما اثمن قفاز قديم
الامبراطور قادم لقائنا ومعه رجاله
فهذا مااخبرنا به ربيئتنا السوري
مع قوة عظيمة ، شكلها في عشرة ارتال
وشجاع ذلك الذي ينفخ بالبوق امامهم
وبعث اليه رفيقه كليريون بجواب
هذان اللذان في الطليعة ، يقودان هذه الصفوف
وتوجب على خمسين الف من الفرنجة ان يكونوا مع
الذين يدعوهم شارلمان « ابنائه » وهم فرسان شباب اصحاء
ووراء هؤلاء مايساويهم عددا مرتين
سيقاتلون بشجاعة وبشكل جيد
وقال مالبرامز : اعطني الشرف انئذ
٢٣١ — اجاب باليغانت بطلاقة : ولدي مالبرامز
بسرور انا امنحك الذي سألتني اياه

ستكون اول من سيقاتل الفرنسيين على ارض المعركة
وسيكون الملك الفارسي تورلو معك
ودابمورت الملك اللوشي
اذا ماا ستطعت هزيمة هؤلاء الادعياء
سيكون جزاؤك منحك قطعة من ارضي
ممتدة من شيريانت حتى وادي مارشيز
واجاب مالبرامز : مولاي ، اقدم لك شكري
ثم تقدم نحوه وتسلم منه المنحة
الارض التي كانت وقتها ملكا للملك فلوري
والان ملكا له ، لن يرى تلك الارض ثانية (٣٢١٢ ـ ٣٢٣٩)
لن يسهم في تلك الاقطاعية ولن يستثمر
٢٣٢ ـ ومضى الامير العظيم بزحفه وسط الحشود
وبعده ولده ، ذي البنية االجبارة
ثم الملك دابامورت وملك تورلو
ومالبثت قواتهم ان تشكلت في ثلاثين رتلا
وقام فرسانهم بعرض رائع
كانوا على الاقل خمسين الفا من النفوس
وتكون الرتل الاول من رجال من بوتنتروت
وبعدهم مايكونايس برؤوس ضخمة وشعور طويلة
متدلية على ظهورهم حتى عظام الحوض
تشبه الشعور الخشنة التيسة
وكان قوام الرتل الثالث رجال من النوبة وبولوس
والرابع من بروني وساحل سلافونيا
وتكون الخامس من الصرب والصقالبة
والسادس من المغاربة والارمن
وتشكل السابع من رجال من اريحا
والثامن من السودان والتاسع من شعب غروسان
والعاشر من رجال اقوياء من باليدا
النين هم عرق شرير مخادع
واقسم الامير الان قسما عظيما

بمحمد (صلى الله عليه وسلم)ومعجزاته واثاره :
الملك شارلمان صاحب فرنسا مقبل على اقتراف خطأ عظيم)
ستكون هناك معركة مالم يهرب مسرعا
لن يحمل رأسه بعد اليوم تاجه الذهبي
٢٣٣ ـ وبعد هذا ظهرت عشرة ارتال اخرى
في الاول رجال اشداء من كنعان
(خارج وادي الفواكه مر طريقهم عبر البلاد)
الثاني من الترك والثالث من الفرس (٣٢٤٠ ـ ٣٢٦٧)
والرابع من البشناق وعصابات البيرسك
والخامس من الافار ومعهم السوتيران
والسادس من الاوغل ومن الاورماليان
والرتل السابع كله من البلغار
والثامن من البروسان والتاسع من الكلافران
والعاشر من اقيانوسيا الجرداء
ابناء الصحارى ، العشيرة المتوحشة الكافرة
انت لن تسمع مطلقا بمثل هؤلاء القساة
جلودهم على الاطراف والرأس اقسى من الفولاذ
وهكذا ازدروا دروع الفولاذ ولم يستخدموا الخوذ
وكانوا في المعركة على درجة عالية من الحدة والاندفاع
٢٣٤ ـ ومالبث ان امتلك الامير عشرة ارتال
في الاول عمالقة من مالبرايس
الثاني من الهون والثالث من الهنغار الاقوياء
في الرابع رجال من باليسا الطويلة
في الخامس مقاتلين من وادي دولوروس
وتكون السادس من جماعات من ماروس
والسابع من ليش ورجال من استريمون
والثامن والتاسع من ارغولي وكلاربون
وشكل العاشر من طوال اللحى من فروند
هذه شعوب لاتحب الرب
هكذا ذكر تاريخ الاعمال الفرنجي ثلاثين رتلا

- ٤٢٣٢ -

الحشود عظيمة وصوت البوق مرتفع
وتابعت صفوف المسلمين الزحف وهي تواقه للقتال
٢٣٥ ـ الامير العظيم جبار ومشهور
وحمل علمه المحلى بصورة التنين امام قواته
وراية تيرماغنتت ومهوند
وتمثال ابو لو القوي الشرير (٣٢٦٨ ـ ٣٢٩٥)
وقد تولى حراستهم عشرة من الكنعانين
وطوال زحفهم اعلنوا بصوت مرتفع
من اراد نيل الحماية من اربابنا هؤلاء
عليه ان يسجد لهم ويتوجه بالدعاء الخالص
واطرق المسلمون رؤوسهم وحدقوا بالارض
والقوا بخوذهم البراقة على الارض
وصرخ الفرنسيون : انتم ستموتون اليوم ايها الكلاب
ليحل الدمار بكم ولتحبط جميع اعمالكم
ابق يامولانا ، ايها الرب ، شارلمان سليما صحيحا
باسمه العظيم سنقاتل هذه المعركة
٢٣٦ ـ كان الامير رجلا عاقلا وحكيما
استدعى ابنه مع اثنين من الملوك وانفرد بهم قائلا :
ايها البارونات ، سادتي ، انطلقوا الى الامام زاحفين
اسندت اليكم قيادة ارتالي وارشادها
ماعدا ثلاثة احتياط احتفظت بهم من رجال مجربين
الاول من الترك والثاني من فرسان الاورمالين
وبالنسبة للثالث من العمالقة المالبريسيين
وانا نفسي سأقود قبيلة الاقياذوس
وسنتحارب مع شارلمان ومع الفرنسيين
اذا مارغب شارلمان ان يقارن قواه بقواي
سيجد رأسه قد قطع من جسده
هذا كله سيحصل عليه مني وسيجده
٢٣٧ ـ الحشود عظيمة والشجاعة بدت على ارتالهم
لم يكن بين الفريقين لارابية ولاوادي

في منبسط من الارض وقفوا وجها لوجه
وقال باليغانت : يامسلمي ، انهضوا وانطلقوا .
ازحفوا الى الامام لتنشبوا المعركة(٣٢٩٦ ـ ٣٣٢٦)
ورفع امبور اوف اوليفيرن الراية
وعلى بريشيوس دعا المسلمون بالاسم
وصرخ الفرنسيون جميعا : ستعاذون من خسائر عظيمة هذا اليوم
ورددوا بصوت مرتفع :« جبل المسرة ، جبل المسرة * » ثانية
طلب الامبراطور شارلمان ان تصدح جميع ابواقه
وزعقت الابواق اعلى من اي يوم مضى
وصرخ المسلمون : لدى شارلمان صفوف جيدة
المعركة التي سنواجهها ستكون شديدة وعظيمة
٢٣٨ ـ السهل واسع ومترامي الاطراف
الخوذ تشع وتلمع بالجواهر وبما حليت به من ذهب
والترسة البراقة والسوابغ المطلية بالزعفران
الرماح المتلالئة التي تخفق من عليها الرايات
وزعقت الابواق باصوات عالية ونافذة
وكانت الاصوات التي صدرت عن النفير واضحة ومؤثرة
وامر الامير كانابيوس بالاقتراب
كان هذا أخوه ، عرشه موشى وجميل
مد سلطانه الى وادي سيفري وامتلك
امره ان يعرف مكان رتل شارلمان ويقصده
انظر ، هناك يقف فخر فرنسا وشهرتها
وبينهم هناك يزحف الامبراطور بجراة
في الصفوف الاخيرة وسط هؤلاء الشيوخ ذوي اللحى الطويلة
الذين تركوا لحاهم ترفرف فوق دروعهم
لحاهم التي هي بيضاء مثل الثلج المتساقط
بالحراب والرماح سيوجه هؤلاء الرجال ضربات طيبة
سنشتبك في قتال سيكون صعبا وقريبا
قتال لم يعرف مثله ابدا بعد

وسيرمي الرجال بحرابهم بقدر ما اوتوا من قوة
ومضى الملك باليغانت امام شعبه
وخاطبه بكلمة واحدة قائلا :
ايها المسلمون اقبلوا ، انا منطلق نحو قتال الاعداء
وهز قناة رمحه الجيد واعده (٣٣٢٧ ـ ٣٣٥١)
وضد شارلمان وجه سنانه ليطعنه
٢٣٩ ـ عندما راى الملك شارلمان الامير
مع راية التنين وسلاح كامل
راى القوات العربية الهائلة بعدما بانت
تملا الارض على قدر مد البصر
باستثناء المكان الذي وقفت فيه حشود شارلمان
ثم صرخ الملك الفرنسي بصوت صعب :
يابارونات فرنسا ، انتم جميعا خيرة الاتباع
المعارك التي خضتم غمارها كثيرة
تطلعوا الى هؤلاء المسلمين جماعة من الجبناء والادنياء
اربابهم لاتعين ولاتساوي فلسا واحدا
سادتي ، من يهتم ، مهما كانت اعدادهم كبيرة
ليذهب الى البيت من لايود الزحف معي
ثم نخس بمهمازيه مهره بلطف
ومن ثم قفز من تحته تدنسدور اربع قفزات
وقال الفرنسيون جميعا ها هو الملك الحقيقي
نحن معك الى اخر رجل ، تقدم ايها المولى الجيد
٢٤٠ ـ اليوم منير ، والشمس مشرقة في السماء
الجيوش عظيمة وفرق القتال كثيرة
ووجها لوجه وقفت الطلائع امام بعضها بعضا
واستعد الكونت غونيمانز والكونت رابل
ارخوا اعنة خيولهم الطيبة السريعة
وانقضوا ، وهجم الفرنسيون جميعا
ومضوا ليطعنوا برماحهم الحادة والثقيلة
٢٤١ ـ الكونت رابل فارس شديد المراس (٣٣٥٢ ـ ٣٣٧٧)

- ٤٢٣٥ -
بتجافيفه المذهبه شق طريقه بخفة
وزحف ضد تورلو الملك الفارسي
لا الترس ولا الدرع امكن لهما ان يصمدا لضرباته
وانفذ الرمح المذهب من خلال جسده تماما
والقاه على ايكه صغيرة ميتا
وقال الفرنسيون : الرب الآن الى جانبنا
لن نتخلى عن شارلمان ، شارلمان على حق
٢٤٢ ـ انقض غونيمانز برمحه على ملك ليشيا
حطم الترس المزين بالورود من طرف الى طرف
ودمر السابغة وقطع عراها
وانفذ الرمح وما تعلق به خلال صدره
وضربه فاماته ، وليبكي من يبكي وليضحك من يضحك
وتعالت اصوات الفرنسيين لدى رؤيتهم لهذه الضربة البارعة :
وقالوا : ايها البارونات ، اضربوا ولاتقصروا
ضد هؤلاء الاشرار ، فلشارلمان الحق في قتالهم
الرب بحكمه العدل اودعهم هكذا بين ايدينا
٢٤٣ ـ جلس مالبرامز على حصان ابيض
بين الفرنجة يقاتلهم يدا بيد
يضرب بهذا الاتجاه ثم ينعطف فيسدد اشد الطعنات
رمى جثة فوق جثة وجعلهم اكوام
ثم صرخ امامهم باليفانت قائلا :
سادتي ، لسنوات طويلة حفظتكم واطعمتكم
وانظروا كيف يبحث ابني عن شارلمان
وكم من اللوردات قتل بسيفه
تابع احسن منه انا لا ارغب ان اجد
بـــــرماحكم النافــــــذة امضــــــوا وســــــاعدوه في القتال ٣٣٧٨ ـ ٣٤٠٤

وتفوه بهذه االكلمة على راس الحشود المسلحة
الصراع حاد ، والضربات المتبادلة شديدة

وازداد الان القتال شدة وتعاظم العناء
بشكل لم يكن من قبل ، ولم يكن في اي وقت من الاوقات
٢٤٤ ـ الحشود عظيمة ، وفرقهم على درجة عالية من الشجاعة
الارتال جميعها الان على الطرفين مشتبكة .
قاتل المسلمون بشجاعة رائعة وحذق
ياالهي كم هي أقنية الرماح التي انقصفت الى قسمين
كم ترس تحطم وكم سابغة انشطرت الى اقسام
الارض تغطت بهم في كل مكان
العشب الاخضر الذي كنت تراه في السهل
كله تلطخ بالدم الأحمر وتلون
وصرخ الان الامير بآل بيته بصوت مرتفع :
ايها السادة اضربوا بشدة ضد العرق المسيحي
المعركة شديدة وتزداد قسوة
لم يكن مثلها من قبل معركة عظيمة
لن تكون هناك هدنة حتى ينهي الظلام النهار
٢٤٥ ـ وحرض الامير الان عساكره قائلا :
اضربوا ، ايها المسلمون اضربوا ، فهذا ما جئتم القيام به هنا
ساعطيكم نساء ، نبيلات وشقراوات
واشرفكم وامنحكم اقطاعات من الارض
واجابه المسلمون : خدماتنا واجب علينا نحوك
ضرباتهم كانت شديدة ، الرماح تقصفت الى قسمين
مائة الف سيف ابرقت امام الابصار
المعركة قاسية ، مخيفة ، ومرعبة
ولقد تعلم معنى الحرب كل من قاتل فيها
٢٤٦ ـ وحرض الامبراطور الان جميع الفرنسيين :
ايها البارونات ، سادتي ، انا احبكم واثق بكم ايضا
كثيرة هي المعارك التي قاتلتم بها دفاعا عني
لقد اخضعتم كذا من الملوك وقهرتم كذا من الممالك
اعرف تماما انني مدين لكم
بكل ما املك ، وبجسدي وبالاراضي والثروات

انتقموا الان لاولادكم وورثتكم ولاخوانكم
الذين قاتلوا مؤخرا في رونسيفو وسقطوا
انتم تعلمون ، انني محق بقتالي الكفرة
واجابه الفرنسيون : سيدي ما قلته هو الصدق
وتجمهر حوله عشرون الف رجل
الذين تعهدوا بصوت واحد بايمانهم وبشرفهم
انهم لن يتخلوا عنه مهما عانوا او لو لاقوا الموت
بالرمح والحربة ، لم يكن بينهم من لم يبذل غاية جهده
ثم امتشقوا السيوف فاظهروا قوة اعظم
المعركة حادة ورائعة ومخيفة
٢٤٧ ـ وخرق مالبرامز الصفوف على ظهر حصانه
واحدث بين الفرنسيين مذبحة مريعة
وراه الدوق نايمون ، وكانت نظراته حادة ومتعالية
وبمنتهى الجراة شق طريقه نحوه ووافقه
وضرب الترس فشطره من نصفه
وخرق السابغة القرطبية المضاعفة
وانفذ من الصدر البيرق المربوط الى قناة الرمح
واطاح به ميتا وسط سبعمائة من الجثث
٢٤٨ ـ الملك كانابوس اخو الامير الكبير (٣٤٢٩ ـ ٣٤٥٤)
نخس بمهمازيه مهره وانطلق مسرعا
وامتشق سيفه الذي حده مثل الزجاج الصافي
وسدد ضربة نحو نايمون فجاءت على عرف خوذته
لذا تفتت نصفها من جراء الضربة وتقطعت عراها
وسرت الضربة خلال خمس طبقات من البطانة وقطعتها
ولم يصمد الدرع وتقطعت عراه
وتهاوى غطاء الدرع حتى الجلد بعدما تقطع
ولقسوته سقطت قطعة كبيرة منه على الارض
وانهلت الضربة المرعبة الدوق واخافته
ولولا عناية الرب وعونه لاتت عليه تماما
لكنه امسك برقبة فرسه وتعلق بها

ولو اوتي المسلم الفرصة لتجديد الضربة
لكان البارون بين الاموات ولما استطاع النجاة
انتبهوا ، سارع شارلمان صاحب فرنسا لانقاذ المقاتل
٢٤٩ ــ كاد الدوق نايمون ان يموت من خوفه
وبسرعة رفع المسلم سيفه ليجهز عليه
وصاح شارلمان : ايها الشرير ، الاحسن الا تتورط
وبكل ما اوتيه من شجاعة انقض عليه
وسدد ضربة نحو القلب فخرق الترس وحطمه
ودمر السابغة شروعا من واقية الوجه
والقاه ميتا ، وترك السرج فارغا
٢٥٠ ــ واحزن الملك شارلمان كثيرا واقلقه
رؤية نايمون يصاب بالجراح امامه
وان يرى الدم يجري على العشب الاخضر
وخاطبه الامبراطور وقال له مباشرة :
نايمون ايها السيد الحكيم ، ابق الى
جانبي ٣٤٥٥ ــ ٣٤٨٠

المسخ الذي اذاك لبعض الوقت بين الاموات
امررت رمحي به واطحت به الان
الدوق قائلا : انا مدان لك ، سيدي
انا لن انسى ذلك ما دمت حيا
ثم ركبا جنبا الى جنب في حب وثقة
مع عشرين الفا من الفرنسيين الطيبين حقا والمجربين
ممن لم يتوقف اي منهم عن الضرب والطعن
٢٥١ ــ ومضى الامير الان يتجول في ارض المعركة
وساق ضد الكونت غوينماز بكل سرعة
وسدد ضربة ضد قلبه فحطم درعه الفضي
ودمر سابغته وقطع حلقاتها الفولانية
ومن طرف الى طرف شطره الى قسمين
والقاه ميتا ، من على ظهر مهره السريع

رتشارد العجوز ، اورد نور ماندي
ولورانت وغيبوين ، لهؤلاء الثلاثة قتل
وصاح المسلمون : الشجاعة ثمينة حقا
اضربوا ، ايها السادة اضربوا ، نحن على ثقة من الدفاع
٢٥٢ ـ كم هي عظيمة شجاعة الفرسان العرب في القتال
واصطف رجال الاوقيانوس ، وارغويل وباسكل
يطعنون ويضربون واعطوا رماحهم منتهى الحرية
ولم يحلم الفرنسيون ابدا بالتخاذل
واستمر القتال شديدا حتى حلول الظلام
وعانى اوردات الفرنجة من خسائر كبيرة
مع مزيد من المآسي قبل ان تربح المعركة
٢٥٣ ـ كل من الفـرنسيين والعـرب يقـــاتلون بشـــكل جيد
(٣٤٨١ ـ ٣٥٠٧)
كم من الرماح انقصف وكم من الحراب انشطر !
من رآها رأى كم من الترسه قد تحطم الى قطع
وسمع الدروع البراقة تطحن وتمزق عراها
وسمع قرع الرماح على الخوذ
ورأى اولئك الفرسان وقد قذفوا خارج سروجهم
وعاشت الارض كلها مع الموت وبصراخ الموت امتلات
ولعل صور المعاناة ستظل في الذاكرة طويلا
هذه معركة من الصعب تحملها ، وقاسية
استغاث الامير الان باربابه ـ
مهوند ، وابولو وتيرماغانت قائلا :
ايها الارباب ، ياأربابي ، لقد خدمتكم من قبل بشكل جيد
والان ساصنع تماثيلكم من الذهب الصافي
اذا ما منحتموني النعمة وجعلتموني اربح ضد شارلمان
وفجاة ظهر صديقه المقرب غيما لفين
وكانت الاخبار التي حملها حقا شريرة وقال :
سيدي باليغانت بالنسبة لك بدا النهار يعتل

- ٤٢٤٠ -

ابنك قضى ، لقد خسرت مالبرامز
واخوك كانابوس قتل ايضا
ولقد تولى فعل ذلك اثنان من الفرنسيين
الامبراطور نفسه ، واحد منهما كما اظن
هو قوي البنية ومظهره كما يبدو مظهر ملك
لحيته بيضاء مثل اي وردة من ورود الربيع
ثم غرق حاجبا الأمير تحت بيضته
واسود وجهه وعلاه الشحوب
وبدا الأمر وكأنه سيموت من حزنه فورا
واستدعى جنغلو الذي هو من وراء البحار إليه ٠
٢٥٤ ــ قال الأمير : أقبل الى يا جنغلو ، وكن صريحا
أنت شجاع ، ورجل حكيم جدا
واعتمادا على آرائه اعتدت منذ زمن طويل أن أعمل
كيف أثر بك ، العرب والفرنجة ؟
هل سننال النصر في ايدينا هذا اليوم ؟
وأجابة : أنت ميت يا باليغانت
ولن يستطيع أربابك كلها انقاذك من سوء المصير
شارلمان مصمم وجنوده شجعان
انا لم أر بعد رجالا مثلهم يقاتلون بجنان
لكن ادع لعونك سادة الأوقيانوس
وأتراك ، والعمالقة ، والعرب والأفارقة
وليحدث ما سيحدث ، لا تتأخر ، بل قاتل
٢٥٥ ــ ترك الأمير العظيم لحيته تتطاير أمامه
إنها بيضاء مثل أي وردة على شوكة
هو لن يبقى مختبئا بل عليه أن يهاجم
ووضع على فمه نفيرا أمسكه
ونفخ به بصوت مرتفع ، فسمع المسلمون النداء
فأقبلوا من كل جانب للهجوم
رجال الأوقيانوس يزمجرون ، وينبحون ويصرخون
وكان رجال أرغويل جميعا مثل الكلاب ينبحون

واندفعوا على الفرنجة بكل شدة وغضب
مزقوا الصفوف وبعثروها
ونتيجة لهذه الضربة مات سبعة آلاف مقاتل
٢٥٦ ـ لم يكن الكونت أوغيير قط ضعيفا بالحركة
ما من تابع امتلك الصبر مثله في القتال
عندما رأى صفوف الفرنسيين قد تمزقت
دعا ثيري ، دوق أرغون
والكونت جوزارين وغودفري أوف آنجو
والى شارلمان نفسه كلمه هكذا ناقدا :
انظر كيف أثار المسلمون الفوضى بين قواتك
لينزع الرب التاج من على رأسك
اذا لم تنتقم لهذا العار حق الانتقام
ومامن واحد رد بكلمة واحدة على هذا اللوم
نخسوا خيولهم ، وأرخو أعنتها
وزحفوا ليضربوهم أينما أمكنهم ذلك
٢٥٧ ـ قاتل الملك شارلمان بشجاعة هذا اليوم
وشجاعا كان الدوق نايمون وشجاعا كان أوغيير الداني
وكان شجاعا غودفري الذي حمل الراية
أشجعهم جميعا كان دان أوغيير الداني
نخس حصانه وتركه يعدو بسرعة
وانقض على حامل راية التنين بقوة وغضب
ونكسه محطما ، وسقط أمبور بكل وزنه
وسقط التنين والراية جميعا على الأرض
ورأى باليغانت رايته مرميه
رأى راية مهوند توقفت فجأة
عندها بدأ الأمير يشعر بالخوف
الخطأ معه ، والصواب مع شارلمان
وترنح العرب المسلمون وسط المعركة
وصوت الامبراطور شارلمان يصرخ عاليا : النجدة ، النجدة
ألن تساعدوني أيها السادة ، باسم الرب

ورد الفرنجة : لماذا تسأل ؟ أنت أسأت الينا
اللعنة على الذي لا يضرب بشدة
٢٥٨ ـ النهار شارف على الانتهــاء والشـفق بـــدأ يقتـــرب
(٣٥٦٠ ـ ٣٥٨٨)
مسلم وفرنجي يتجالدان الآن بالسيوف
أظهرا شجاعة وقوة
ولم ينس أحد منهما النداء بشعار حربه
من جانب الأمير تردد صوت « بريشيوس »
ومن جانب شارلمان « جبل المسرة » شعار قتاله تردد
لقد تعرفا على بعضهما بعضا بوساطة هــذه الاصــوات العــالية والواضحة
وكل منهما في ساحة الوغى نشد عدوه فوجده
تقابلا ، هجما ، وتبادلا ضربات شديدة
على حلقات الدروع قرعت أسنة الرماح بقوة
وخرقت الترسة وحطمتها
وحولت السوابغ والدروع الى قطع متطايرة
لكن جسديهما لم يلمسا وظلا بسلام
قطعت الاحزمة ، ومال السرجان
فوقعا على الأرض ، وبات الملكان جالسان
لكن ما لبث كل منهما أن هب واقفا على قدميه
شجاعتهما عظيمة ، وعلى الفور كان سيفاهما مشهوران
ما من شيء يمكنه أن يوقف هذه المبارزة الآن
لن تتوقف حتى يسقط أحدهما على الارض ميتا
٢٥٩ ـ شارلمان ملك فرنسا الجميلة رجل عظيم وقوي
ولم يعرف الأمير الخوف ولم يفكر بالفرار
وأشهرا الآن سيفيهما المجردين عاليا
وتبادلا على المجنين ضربات قاسية من كلا الجانبين
فقطعا الخشب والجلد المكون من طبقتين
وتقطعت عرى السابغة ووقعت السابغة

وبلا دروع تقاتلا الآن صدرا لصدر
وتطاير الشرر من جراء الضربات على الخوذتين
ما من شيء يمكنه أن ينهي صراعهما
حتى يعترف أحدهما أنه مخطىء والآخر على صواب
٢٦٠ ـ قال الأمير فكر يا شارلمان وأنظر في
(٣٥٨٩ ـ ٣٦١٤)
أن تعتذر إلي من كل ما اقترفه بحقي
لقد ذبح ابني وأعرف أن ذلك تم من قبلك
واقترفت الآثام على أراضي التي أخذتها
كن واحدا من رجالي وسأكون مولاك
ثم تعال واعمل في خدمتي من هنا الى الشرق
وقال شارلمان : لا أنا اعد ذلك خيانة
لن اظهر لمسلم أبنى حب أو سلام
آمن أنت بما أوحاه الرب
اعتنق المسيحية وعندها سأكون صديقك الأول
الملك القدير وقتها سيرعاك وايمانك
وقال باليغانت : طقوسك ما هي الا دعوة مريضة
ومجددا حارب أحدهما الآخر بالسيف
٢٦١ ـ الأمير العظيم مليء بالقوة والبراعة
سدد على بيضة شارلمان ضربة هائلة
حتى أن الفولاذ على الرأس انحنى وتحطم
ومضى حد الحسام الى الشعر ثم جلدة الرأس
وقطع الجلد مقدار عرض كف كامل
حتى أن العظم ظهر عاريا تحت الجلد
وترنح الملك شارلمان وفي تلك اللحظة هبط الليل
وارادة الرب كانت ضد أن يهزم أو يقتل
وجاء القديس جبرائيل هابطا مسرعا نحوه
وقال :وماذا ، الست هاهنا ، أيها الملك العظيم ؟
٢٦٢ ـ عندما سمع ما قاله الملاك المبارك

لم يعد يخشى الموت ، وتحرر من خوفه
وعادت قواه ، وعاد الى نفسه ثانية
وانطلق نحو الأمير شاهرا سيفه الفرنسي (٣٦١٥ ــ ٣٦٣٣)
وشطر البيضة ذات الجواهر اللامعة
وحطم الرأس ودفع الدماغ الى الخارج
ومضى السيف قاطعا حتى لحيته من خلال الوجه
وكانت ضربة مميته أتبعها فأطاح به أرضا مقتولا
وعلى الفور ومباشرة نادى بشعار حربه « جبل المسرة »
وهنا جاء الدوق نايمون ، يقود من عنانه
تنسندور الجيد ، حيث امتطاه شارلمان
هرب المسلمون ، الرب لن يستطيع ايقافهم
الجميع عمل ، الجميع ربح ، لقد ربح الفرنسيون اليوم
٢٦٣ ــ المسلمون فروا ، لأن الرب أراد ذلك
وطاردهم الفرنجة بشدة ومعهم الامبراطور
وعندها قال الملك : سادتي خذوا ثاراتكم
ابذلوا قصارى جهدكم ، ارفعوا معنوياتكم وشجاعتكم
لأنني هذا الصباح بالذات ، شاهدت عيونكم تبكي
وقال الفرنجة ، مولاي ، بالفعل هذا ما كان
وسددوا بكل ما أتوه من قوه ضربات هائلة
قلة ممن كانوا هناك سينجون
٢٦٤ ــ اشتدت حرارة القتال ، وتصاعد الغبار الى ما يشبه السحاب
وهرب المسلمون ، وساق الفرنسيون خلفهم بشكل حثيث
واستمرت المطاردة حتى مدينة سرقسطة
وصعدت الملكة براميموند الى أعلى برجها
ووقف الى جانبها كاتبها وقاضي
ذلك الايمان المزيف الذي لم يسمح به الرب
ورجال دين للكنيسة غير منتمين ولانصاف رؤوسهم غير حالقين
ورأت العرب مهزومين مطاردين

وزعقت بصوت متحشرج مرتفع :العون يا مهوند
آه أيها الملك النبيل ، رجالنا هزموا
الأمير الكبير قد قتل ، يالها من ساعة عار
وما أن سمع مارسيلون هذا حتى استدار (٣٦٣٤ ـ ٣٦٧٠)
بوجهه نحو الجدار ، وبكى ، ثم أطبق جفنيه
ومات حزنا ، ضربه الرعب فأتى عليه
وتخلى عن روحه الى قوات الجحيم
٢٦٥ ـ المسلمون جميعا قتلى أو يفرون رعبا
وانتهت حرب شارلمان بشكل رائع
دمر باب سرقسطة حتى الأرض
وبات متيقنا أنها لن يمكنها الدفاع
استولى على المدينة ودخلها مع جيوشه
وناموا تلك الليلة هناك منتصرين متملكين
ومضى متفاخرا ، الامبراطور صاحب اللحية الفضية
وسلمت الملكة براميموند جميع أبراجها
أبراجها العشرة الطوال ، والخمسين الأقل طولا
التوفيق حالف ذلك الرجل ، الذي الرب أعانه
٢٦٦ ـ وانتهى النهار ، واقترب الظلام مبشرا بالليل
القمر مشرق ، والنجوم تلمع مضيئة
غدت سرقسطة كلها في قبضة الامبراطور
بضعة آلاف من الفرنسيين يفتشون المدينة وبعضهم يتجسس
واخذوا يدمرون الكنس والمساجد ومعابد الكفار
بالمطارق الثقيلة والمطارق المعدنية
ودمروها كليا وأزالوا بقاياها
لأن شارلمان يخشى الرب وسيظل يناضل في خدمته
ثم طهر الأساقفة الماء
والى جرن المعمودية ساقوا جموع المسلمين
واي انسان سيرفض ما أمر به شارلمان
سيشنق سيذبح ، أو سيحرق بالنار
وهكذا جرى تعميد مائة الف او أكثر (٣٦٧١ ـ ٣٧٠١)

وتمسحوا ، وفقط الملكة توجب معاملتها بشكل مختلف
كانت ستذهب أسيرة الى فرنسا رويدا رويدا
وسيتولى الملك تحويلها ، حبا بالرب
٢٦٧ ــ ومضت الليلة ، وأشرق صباح النهار منيرا
وعلى الفور شحن شارلمان الابراج بالرجال
فقد عين ألفا من أجود الفرسان
ليحفظوا المدينة سالمة لصالحه
ثم امتطى الملك والجيش خيولهم ثانية
مع براميموند أسيرة تسير في ركابهم
ولم يستهدف شارلمان سوى سلامتها وابقائها حية
بسرور وشعور بالنصر ركبوا الطريق نحو الوطن
واقتحموا نربونة ، ثم غادروها عابرين
ووصلوا بوردو ، المدينة ذات الشهرة العالية
هناك على مذبح القديس سفرين
تركوا البوق مملوءا بالذهب الصافي
(حتى يراه الحجاج عندما يزورون المكان)
وعبروا غيروند ، حيث وجدوا الكثير من السفن الجيدة بالانتظار
وهكذا أحضر الملك ابن اخته وأرسله الى بلاي
مع مرافقه ، الكونت أولفر العظيم
ورئيس الأساقفة الذي كان حكيما وشجاعا
ومددهم جميعا ، أعني هؤلاء النبلاء ، في قبور بيضاء
هناك تمددوا ومازالوا ، اللوردات الجيدين ، في القديس رومين
وأودعهم الفرنسيون للرب ، لقوته ولاسمه
وتابع شارلمان سفره صاعدا الجبال وهابطا الأودية
ولم يتوقف حتى وصل الى أكس
وأخيرا ترجل أمام بوابات القصر
وبعدما جلس في قاعة العرش العالية
أمر باستدعاء القضاة ، وأرسل رسائل مستعجلة الى :
السكسون والبافاريين والفريزيين واللوريين
واستدعى ايضا البيرغنديين ورجال المانيا

ونورماندي وبواتو وبريتين (٣٧٠٢ ـ ٣٧٢٩)
ورجال فرنسا ، وهم أعلاهم علما وحكمة
لابد من اعداد غانلون للاستجواب
٢٦٨ ـ وانطلق الامبراطور شارلمان من اسبانيا يوم بلاده
ووصل الى أكس ، أفضل قلعة فرنسية
وصعد سلم قصره ودخل الى القاعة
وجاء لمقابلته هناك أودي ، الفتاة الجميلة
وسألت الملك : أين القائد المرعب
وقالت : أين رولاند الذي وعدني بالزواج
وعندها امتلأ قلب شارلمان بالأحزان
وفاضت الدموع من عينيه ، واهتزت لحيته البيضاء كالثلج وهــو يقول :

أختي ، أيها السيدة الحلوة ، سألتيني عن ميت
مع هذا سأعطيك بدلا عنه رجلا أكثر نبلا
أعني لويس ، ماذا يمكنني أن أفعل خيرا من ذلك ؟
هو ابني ، وهو الوريث لجميع ممالكي
قالت أودي : بالنسبة لي هذه الكلمات بلا معنى
الرب وقديسيه وملائكته يحرمون الآن
أن أعيش بعدما أفنى رولاند حياته
وسقطت عند قدمي شارلمان ، بعدما اختفى لونها
وماتت مباشرة ، وأعطى الرب الراحة لروحها
وبكاها السادة الفرنسيون بألم وندبوها
٢٦٩ ـ ووضعت ألدا الجميلة حدا لحياتها
ظن الملك أنها فقدت وعيها فقط
أسف لها ، وتساقطت دموعه من عينيه
أمسكها من يدها وأراد انهاضها
لكن راسها مال على كتفيها
وعندما رأى شارلمان أنها ماتت حقيقة
استدعى أربع كونتيسات للوقوف بجانبها

وحملت الى دير للراهبات لتدفن (٣٧٣٠ ـ ٣٧٥٤)
ومكثوا الى جانبها طوال الليل وحتى بلوج النهار
ثم دفنت الى جانب مذبح بطقوس حزينة
واهتم بها شارلمان وشرفها بقدر ما أمكنه
٢٧٠ ـ عاد الامبراطور شارلمان الآن الى أكس
غانلون الزائف الآن بالأغلال
وقف وسط المدينة أمام القصر
وربطه الغلام الى عامود
بأحزمة من جلد الغزال ربطوا يديه
بعصي صغيرة وكبيرة وجهوا اليه العديد من الضربات
لم يستحق جزاء غير هذا
وانتظر المحاكمة بألم ، وبشعور بالعذاب
٢٧١ ـ في تواريخ الأعمال القديمة كتب هذا كله ليقرأ
كيف جمع شارلمان أتباعه من جميع اقطاعاته
واجتمعوا الآن في مدينة اكس لاشابل
كان يوما رفيعا ، وعيدا عظيم التقديس
عيد القديس ، وعيدا عظيم التقديس
عيد القديس سلفستر كما يراه كثير من الناس
الآن نبدأ المحاكمة والاستئناف
لغانلون الذي قام بأعمال خيانية
وأمرهم الامبراطور أن يجروه الى أمام عرشه
٢٧٢ ـ ثم قال الملك شارلمان : أيها البارونات ، سادتي
احكموا اليوم بيني وبين غانلون
لقد ذهب معي ومع حشدي الى اسبانيا
وسبب مقتل عشرين ألفا من فرنسيي
وابن أختي الذي لن تروه ثانية
وأولفر ذلك اللورد الأديب الشجاع (٢٧٥٥ ـ ٢٧٨٢)
وجميع الاتراب الاثني عشر ، في سبيل المال خانهم
قال غانلون : أنا أنكر ، ولاأعترف بهذا الشيء
أخطأ رولاند بحقي بالمال والاملاك

لذا تآمرت على موته وشقائه
لكنني أنكر التآمر ضد الدولة
ورد الفرنجة : هذا يستدعي كثيرا من النقاش
٢٧٣ ـ انتصب أمام الملك الكونت غانلون
بجسم رشيق ، ولون نقي
وبدا سيدا جيدا ، أو لم يكن هذا زيفا
ونظر الى الفرنسي وتفحص قضاته جميعا
ومؤيديه وكانوا ثلاثين من شعبه
ثم صرخ عاليا بصوت واضح وقوي
سادتي ، اسمعوني الآن ، من أجل محبة الرب
أيها السادة ، في الحقيقة ذهبت مع الجيش
وبصدق وحب أنا خدمت الامبراطور طويلا
ابن أخته رولاند كرهني وأساء بحقي
وتآمر على موتي بشكل مريع
جعلت سفيرا الى الملك مارسليون
لكنني استخدمت براعتي ، وهكذا خرجت سالما
وتحديت رولاند ، ذلك المقاتل الشهير
واولفر وجميع مرافقيهما
وسمعت شارلمان وباروناته وفهموني
لقد انتقمت ، لكنني لم أخن
ورد الفرنجة : علينا أن نتناقش بعد هذا
٢٧٤ ـ عندما رأى غانلون محاكمته بدأت هكذا
كان حوله ثلاثون من أقربائه
وكان بينهم واحدا أعطوه زمام القيادة
اسمه بينابل وقلعته سوريذس (٣٧٨٣ ـ ٣٨١٠)
وكان متحدثا بارعا ، وسريع الفهم
وفي حمل السلاح كان قويا وبارعا
قال غانلون : انتبه الي حتى لاأهان أو أقتل
أنا أعتمد عليك ياصديقي حتى تخرجني من هذا
قال بينابل : سأخرجك نعم سأفعل

- ٤٢٥٠ -

اذا ماحكم عليك اي فرنسي بالشنق
يجب على شارلمان أن يضعنا بالقائمة وجها لوجه
وبسيفي البتار ، سأنهي حياته
وانحنى غانلون ليقبل قدميه

٢٧٥ - وانسحب السكسون والبافاريون للتشاور
مع الذين من فرنسا وبواتو ونورماندي
وكثير من التيوتون ورجال المانيا
استخدم الذين من أوفرين منتهى الكياسة
ولخوفهم من بينابل تكلموا بنعومة
وقالوا : بالنسبة لهذه المحاكمة الأفضل أن
نتخلى عنها ونقدم الى الملك رجاء
لهذه المرة يجب أن يترك غانلون حرا
وبعدها سوف يخدمه بصدق واخلاص
رولاند ميت - لن يرى ثانية -
لايمكن لأحد اعادته بالمال أو بالايجار
بينابل قاتل ؟ من كان متعجلا ؟ لست أنا
وواحد واحد فقط رفض الموافقة انه
أخي اللورد غودفري ، الذي اسمه ثيرى

٢٧٦ - وعاد هؤلاء اللوردات الى شارلمان ثانية
وقالوا للملك : بتواضع يرجوك رجال محكمتك
ان تعفو عن الكونت غانلون لما اقترفه من آثام
وسيخدمك من الآن فصاعدا بصدق وحب
نرجوك دعه حيا ، هو أصيل من حيث المولد (٣٨١٠ - ٣٨٣٧)

موته لايمكن أن يعيد أبدا اللورد الشجاع
ولايمكن أيضا اعادة الميت بالمال
ورد الملك : خونه مزيفون أنتم جميعا

٢٧٧ - عندما وجد شارلمان أنهم جميعا خذلوه وتخلوا عنه
اربد وجهه واسود وأثقل جسمه

بالأسى لرؤيته جبناء بهذه الدناءة
وعندها انبعث الفارس ثيري وتحرك
وكان أخا لغودفري دوق انجو ، بالميلاد الصحيح
جسمه رشيق وأطرافه مرنه وحساسة
بشرته داكنة وشعره اسود متجعد
لم يكن طويلا جدا ولايمكن أن تعده قصيرا
وتوجه الى الامبراطور يتكلم بلياقة قائلا :
سيدي الحكيم ومليكي لاتدع هذه الأحزان تزعجك
أنت تعرف تماما كيف خدمتك باخلاص
هذا الخصام خصامي بحق العرق والطبيعة
ومع أن رولاند اساء بعض الشيء بحق غانلون
ضباطك مقدسون بأشخاصهم
وأن تتخلى عنه كان خيانة وقتل
بالنسبة لك سيدي غانلون كان مزيفا ومخادعا
أنا أحكم عليه بالموت شنقا ، زد على هذا :
الأمر (بسحل جسده بخسة على محفة)
بما يتوافق مع مثل هذه الخيانة الممجوجة
واذا مارفض أحد من أقربائه هذا الحكم
عندها ، بالسيف المعلق هنا حول وسطي
في أي لحظة أنا جاهز لمواجهته
وصاح الفرنجة جميعا : صحيح ماقلته بالتأكيد
٢٧٨ ــ ووقف الآن بينابل أمام الملك
وكان قويا ونشيطا وكبيرا جدا وقاسيا
وعلى طرف أراضيه رمال الحياة تجري
وقال لشارلمان : هل هذا بلاطك ، ياسيدي عجبا ؟
أخبر هؤلاء الناس ليوقفوا الضجة بالحال
أنا أرى هنا ثيري ، الذي جلس ليحكم
انه يكذب ، أنا سأقاتله ، وسأنتزع حلقومه وأقطع رقبته
وأعطي الملك قفاز يده اليمنى المصنع من جلد الغزال
قال الملك : قدم لي مايكفي من الرهائن الجيدة

وتعهد الاقرباء الثلاثون بالعهد والايمان
وقال الامبراطور : أنا سآخذ عهد الآخرين
وأمر بحراستهم حتى تأخذ العدالة مجراها
٢٧٩ ـ عندما رأى ثيري أن مبارزة التحدي ستقوم
ناول شارلمان قفاز يده اليمنى كميثاق
وقبل الامبراطور التعهد وأعطاه بدوره ميثاقه
ثم امرهم بجلب أربعة قضاة الى المكان
وجلس المتبارزان هناك وانتظرا
كل واحد اعتقد ان هذه المبارزة ستعد
ووضعت الاجراءات من قبل اللورد أوغيير الداني
ونفذ هذا ، وتم اعداد الخيول والسلاح فورا
٢٨٠ ـ عندما استعدا للمبارزة وتسلحا (٣٨٥٨ ـ ٣٨٨٢)
قاما بالاعتراف ، وتحللا وصليا
واستمعا الى القداس وتناولا القربان من خبز المسيح
وقدما ولاءهما للكنيسة مع مزيد من الاحترام
ثم عادا الى شارلمان جنبا الى جنب
وربطا على عقبيهما المهاميز باحكام
ووضعا درعيهما ، وكانا جيدين مناسبين ولونهما أبيض
وشدا فوق رأسيهما بيضتيهما اللامعتين
وعلقا سيفيهما بمقابضهما الذهبية الرائعة
ووضعا حول عنقيهما واقيتان لامعتان
وأمسكا بيمينيهما رمحيهما الحادي السنان
وبرشاقة امتطيا فرسيهما
بكى الرجال لما رأوهما ، وكانوا مائة ألف فارس بالتمام
الذين حزنوا على رولاند شعروا بالخشية على ثيري
الرب وحده يعرف كيف سينتهي هذا القتال
٢٨١ ـ على مقربة من سور اكس امتد سهل فسيح
هناك وقف المتبارزان وجها لوجه
كلاهما نبيل صحيح ، وشجاع عالي المقام
وامتطيا فرسين نشيطين ، يعدوان بشكل جيد

نخساهما بشدة ، وأرخيا أعنتهما على عنقيهما
وعدوا بشدة ليطعنا والتقيا
وعلى منتصف الترس طعنا ، فتقطعت عراه وتحطم
وخرق الدرع وتحطم السر
وترنحا ووقع قربوسا السرجين والمقعدين
وبكاهما ، أولئك المائة الف رجل
٢٨٢ ـ والى الأرض سـقط كل مـن
المقاتلين (٣٨٨٣ ـ ٣٩٠٨)
لكن على أقدامهما مالبثا أن وقفا منتصبين
وكان بينابل قويا وسريعا ونشيطا
فرساهما ذهبا ، وعدا كل منهما ليواجه خصمه
الآن بالسيفين اللذين مقابضهما ذهبية لامعة
على البيضتين الفولانيتين قرعا وضربا
ضرباتهما كانت ثقيلة ، وكثير من الشظايا تطايرت
وسيطرت الدهشة على الفرنسيين وكانوا على درجـة عالية مـن الاثارة
وصاح شارلمان : وارباه أوضح أنت أين هو الحق
٢٨٣ ـ قال بينابل : أطلب منك ياثيري التخلي
وبالحب والايمان سأكون تابعا لك
ومااردته من الاجر والذهب سأعطيك
فقط أقم سلما بين شارلمان وغانلون
ورد ثيري : هذا لايمكن التفكير به من قبلي
أن اكون دنيئا هذا آخر شيء يمكن أن أفكر به
ليقم الرب العدل هذا اليوم بيني وبينك
٢٨٤ ـ ثم قال ثيري : بينابل أنت شجاع
نشيط وقوي ، وجسمك كامل التكوين
يعرف اترابك أن شجاعتك لاريب فيها
إنني أرجوك ، أن تتخلى الآن ، ونختم النهار
وبسرور سأقيم السلم بينك وبين شارلمان

بالنسبة لغانلون هذه العدالة ستنفذ
وحتى نهاية الزمان ستظل حكايتها تروى
وأجابه بينابل : أقول : أيها الرب امنع ذلك
سأدافع عن شرف قومي
مامن انسان على قيد الحياة سيراني متراجعا
أنا أفضــــل الموت على أن الحـــــق العـــــــار
بنفسي (٣٩٠٩ ـ ٣٩٢٣)

ثم أخذا يتقارعان بسيفيهما من جديد
على بيضتيهما المحلاتان بالذهب والجواهر اللامعة
وتطاير الشرر حتى عنان السماء بشكل محرق
لن ينفصلا ، وحنقهما مامن واحد يمكنه ايقافه
ولايمكن ايقاف هذه المبارزة حتى يموت أحدهما
٢٨٥ ـ بينابل قوي : هو فارس سورنس الشجاع
على بيضة ثيري المصنعة من فولاذ بروفانس ضرب
منها تطاير الشرر وأوقد النيران في العشب
ثم براس سيفه نحو وجهه ثيري سدد
وعلى جبينه وجه ضربة ماحقة
حتى أن السيف حز منه قطعة
تاركا الدم يسيل على وجنتيه
وجرى الدم على الدرع من الأمام والخلف
لكن بعون الرب ، تلك الضربة كلفته حياته
٢٨٦ ـ عندما رأى ثيري الضربة نفذت خلال الجسد
ورأى الدم الأحمر يجري فوق العشب
عندها وجه ضربة نحو بينابل
فشطر البيضة الفولانية البراقة من عند عرفها
ونفذت ضربته الى الدماغ وألقت به خارج الرأس
وسحب سيفه ثم ألقاه ميتا
بتلك الضربة العظيمة ربح وصنع النهاية
وصاح الفرنسيون : الرب أظهر قدرته

وطلبت العدالة إعداد الحبل لرقبة غانلون
ولرقاب أقربائه الذين رهنوا أنفسهم
٢٨٧ ـ انتهت الآن معركة ثيري بالنصر (٣٩٣٤ ـ ٣٩٥٩)
ومباشرة جاء الامبراطور شارلمان اليه
وكان يسير بين يديه أربعة من باروناته :
الدوق نايمون الجيد واللورد أوغيير الدانماركي
ووليم أوف بلاي وغودفري الأنجيفيني
واحتضن الملك ثيري بذراعيه
وبفرائه الثمين نظف وجهه
ثم نزع عنه ثيابه وتولى الآخرون الباسه
ثم انتزعوا سلاح البطل بكل لطف
ومن ثم وضعوه على برذون عربي
وهكذا عادوا بسرور وحبور
ودخلوا الى أكس ، وفي الساحة الكبرى ترجلوا
وأعدوا العدة لتنفيذ حكم الاعدام بالآخرين
٢٨٨ ـ وجمع شارلمان الآن كل كونتاته ودوقاته وقال :
كيف تريدونني أن أعالج مسألة هؤلاء الرهائن ؟
جاءوا لمساندة غانلون في هذه القضية
ورهنوا أنفسهم لصالح فوز بينابل
ورد الفرنجة : لاتوفر أحدا ، الموت هو مايستحقونه
وعندها أمر ضابطا اسمه باسبورت قائلا :
اذهب واشنقهم على شجرة العدالة
بلحيتي هذه التي لونها لون الفضة
اذا نجا واحد منهم من الموت ، فوا أسفي عليك
ورد الرجل : وماذا تريدني أن أفعل أيضا
وتولى مائة من السيرجنتيه سحب الطاقم كله
وكل واحد من الثلاثين علق بأنشوطة
الخيانة تدمر نفسها وتدمر الآخرين ايضا
٢٨٩ ـ الآن البافاريون ورجال المانيا
ورجال بريتاني ، وبواتو ونورماندي

وقبل كل شيء رجال فرنسا ، كلهم وافقوا
وقرروا أن يكون موت غانلون بالتعذيب
ولهذه الغاية أمروا بأربعة من الخيول
وربطوه اليهم من يديه وقدميه
وكانوا أربعة من الخيول الشديدة والمتفوقة السرعة
وقادهم أربعة سيرجنتيه وحرضوهم على السرعة القصوى
نحو مهرة تركوها تعدو في الحلبة
وكان عذاب غانلون مخيفا ومتطرفا
لأن كل عروقه تقطعت من رأسه الى عقبيه
وكل طرف منه اقتلع من مكانه تماما
وجرى دمه براقا على العشب الأخضر
مات غانلون وتم افناء جميع ذريته
٢٩٠ ـ استوفى الامبراطور الآن دينه وانتقم
ثم استدعى اساقفته الفرنسيين لعونه
اساقفة بافاريا والاساقفة الألمان وقال :
عندي مقيم هنا سيدة نبيلة اسيرة
اقيموا لها قداسا وقصوا عليها مواعظكم
لتؤمن بالرب وتتبنى المسيحية
ومن ثم عمدوها لعل روحها تصان
قالوا : وندعها بعد ذلك بعهدة أم الرب
(ايتها السيدة الأصيلة المولد ، تناولي تعاليم الايمان)
كان الجمع عظيما حول الحمامات في اكس
هناك عمدوا براميموند ، ملكة اسبانيا
واختاروا لها اسم جوليانا (٣٩٨٦ ـ ٤٠٠٢)
مسيحية هي ، سارت على الطريق القويم
٢٩١ ـ انهى الامبراطور الآن أعمال المحاكمة
ومع تنفيذ العدالة ، انطفأ غضبه العظيم
وبراميموند جلبت الى حظيرة المسيح
ومضى النهار وتحول المساء الى ليل
أوى الملك الى فراشه في الحجرة المقببة العالية

- ٤٢٥٧ -

القديس جبرائيل رسول الرب جاء اليه وقال :
انهض شارلمان واحشد جميع قواك الامبراطورية
وبالقوة والسلاح ازحف ضد آلبيرا
الحاجة قائمة لأن تتولى انقاذ الملك فيفرين
المقيم في مدينته ايمفي ، فهو محاصر من القبائل المسلمة
هناك يستغيث بالمسيحيين وينشد عونك
قلب شارلمان صغير حتى يتحمل أعباء السفر والقتال
وقال الملك : ياالهي كم هي حياتي متعبة
وبكى ثم ربط لحيته البيضاء المتطايرة
هنا نهاية سجل الأعمال التي سيتلوها تورولدس

ملحمة رتشارد قلب الاسد

آه يامولاي يسوع ، ملك المجد
الذي وهب النصر
والشجاعة للملك رتشارد
الذي لم ير جبانا قط
انه لجيد جدا أن تسمع في حكايا المغامرات
عن بسالته وغزواته
ان الكثير من رجال القصص الخيالية يصنعون الجديد
من الفرسان الشجعان الأقوياء المخلصين
ويقرأ الناس عن أفعالهم في القصص الخيالية ،
في كل من انكلترا وفرنسا :
عن رولاند وأوليفر
وكل النبلاء المشهورين (الاتراب الأثني عشر في ملحمة رولاند)
للأسكندر وشارلمان
والملك آرثر وغاوين
كم كان لطيفا مآزرة هؤلاء الفرسان
من توربين وأوغر الدانمركيين
وعن طروادة يقرأ الناس في كثير من الأشعار
ماذا جرى في الأزمنة القديمة :
لخيل وهكتور - الجنود البارعون
وأي ناس قتلوا في ذلك القتال الطويل
في كتب اللغة الفرنسية القديمة كتب هذا الشعر
ولم يعرفه الناس غير المتعلمين
ولم يعرف عنه شيئا غير المتعلمين من الناس الفرنسيين
بين المائة نادرا ماعرفه واحد
ومع ذلك بأذن متلهفه
جهدوا لسماع الافعال الشهيرة
قصص المغامرات النبيلة ، كما أفهم
عن فرسان انكلترا الأقوياء ،
وبناء عليه أخبركم الآن
عن الاعمـــــال الجـــــريئة العـــــظيمة - للملك

الانكليزي –

الملك رتشارد أفضل محارب
يمكن أن يجده الناس في أي قصة مغامرات
والآن كل من يسمع القصة النبيلة
عليهم تعم رحمة الرب
سادتي أرجوكم أن تسمعوا بلا ازدراء
كيف أنجب الملك رتشارد الشجاع وولد
كان اسم ابيه الملك هنري ،
وكان في زمانه بالتأكيد
كما وجدته مكتوبا بلا نزاع
أن القديس توماس الطيب قد قتل هناك ،
عند حجر مذبح كنتر بري
حيث غالبا ماتظهر المعجزات وترى
وعندما أصبح عمره عشرين شتاء
كان هذا الملك بحق بالغ الجرأة ،
ولم يكن ليتخذ زوجة ، كما فهمت
مالم تمتلك ثروة عظيمة في يدها
وعندما حثة باروناته على الزواج
اتفق الملك معهم فيما قالوه
وأرسل على الفور عصبا من رجاله
الى كثير من الأراضي البعيدة المختلفة
وأجمل امرأة كانت في الوجود
على رجاله أن يحضروها له ليتزوجها
وأرسل بالرسل في حركة سريعة
ومضوا الى السفن تلك الليلة بالذات
وسرعان ماذشرت الاشرعة
وهبت الريح قوية خلال الليل وفي الفجر
واذا ما أصبحت السفن وسط طريق المحيط
رأوا الاشرعة تتدلى متراخية مترنحة

وبينما جلس هؤلاء الفرسان الطيبون وقد استبد بهم الخوف
ظهرت سفينة أخرى ، قريبة تماما
ولم يكونوا قد رأوا مثل هذه السفينة أبدا :
كانت بيضاء ناصعة ذات لمعان متلألىء
وكل مسمار فيها كان من الذهب المحفور
والضلع من أنقى الذهب المطروق
والصاري مرصع بالعاج
والاشرعة من الحرير باذية للجميع
وكانت الحبال أيضا مجدولة من الحرير
وهي في بياض اصفى من الحليب
وكانت الأسطح مفروشة بأقمشة ذهبية
مركب نبيل انتبهوا واصغوا
وكذلك الشرف ومرفاع المرساة أيضا
كانت مطلية بلون أزرق سماوي صاف
وكان بالامكان أن يرى هناك على السطوح
مجموعة من العذارى الجليلات ،
مشرقات كضوء الشمس عبر الزجاج
ولم يكن ممكنا أبدا تخطي سيدة منهن
ونادى فرسانها على جماعة هنري
طالبين منهم أن يصعدوا الى السطح
للراحة والاسترخاء والا يبالوا بشيء
وأن يخبروها عن ماذا يبحثون
ذهبنا الى كثير من الاراضي الشاسعة الغريبة
لأن ملكنا هنري قد أرسلنا
لنجد له ملكة نبيلة
أجمل مايمكن أن يشاهد على الأرض
ونهض ملك من على كرسي ملكي
عندما سمع ماقالوه هناك
وكان الكرسي من حجر العقيق الاحمر
ولم يكونوا قد رأوا أبدا عرشا مساويا

- ٤٢٦٤ -

ووقف دوقان الآن بجانب الملك
رجلان نبيلان في أبهة ملكية
ورحبا بكل واحد من الرسل
على ظهر السفينة حيثما ذهبوا
وأمكن للرجال أن يروا ثلاثين فارسا
يحيونهم مع هذه الصحبة
وعندما صعدوا الى ظهر السفينة الذهبي
الفاخر

كرسل لشهرة هنري
كان المزيد من الفرسان والسيدات حاضرين
سبع مجموعات وأكثر ، كما فهمت
ليرحبوا بكل واحد منهمَ على ظهر السفينة
وأعدوا مائدة موائمة لهم
مد فوقها غطاء من حرير
وأمر الملك عندئذ وصيفة شابة
بأن تحضر ابنته التي ليس لها شبيه
لتجلس أمامه على كرسي
وبدأت الابواق الذهبية تدوي
وهي تصعد الى كرسيها ،
وكان يصحبها عشرون فارسا
وكان هناك أيضا وصيفات في الانتظار
وانحنى الرسل عند قدميها
وسألوها ماذا تريد أن يفعلوا
وأكل الجميع وشربوا وجعلوهم مسرورين
وفق ماأمر صاحب الجلالة الملك نفسه
وبينما هم ينعشون أنفسهم بالطعام
وكانوا يتحدثون في تلك الفترة الفاصلة
أعلن الملك قراره
فقد جاءه في الرؤيا

في الأرض التي جاء منها
ان يذهب الى انكلترا فهذا مقصده
وأن ابنته العزيزة جدا عليه
يجب أن تذهب معه كما بين تماما :
« وبهذه الطريقة أبحرنا
نحو الأرض التي أتيتم منها »
عندئذ أجاب أحد الرسل بوضوح
وكان اسمه برناغر
« لن نبحث اذا عن أي شيء بعد الآن
حيث سنأخذها الى سيدي
وعندما سيراها بأم عينه
سيكون قد جوزي تماما »
ثم هبت ريح شمالية شرقية نحو انكلترا
وطارت سفينة الملك عبر الزبد الى الأرض
وخلال ساعات كان الرسل
قد اقتربوا من الملك في أعلى البرج
وأخبروه بأمر تلك السيدة الجميلة
اجمل سيدة في أي مكان
وأمر الملك بتهيئة الامور
ومع البارونات والايرلات والفرسان
اسرع نحو سفينة الملك الغريبة ،
لانه كان أصيلا وأديبا
وتم اصطحاب الآنسة الى اليابسة
التي فرشت أمامها بالاقمشة الذهبية
وانتصب أبوها في وقفة ملكية ، واقدام
وقد زين جبينه بتاج من ذهب ،
وبينما احاط بها الرسل من كل جانب
كان المغنون ايضا ، يشيعون الدفء والأبهة
وركب الملك هنري فرسه الذي راح يعدو
ليحيي بحرارة ، الملك الذي لايعرفه

وأبنية الجميلة في لهفة ،
مرحبا بكم جميعا عندي
ثم مضى الجميع الى وستمنستر
واتجه اللوردات والسيدات الى القاعة
وسرعان مابدأت الابواق تدوي
لتعلن عن المائدة التي أجيد اعدادها هناك
وخدمت الحاشية بشكل جيد جدا
ولاحاجة لذكر ما أكلوه
ونهض الملك بعد الوليمة
واتجه الى الزوار في ملابس ذهبية
وتوجه هنري الى الملك الغريب مخاطبا :
سيدي الطيب أخبرنا أتوسل اليك ما اسمكم ؟
فقال : اسمي هو كوربازنغ ،
وأنا ملك انطاكية
وأبلغهم بقراره
بأن يبحر الى انكلترا بسبب رؤياه
وانحنى هنري للسيدة الجميلة
وأنت ياآنسة يامن لا شبيه لها ؟
فقالت :« كاسودوريون »
وحنت رأسها في تواضع وخجل
فقال : ياآنسة « طاهرة ومشرقة
هل تعيشين هنا وتصبحين ملكتي »؟
فأجابته بصوت لطيف :
« سيدي سأفعل بخيار أبي »
فأجابها أبوها مسرعا بالحال
بأنه يمنح الملك هنري بركته :
ويجب أن يتزوجا بسرعة
وأن تشاطر هنري فراشه كملكة
وناشده بلطف الموافقة
على أن يتم ذلك بأكبر خصوصية

وتم الزواج في تلك الليلة والذات
ورقص البلاط طويلا حتى أضاء الفجر
وجعل سرورهم الليل يمضي سريعا
وأنشد قسيس القداس في الغداة
وعند رفع القربان المقدس
سقطت الملكة في اغماءة كالشبح
وكان الناس مدهوشون في خوف مؤلم
واذ سجيت في غرفة نوم
قالت :« علمت » بالمصادفة
لن أنظر أبدا الى القربان المقدس
وغادر أبوها مع المد في الصباح
اذ لم يعد بامكانه ان يبقى هناك
وعاش الملك في سعادة مع ملكته
وكان بينهما أولاد لهما
ولدان صغيران وعذراء فاتنة
وصحيح جدا كما نقل الى كتابي
كان الأول رتشارد ، وهذا ماعلمت ،
وبه تتعلق هذه القصة الشعرية
وكان الآخر جون كما سمعت ،
وكانت أختهم توبياس الثالثة
وعاشوا في سعادة غامرة جدا
حتى السنة الخامسة عشرة
وذات يوم قبل أن يركب الملك هنري
ليسرع الخطى الى القداس في بهجة
حضر الى هناك ايرل ذو جلال
وقال :« ياسيدي » كيف يمكن أن يكون هذا
ان الملكة زوجتكم وسيدتكم
لاتجرؤ على رؤية القربان المقدس ؟
اعطونا انذكم لنجعلها تمعن النظر فترة من البداية
بالانجيل

وحتى يتم انشاد وتلاوة القداس
ويجب ان لاتقلقوا
ووقف الملك هادئا ، وقال أخيرا :
أمسكوها باحكام بقوة فيها عناية
لامن أجل السراء والضراء
دعوها تخرج من هذا القداس
وهكذا عندما بدأ الناقوس يقرع
في الوقت المخصص
تخرج ماضية من الكنيسة
ثم قال الايرل : ابق من أجل الرب
ياسيدتي ، ستبقين هنا ،
واسوف تمسكين عند ترك الكنيسة
وامسكت بابنتها بيدها ،
ثم احتضنت بسرعة جون
علنا وأمام ابصارهم
وسقط جون بينما كانت متجهة الى الأعلى
وكسر فخذه فوق الأرض
وهكذا انطلقت هاربة بابنتها[1]
وتركت ملكها في فزع حزين
وكان الملك حزينا جدا بسبب هذا الحادث
ومن الطريقة التي غادرت بها وماعنتها
حتى أنه لم يعد يذهب الى القداس أبدا
ولن يزول حبه لها أبدا
ولعل من المعروف أنه بعد موته
يجب أن يرتقي رتشارد العرش
وطالب الملك هاري بتتويجه بعد الوفاة
وكان رتشارد بن هنري بالتأكيد
قد أتم الخامسة عشرة من عمره
وكان هذا الشاب عظيم القوة جدا
وسلك سبيل العمل بالسلاح

كما ينبغي أن يفعل الملوك والفرسان النبلاء
وأصبح شجاعا جدا وقويا أيضا
ولم يكن أحد يستطيع أن يصمد طويلا أمامه
وأحرز الشرف في كل ميدان
كما يفعل ملك وفاتح
وأمر بعد أن أصبح ملكا
في ساليسبوري بمقارعة رائعة بالسيف
وأوكل رجل بالحضور
مسلحا بالدرع والسيف والحربة (١)
بما في ذلك الايرلات والبارونات وكل انسان
وأن لايبقى أحد في بيته
تحت طائلة فقد الحياة والأرض
لأن الملك لا يمكن أن يمنعه شيء عنهم
وقد نودي بذلك كما فهمت
في كل انحاء انكلترا بكاملها
وفي كل مكان يمكن للمرء أن يراه
وجاء الفرسان كما أمر
راكبين فوق التلال والمستنقعات
ولينفذوا أمره الملكي
سوف يقف كل الفرسان أمام بعضهم بعضا
كما كانوا يلتقون في الميدان
وتنكر الملك تماما بصورة جيدة
في ثياب غريبة لاتكشف عنه لأحد
وركب منطلقا من واد كثيف
ليشهد كل حيل من يشتركون في المباراة
وكفارس مغامر
كان لباسه منذرا بالسوء
فكله كان أسود كسواد الليل
وكذلك كان المهر الذي ركبه منتصبا
ووقف غراب أسود فوق خوذته

ومذقاره فاغر على سعته كما لو كان مستحوذا عليه
وحول عنق هذا الغراب جرس
وسأذكر السبب في ذلك الآن
فالغراب الأسود يرمز
لمن يكدح كدحا طويلا بلا كلل
ودلالة الناقوس المجلجل :
ان الكنيسة مستقر للجميع
وهي تدمر كل من يجلب لهم الحزن ،
ولايشاطرهم هذا الاعتقاد
وحمل الملك عمودا كبيرا وقويا
وكان طوله أربعة عشر قدما
وكان صلبا وغليظا أيضا
محيطه حوالي احدى وعشرين بوصة
وأول فارس قابله الملك هناك
انقض عليه متلهفا
وضربه محدثا شقا غائرا في وسط درعه
وساق حصانه نازلا الى الميدان ،
سقط هذا الفارس الابله على الارض
وجده الموت تقريبا في النزع الاخير
ـن الشجاع التالي الذي لقيه هناك ،
جعا يتلقى ضربة قوية ،
على هامته وطوقه ايضا
وكسر رتشارد عنقه الى قسمين
سقط هو وحصانه على الأرض
ومات الاثنان فوق هذه الرابية الدامية
وتحدى رتشارد على كل جانب
اذا كان هناك من مزيد يركب اليه
وعندما بدأت الابواق تدوي
جاء فارس من آخر الصف الطويل
فارس جريء تماما وشجاع وطيب

وكان يمتطي فرسا أحمر بلون الدم
وقد تسلح بكل قوته
بكل عدة فارس قوي شجاع
وأمسك بعامود كبير وقوي ،
وكان ثقيلا بقدر ماكان طويلا
وقال إنه سيركب ضده
اذا كان سيبقى هكذا في الميدان
وبدأت الأبواق تدوي
لتعلن لكل الذين اجتمعوا هناك
بأنهم مرة أخرى يجب أن يصنفوا
لأن لديهم خصما حقيقيا
وقد رأى الملك هذا الفارس يركب هناك
وبرمحه اتجه نحوه
وجابهه في وسط الميدان
وأحدث بدرعه ثقبا وانتزع نصفه
ونهب غطاء عنقه بعد ذلك ايضا
وعظم كتفه الايمن ايضا
ثم قناع خوذته وحلقه
فتأسف بمرارة لأنه جاء الى هناك
والتفت رتشارد منذرا الباقين
وسألهم جميعا إن
كان هناك رجل آخر أو فارس
يرغب أن يركب ضده أو يقاتل
ولما رأى أن أحدا لن يأتي ذلك اليوم
ركب هكذا ماضيا في طريقه
متوغلا في غابة مبتعدا عن عيونهم
وهناك بدل ثيابه في تنكر جديد .
واختار مهرا أحمر بلون الدم
مع كل الجل الأحمر الذي فوق ظهره
وكذلك الحصان والدرع والسلاح ايضا

يجب أن لايعرف أحد من يكون هو هذا الفارس الجديد
وفوق خوذته كلب أحمر ـ دموي
بنيل أحمر يتدلى نحو الأرض
وكان ذلك دليلا على قصد الفارس
ان يحضر للوثنيين قدرهم
وعزمه على قتلهم جميعا باسم الرب العزيز
والمطالبة برد اسرى المسيحيين
وفي وسط الميدان أوقف مهره
وتلفت حوله ليبدأ عمله
وساق نحو الفرسان مستعرضا اياهم
وطاف حولهم واستعرضهم من الداخل والخارج
فرأى بارونا انتحى الى أحد الجوانب
وفي اتجاهه بدأ يسوق
وأعطى رمحه الى تابعه
لأنه لم يرد حمله نحو هذا الرجل
نحوه انطلق حاملا صولجانه من الصلب
وفكر في أن يعطيه ضربة محكمة
على خوذته السميكة القوية
وتطاير الشرر من تلك الخوذة الصماء القاسية
وأدار البارون وجهه جانبا
وقال :« ايها الفلاح الفظ تقدم واركب
ومع أندادك انهب والعب لعبتك
ولكن لاتأت إلي بعد الآن اقول لك
لأنه حقا اذا جئت إلي
سأعطيك ضربتين قويتين
ودهش الملك من قول هذا الرجل
الذي هكذا لم تؤثر به ضربة الملك
وعاد الملك من طريق آخر
وفكر في القيام بلعبة أفضل
ووقف واضعا قدمه في ركابه

ليضربة بقوة أعنف وبمزاج غاضب
ووجه ضربته الى الخونة المعدنية
ولكن الفارس بقي جالسا فوق سرجه
وبسرعة ودون مزيد من القول
أخرج الفارس صولجانه ليلقنه درسا
وكانت هذه العصا مصنوعة من نحاس مطروق
وحث الرجل الآخر على المرور
وبضربة متميزة وفى بالاثنتين
فأطار قدم الملك من الركاب
وسحقت مابين الصفيحة والسترة الداخلية الواقية
ومابين الدرع وعبر الزرد
ولم يكن قد شعر بمثل هذه الضربات من قبل
التي جعلته نصف مسجج ومرضوض ونصف
مقروح
وبسرعة بدأ يركب ويسوق
خارج الجماعة المحيطة بالميدان
وهمهم صارخا ولكن صوته كان خافتا
لايمكنني أن أتلقى مثل هذه الضربات وأمضي
ثم ركب مرتدا الى بئره
وبوساطة خونته شرب كفايته
وشرب جواده هناك ايضا
في حين أعد عدته الثالثة
وكانت كل ملابسه بيضاء كالحليب
وحزام الفرس والاشرطة التي تمسكه من أجمل
الحرير
وفوق كتفه صليب أحمر لامع
كرمز لخسارة ربنا العزيز
الذي ضد أعدائه سيقاتل
ليربح من أجل الصليب اذا أمكنه ذلك

- ٤٢٧٤ -

وفوق خوذته حمامة في بياض الثلج
وهي تظهر محبتها للروح القدس
وهكذا كان جريئا حر الروح
ليدمر أعداء الرب
ومرة أخرى شرع الملك يسوق
نحو نبيل ، بخطى سريعة
وكان اسم هذا النبيل فولك دويلي
وكان الملك يحب هذا النبيل لسمعته
والى فولك وجه ضربة قوية
ليظهر قوته ومزاجه
ضربه بقوة فوق خوذته البراقة
وشقها بكل قوته
حتى أنها انشقت حتى عظم وجنتيه
ورجاه السير فولك ان يذهب
وانه يجب أن لايبقى بقربه
والا فانه سيشعر بألم شديد
ورأى الملك أنه لم يذق طعم الألم ،
ففكر في أن يضربه مرة أخرى
والقى عصاه الحديدية فوق رأسه
ووجه هذه الضربة بكل قوته
ولكن البارون مع أن هذه الضربة ازعجته
فانه قد وجه بعصاه الثقيلة التي من الصلب
ضربة الى الملك ليجعله يحس
وانشقت خوذة الملك
ولم يعد يستطيع البقاء جالسا على سرجه
وخرجت قدماه من الركاب
فهو لم يشعر مطلقا بمثل هذه الضربة القوية
وأدهشته هذه الضربة
فلم يحدث أبدا أن القي به هكذا
من أجل هذه الضربة التي تلقاها

- ٤٢٧٥ -

لم يعد يعرف اذا كان الوقت نهارا أم مساء
ولكنه سرعان ماا سترد وعيه من الدوخة
واتخذ طريقه الى قصره
ثم أمر وهو في قاعته
بأن يذهب المنادون ليدعوا
كل فارس لأن يتابع طريقه
ويعود الى أهله واصدقائه
ثم بعث الملك رسوله
وأرسله الى هناك سرا
الى السير توماس مولتون الشجاع
الذي كان بارونا وسيما ضخما
وأيضا الى السيد فولك دويلي
كي يحضرا على الفور ليراهما
وأن لايتأخرا لحظة واحدة
حتى يقفا أمامه ليسمعا منه السبب
ومضى الرسول في طريقه
واخبر الرجلين اللذين أرسل اليهما
بأنهما يجب أن يصحباه
راسا الى الملك كي يراهما
وهكذا حث الفارسان الشجاعان الخطى
ومضيا الى الملك مسرعين
وأديا له التحية في اكبار واجلال
ولاحظا أن وجهه لم يبد متجهما
وهو يوجه اليهما الكلام بطلاقة :
« مرحبا بكما عندي »
وقاد الاثنين بيديه
الى غرفة بعيدا عن العيون
ثم قال لهما الملك : « ياصديقي العزيزين »
« قولا لي الصدق ، أتوسل الآن اليكما
في كل اختبارات المقارعات المرهقة جدا

- ٤٢٧٦ -

من الفارس الذي كان أفضل من ركب ؟
وأي فارس عرف هناك ببراعته أنه الأفضل
في الاستعمال الجيد للعمود الضخم القوي
وفي الاختراق الذي اسقط عن الخيل أعداءه ؟
وأي فارس شجاع أظهر ذلك العيان هناك
وأظهر معرفته بالهجوم بالرمح » ؟
وأجاب ملتون ، « فارس يلبس السواد
جاء راكبا الى المقارعة ذلك اليوم
وكل من رآه هناك يقول
كيف ركب في مزاج غاضب
فوق جواد قوي وقارع الكل
وفوق خوذته كان غراب أبنوسي أسود
وبينما ركب داخلا ليختبر قوته
كان العمود الذي يحمله قويا غليظا
وكان طول عموده هذا أربعة عشر قدما
ومحيطه احدى وعشرين بوصة
وسأل اذا كان هناك من يريد اختيار جدارته
وبتقدمهم ليثبتوا شهرتهم
بقتاله في هذه اللعبة الجريئة »
وجاء فارس شاب ، أعزب
انطلق راكبا واقسم أن يقوم بتحد قوي
وأمسك عموده وركز جواده
وركب ضد هذا العدو في الواقع
وقابله الفارس الأسود في الميدان
ووجه ضربة قوية الى درعه
والقى بالرجل والحصان لما بهما
وجرى هذا الفعل من قبل الفارس المجهول
ونفخت الأبواق وصاح المنادون
ولكن أحداً لم يكن حينئذ ليركب ضده
أو يتبارز معه بالصولجان أو بالرمح

فقد شعروا أن مثل هذا الخصم لم يعطهم أي
فرصة
وذلك الفارس الضخم الجريء النادر
قد استخدم عموده ببراعة وترفع وبرود
وقال الجميع :« لقد ربح هذا الميدان اليوم »
ولن ينطق أحد الآن بالمديح
حيث أنه فعل ذلك بكل استخفاف
الا اذا قابل ضرباتنا مرة أخرى
لكنه قبل ان يوجه ضربة مرة أخرى »!
وكز حصانه خارجا من بين الناس الاسلحين
وقد أمسك بعموده الضخم في حالة استعداد
تام
والتقى الاثنان بعدئذ وسط الميدان
ورمى المغامر نفسه بالترس جانبا
وكان العجيب أن فارسنا وقع
ولم يقمع الغضب الأحمر الذي كان الفارس يحمله
فاسقطته الضربة وكسرت عنقه
وبدأ ثالث الفرسان الكلام :
« ان هذا شيطان وليس رجلا حقيقيا
الذي يضرب رجالنا هكذا ويقتلهم
لن أهدأ حتى
أقابله في الميدان اليوم !»
وتقدم الفارس المغامر دون ابطاء
واتجه مباشرة بحصانه الى هذا الفارس الجريء
ثم الى قسمين شق درعه ،
وبعموده كسر كتفه
وألقى به فوق ظهر الفرس
وهكذا سقط بقوة وكسر ذراعه
ولكنه لم يتلق أي أذى أكثر من ذلك

ثم التفت الفارس الجسور مرة أخرى
وتحدى بزئير قوي
من يقارعه
ونظر اليه الجميع بوجوه متجهمة
فلا احد يريد أن يقارعه مرة أخرى
خوفا من أن يسلبهم حياتهم
وهكذا عندما رأى مامن أحد أتى
وكز فرسه تاركا هذه اللعبة الجسورة
« ثم خرج هذا الفارس راكبا من عمق الغابة
خطى كله بلباس أحمر في مظهر مرعب
وكان حصانه ودرعه كلاهما احمر
وأوقع في نفوس الجميع الهلع والخوف
وكان كلب أحمر يقبع فوق رأس خوذته
وقد جاء للتحدي والاختبار
اذا كان هناك من يجرؤ على المبارزة
وعندما لم يجبه أحد أدرك
أن عليه أن يجبر واحدا على القتال
وركب في الميدان باحثا عن فارس
يكون الشيطان قد احتجزه حيث يكون !
ولاأعرف لماذا اختارني بالذات
بيد أنه هز وصيفي برمحه
وحملق في بنظرة متعالية
ثم ضربني بقوة بعموده الحديدي الغليظ
ومالم يكن من خلال رحمة عزيزنا يسوع
اقول لانكسر عنقي الى قطعتين

وعزمت عليه أن يركب ويمضي في طريه
ويلعب مع أولاد من طبقته الخاصة
وجاء ثانية ليقوم بجولة ثانية
ووجه لي ضربة أسوأ من تلك بكثير وأشد

ولكني جلست فوق فرسي بهدوء
ثم صحت كثير من ابن ام
« واأسفاه ياسير توماس مولتون
لقد ضرب وجلس هناك ساكنا ! »
ولوحت بعمودي بمهارة قوية
وضربته بقوة كما عرف الجميع هناك
وطوحت به عن فرسه طائرا تقريبا
عندما أوقعت به هذه الضربة
ومثل تلك الضربة لن ينساها أبدا
ولم يبق لمزيد من الضربات
لانه سرعان مابدأ يسوق »
وعندماروى مولتون قصته هكذا
السير فولك دويلي البارون الشجاع
وجه الكلام عندئذ للملك رتشارد
« والفارس الثالث الذي جاء بعد ذلك
كان بسابغة بيضاء كما الثلج
ونظر الكل اليه من أعلى الى أسفل
وكان على ترسه صليب أحمر بلون الدم
ووقفت على خوذته حمامة بيضاء
وساق أمام الجميع ثم بطريقة باردة
نادى أي فارس جريء جدا
يكون رجلا قوي البنية شديد الاحتمال
ليبارزه في تلك اللعبة العنيفة
ولم يبد أن رجلا هناك بهذه الجرأة والضراوة
ليجرأ على القتال هناك بالذات معه
وساق راكبا فرسه مسرعا مستعرضا الفرسان
ثم جاء إلي أخيرا وفي النهاية »
واستأنف السير فولك الكلام : في الحقيقة سيدي الملك

لقد كان هذا الفارس شيئا غريبا
وواجه عموده خوذتي وهي من الصلب السميك
ومالآن وجه بيده الضربة
بتلك القوة العظيمة بشدة وعنف
حتى كاد دماغي كله أن يسحق
ولكني سخرت منه ببضع كلمات باردة :
أرجوك أن تذهب أيتها الزبابة الخشبية الصغيرة
والعب مع طفل يكون ندا لك !
واذا عدت بهذه الطريقة فاني
ساعلمك كي أجعلك عاقلا
ولكنه عاد إلي مرة أخرى
وأعطاني هناك ضربة أثقل
وبعمودي ضربته بقوة
فخرجت قدماه عن ركابه
ومثل الدائخ خرج راكبا من بين الحشد
ومضى متوغلا في عمق الغابة
وجلس الملك رتشارد هنا ساكنا خافض الرأس
وقال ياأصدقائي ارجوكم لاتتنهدوا
ولاتركنوا للحزن ، لقد كنت أنا
الذي عندما احتشدتم بعدتكم
ركبت اليكم ، وكنت منكم قريبا ودانيا
وكان أقواكم في الاختبار
هو الذي أمكنه هناك أن يرد ضرباتي بصورة أفضل
وقال : « سادتي إني اعرفكم انه يحسن
أن تعرفوا مايجول بذهني الآن ؟
إني أود أن نذهب الى الأرض المقدسة
نحن الثلاثة ودون اي مزيد لخر من الفرسان
وسوف نذهب في زي حجاج مسعفين
لكي نستطلع الأرض والقوات التي هناك
وأريد أن تقسموا لي الآن

ان لايعرف أحد بما أدليت به لكم الآن
لالخيرنا ولالويلنا
حتى نمضي في رحلتنا »
هذان الاثنان وافقا مسلمين لرغبته عندئذ
لأن أيا من الرجلين لم يرد أن يقول لا
وأقسما على أن يعيشا أو يموتا معه
وغفرا له ضرباته العنيفة
ووضعا أيديهما فوق الكتاب
وأقسما على أن يكونا مستقيمين في هذه المغامرة
ثم قبل الثلاثة وجنات بعضهم بعضا
وأقسما على أن يكونا فارسيه المخلصين
ودعتهم الابواق الى المأدبة
وبعد أن أبرما هذا الاتفاق
وفي اليوم العشرين أخيرا
كان الجميع مستعدين للانطلاق
بعباءات الحجاج والعكازات في الايدي
كحجاج الى الأرض المقدسة

في الابيات ٦٠٧ ـ ٦٥٠ : أبحـر هؤلاء كحجـاج الى الارض المقدسة ليستطلعوها من أجل حملة عسكرية ستتلو ، ثـم بـدأوا في حينه رحلتهم للعودة الى انكلترا

بعدما مروا ببحر اليونان العميق
في المانيا توقف هؤلاء الحجاج الثلاثة برهة قبل أن يمضوا قدما
وقد جلب لهم هذا كثيرا من الاسف المضني للقلب
ولسوف أعيد من جديد رواية ماجرى هناك
اصغ عندما أخبرك الآن !
في الحانة حيث التمسوا الراحة ونهب الملك رتشارد الى المدفأة
حيث انحنى السير توماس فوق النار
وبينما كان فولك يحرك صلصة المرق
واشتروا في حينه تلك الأوزة غاليا !

وعندما تم شواء أوزتهم جيدا
في النزل كان يتمشى هزيل
وقال لهم : أرجوكم اسمعوا دعواي
كي تسمعوا غنائي !
وعندما أمر رتشارد هذا الرجل أن يذهب
ردت له كلماته كثيرا من الأسى
وبعدما ردد أفكارا غاضبة في الذهن
قال : انتم الثلاثة غير طيبين أبدا !
واذا ماأتيح لي سأهزمكم فانتم لم تقدموا الي لا اللحم ولا الشراب !
حيث يجب على الرجال الأماجد ان يشتركوا في طعامهم
مع المغنيين المتجولين ولايبعدوهم
عن لحمهم الطيب والنبيذ والجعة
بل ان يشاطروا المغنين المتجولين وليمتهم الجميلة
وكان هذا الرجل انكليزيا وهكذا عرف تماما
من ثيابهم وكلامهم أين كانوا يقيمون
ومضى قدما في تلك الليلة المظلمة
الى قلعة على مرتفع القرية
وأخبر الملك وبعضهم والكل
ان ثلاثة رجال قد جاءوا الى المدينة
وهم رجال أقوياء جسورين غير هيابين
في كل الدنيا ليس لهم نظير
وكان الملك رتشارد أحد هؤلاء الثلاثة
وثم كان فولك دويلي الآخر
وكان السير توماس مولتون هو الثالث
فرسان نبلاء سمع عنهم الجميع
وكان تنكرهم في ثياب حجاج خشنة
لذلك لم يكن أحد ليعرفهم

واليه تحدث الملك عندئذ :« ياصديقي
اذا كان على كلمتك يمكنني أن أعتمد
ستكون لك مكافأة سخية
وسأمنحك الهدايا »
ثم أمر الملك كل فرسانه
بأن يتسلحوا بكل قوتهم
ليقبضوا على هؤلاء الحجاج الثلاثة :
« واجلبوهم بسرعة وعودوا بهم الي »
وركب الفرسان منطلقين في كوكبة مرعبة
واعتقلوا الحجاج الشجعان الكبار
وجيء بهؤلاء الثلاثة الى حضرة الملك
وسألهم ماهذه البلاهة
التي جاءت بهم الى بلاده الواسعة
من انكلترا قالوا له هكذا جئنا
ما اسمك ؟ عندئذ سأل الملك
وقال رتشارد دون كذب
وأنت ؟ سأل فارسا آخر
فولك دويلي كان الجواب الصحيح
وأنت ياسير ياذا الشعر الرمادي الطويل جدا ؟
توماس مولتون أجيب الملك
وسأل الملك الثلاثة كلهم
لماذا تسللوا الى داخل بلاده
اني اتهمكم أنتم الثلاثة بالتنكر
لكي تأتوا الينا هنا كجواسيس أشرار !
وقد تجسستم في اراضي أعلاها وأدناها
وأعتقد انكم تخططون لخيانة كريهة لي
وأما بالنسبة لك ياملكي الشاب الشجاع
ولبارروناتك الاثنين ، دون كذب
فانتم لم تتصرفوا تجاهي بصدق صحيح
لذلك فانكم بالقانون وبالقوة

ستوضعون في سجن شديد
لأنكم تتآزرون علي أن تخطئوا معي
فأجاب الملك رتشارد أعتقد انك
بهذا الفعل تصبح غير وفي
ان كل الحجاج الذين يسلكون الطريق
أحرار في الذهاب ليلا ونهارا
أيها الملك مودرد من لطفك وفضلك
لاتوقع بنا نحن الحجاج شيئا خسيسا
فمحبة به قد سعينا نلتمس الحج
فدعنا نذهب ولاتحجزنا أبدا
ولكن دعنا نواجه مايمكن ان يقع لنا
في اي أرض يمكن أن نركب فيها
ولكن الملك الشرير أمر بسرعة
بأن يلقى بهم في السجن
وكما فهمت أن البواب
أمسك بيد الملك رتشارد
وأخذ رفيقيه هناك كليهما؟
وهكذا تخلوا عن دورهم كحجاج
وفي الصباح عند الساعة التاسعة تماما
جاء ابن الملك في وقت مشؤوم
وكان اسم هذا الأمير أردر؟
وكان فارسا ذا شهرة كبيرة جدا
وكان قويا غير هياب
ولم يكن له صنو في كل تلك الأرض
فقال « أيها البواب » أرجوك أن
تدعني الآن أرى سجناءك!
فقال السجان : سيدي ، كما تريد
سأنفذ كل رغبة لك
عندئذ أخرج السجناء الثلاثة
وجاء رتشارد ، الأول في المجموعة

عندئذ تكلم آردر مع الملك
الست رتشارد بلاكذب
الذي يتحدث عنه الناس في كل أرض ؟
هل تجرؤ أن تأخذ معي ضربة باليد ؟
في الصباح سأمنحك الأذن بالمغادرة
تلك الضربة باليد مني سوف تتذكرها
وعلى الفور تكلم الملك رتشارد الشجاع
فوافق على أن يتبادل معه الضربة
وكان ابن الملك الشاب معتدا جدا وضخما
وضرب الملك بيده ضربة قوية
تطاير معها الشرر من عينيه الغائمتين
وبينما كان رتشارد يرى أنه قد أخطأ في حقه
أقسم قسما بالقديس مارتن قائلا
غدا سأرد هذه الاساءة !
وعندئذ أمر آردر بارادة متغطرسة
بأن يأخذوا كفايتهم
من كل الشراب واللحم أيضا
ولهم أن يأكلوا أفضل ما لديه
حتى لا يمكن أن يضطر للانتظار
ويستبق ضربة رتشارد ويتعجلها
وعلى الاستقرار في الفراش طلبا للراحة
وهكذا كان ابن الملك يأمل أن يسر
ووضع الملك الانكليزي في وضع سهل
وفي الصباح عندما أهل النهار
نهض رتشارد كما أقول لكم وأخذ شمعا صافيا لامعا
ثم اقترب من ناره
وشمع يديه بشمع النحل الصافي
مرة وأخرى حتي يمكن أن يتأكد أنه
قد أصبح بسمك القشة وأقل منها بكثير
لأنه صمم ان يضربه ضربا مؤلما

بتلك اليد التي جعلها مشدودة جدا
ليرد الضربة بأقصى قوة
وجاء ابن الملك حسب الخطة
ليحصل على أجره كرجل حق
ووقف أمام الملك رتشارد بجرأة وشجاعة
ووبخه بكل ازدراء وعجرفة
وقال له : « اضرب بكل قوتك »
بما أنك تسمى القوي الشجاع!
واذا أنا جفلت أو ابتعدت
سوف لن أحمل أبدا درعا في شجار »
وضربت قبضة الملك وجنة أردر
وكل من رأى سوء حظ ذلك الصبي
قال إن اللحم والجلد قد أنتزعا
وهكذا سقط أردر وقد أشرف على الموت
وأنكسر عظم خده الغليظ نصفين
ووقع على الأرض ميتا كالحجر
وأسرع السجان الى حضرة الملك
وأخبره بهذا الأمر السيء
الذي فعله رتشارد بابنه
فصاح واسفاه لم يعد لي أحد!
وبهذا النواح سقط على الأرض
وكرجل تملكته كارثة مميتة
أغمي عليه في أسى عند أطراف العرش
وساعده فرسانه حتى بلغ مقعده المرتفع
وصاح أحدهم سيدي « لندع هذه الفكرة
الآن لقد وقع الأمر وحزنكم لن يجدي شيئا »
ونهض مودرد وقال متنهدا
لكل الفرسان الذين وقفوا على مقربة منه
حول هذا الأمر الحزين أرجو ان تشرحوا لي
وأن تقصوا على كيف قتل ابني الشاب

ووقفوا هناك جامدين كلهم
وفي أساهم لم يستطيعوا قول أي كلمة
وبسبب الصخب الشديد اندفعت الملكة داخلة
وقالت: « وأسفاه ما الذي سبب هذه الضجة ؟
لماذا تبكي بصوت كله اسى ونحيب
ما الذي جلب لكم كل هذا الهم »؟
قال الملك : ياعزيزتي . أنت لا تعرفين
أن ابنك الجميل قد حل به الموت !
منذ أن ولدت
لم يحل بي مثل هذا الاسى !
لقد تحول كل سروري الى كرب
والآن للموت أمضي بكل سرور !
وعندما فهمت الملكة ذلك
اقترب مزاجها من حافة الجنون
وناحت قائلة واسفاه « ماذا أفعل » !
وخمشت وجهها ودمعها ينهمر
وكما تفعل النساء في أعمق الكروب
غطى وجهها الدم الكثيف
ومزقت الثوب الذي كانت تقف فيه
وندبت اليوم الذي ولدت فيه
بأي طريقة لقي ابني حتفه ؟
وأجاب الملك « يجب علي أن اخبرك
كما أخبرني هذا الفارس الحزين
هكذا أخبر ملكتك أيها الرجل المنتحب
بأي طريقة بدأ هذا الفعل ؟
مالم تكن تعرف الحقيقة الكاملة لتخبربها
اليوم يبعث بك الموت الى الجحيم »
وطلب الملك مودرد من السجان أن يقترب
وقال له إنه يجب أن يوضح تماما
ما الذي رآه ـ ويجب أن يشرح

باي طريقة قتل ولده !
فقال السجان في الفجر الماضي ومع انبلاج الصباح
جاء ابنك في وقت منحوس
الى عند باب السجن الي
وأراد أن يرى الحجاج النبلاء
فأحضرت اليه أولئك الاشرار
وعندئذ جاء الملك رتشارد أولا
فسأل الأمير آردر بصـــوت خـــافت وكلمـــات معتـــدة
اذا كان الملك رتشارد يمكن أن يبادله ضربة
بأن يتلقى ضربة منه له ويرد له بأخرى
ضربتان لن يرفضهما الفارسان بازدراء
فقال رتشارد مع ضوء هذا الفجر
اضرب ايها السيد الشاب بكل قوتك !
وهكذا ضرب آردر الملك رتشارد
بشدة لدرجة انه كان بامكانه أن يتباهى ويشعر بالارتياح
وقال الآن يا رتشارد أعزم عليك
غدا سوف تعطيني ضربتك
وافترق الاثنان على ذلك
ونهض رتشارد عند بزوغ النهار
ثم اليه جاء آردر في الحال
ونادى رتشارد باسمه
وبالقسم بين الاثنين ذلك اليوم
ضربه رتشارد ضربة في الحقيقة أن تقول
هشمت عظم خده السميك الى نصفين
فسقط أرضا ميتا كأي حجر
وكما اقسمت أن أخدمك هنا
هكذا جرى بهذه الطريقة !
وقال الملك مودرد في غضب كئيب
في السجن سرعان ما يصبحون ضعافا

وسوف تقفل السلاسل بسرعة عليهم
من أجل أفعالهم الكريهة الجارية تجاهنا
وهذا الذي أردى ابني قتيلا
إن قوانين بلادي ستقضي عليه بالموت !
وغادر البواب الى حيث قد صرف
لينفذ أمر سيده
وذلك اليوم لم يقدم لهم طعاما يأكلونه
ولا شرابا يطفئون به ظمأهم
وكانت ابنة مودرد في منتجعها الريفي
تهجع مع وصيفاتها من ذوات الشرف الرفيع
وكان اسم هذه العذراء مارغري
وكانت قد أحبت رتشارد بقلبها الملتهب
وعندما ارتقى الصباح ومال نحو الظهيرة
مضت الى رطوبة السجن بسرعة تامة
واصطحبت معها ثلاثة من الوصيفات
وقالت : يا أيها السجان دعني الآن أرى
السجناء الذين لهم مثل هذه الشهرة الكبيرة
فصاح : على الفور ياسيدتي
وجاء بالملك على مرأى منها
فحياها بلطف وكياسة حقا
وقال لها بقلب شجاع حر :
ما هي رغبتك ياسيدتي مني ؟
وعندما رأته واقفا بهذه الشجاعة
انطوى قلبها عليه تماما
وقالت :« ياسير رتشارد بالله الأعلى
اني أحبك أكثر من كل شيء هنا »
فقال:واأسفاه في هذه الحالة
المزيد من البؤس قد بعث إلي
مالذي يمكن أن يعطيه حبي لك هكذا ؟
اني سجين مسكين كما ترين الآن

وهذا ثالث يوم يمضي
وليس لدينا طعام ولاشراب»!
وغمر قلب هذه السيدة شفقة عظيمة
فقالت،لن يدوم جوعه أكثر من هذا
وأمرت عندئذ السجان الصارم قائلة،
«أحضر لهم كل من اللحم والشراب
وارفع عنهم أغلال الحديد الآن
آمرك من أجل خاطري العزيز
بعد العشاء في المساء المظلم
أحضره الى غرفة نومي
ومن أجل لباس هذا الرجل النبيل
عليك أن تلبسه كتابع فارس
لهذا ، وباسم يسوع ، مولانا العزيز
سوف تحصل على مكافأة سخية »
وفي تلك الليلة لم ينسها البواب
عندما جاء برتشارد الى غرفتها
ومع تلك السيدة الجميلة المعتدة الأنيقة
لعب كل الليل بكل نزواته
وحتى اليوم السابع
كان يمضي كل ليلة هكذا سرا
ثم تجسس عليه فارس هناك
فهرول مسرعا ليخبر الملك
عن أعمال رتشارد كل مساء
فسأل الملك بسرعة تامة
كيف تسنى لاسيري هذا الماكر الكريه ؟
فقال،الفارس بسرعة الملك رتشارد
هو الذي قام بهذا الفعل الشرير
سيدي بالنصرانية العزيزة لقد
راقبته وهو يجيء اليها
وازداد قلب مودرد الغاضب ألما

ولم يعد أحد يستطيع أن يكلمه !
وبسرعة كي يريح فكره
استدعى مودرد مجلسه الاستشاري الحكيم
الايرلات والبارونات والكهنة العالمين
ليخبرهم بهذه الأعمال المكربة
فركب الرسل خارجين من البلاط
ليستدعوا حكماء الرجال من كل مكان
وبحلول مساء اليوم الرابع عشر
جاءوا جميعا دون ابطاء
وتوجه الملك بالخطاب الى هؤلاء العلماء
واليهم جميعا توجه بالطلب
وقال: سادتي « أرحب بكم جميعا »
وبينما هم يتمشون معتدين في القاعة
جلس الملك في وسطهم جميعا
وقال لهم: بتاجي الجليل
أقول لكم لماذا بعثت في طلبكم
عن خائن أريدكم أن تعطوني قراركم الحكيم
خائن هنا قد اساء الي
وهو يجلس الآن في زنزانة محصنة
وشرح الأمر للجميع
كيف اردى رتشارد ابنه قتيلا
وكيف استبيحت ابنته :
« واسوف يريح موته كدمات قلبي الحزين
ولكن القوانين قضت كما أعرف
لايمكن أن أقتل هذا الملك كما أعرف »
عندئذ توجه اليه بالكلام بارون شجاع :
« كيف حدث انكم احتجزتم هذا الملك الشجاع ؟
هال له كملك نبيل جدا
وتجاهه لم يجرؤ أحد من الناس أن يحاول شيئا شريرا »
وتحدث مودرد عن درته الثمينة

وكيف وجد في تنكر خشن
وكان معه بارونان اثنان
نبيلان صاحبا عمل جريء
« اسرتهم ولم افعل شيئا خطأ
واحتفظت بهم في زنزانتي الحصينة »
ومع هذه الملاحظات استأذن خارجا
ورجاهم أن يقضوا بلا إرجاء
كيف يمكن له هكذا أن يشفي غليله بحكمه
وبأي وسيلة يصل الى هذه الغاية
وأمضى النبلاء ثلاثة أيام وهم يزنون هذا الأمر
ليقروا ماطلبه الملك
وبينما هم يعملون ثار غضبهم وهم
يلتمسون طريقا لمجازاة هؤلاء الأعداء
وقال بعضهم إن مودرد يجب أن يسحل
الملك

وقال آخرون : إن القانون يحظر مثل هذا الشيء
وتجادلوا ولكنهم لم يتمكنوا من الاتفاق
على ماذا يجب أن تكون عاقبة رتشارد
وقال الاحكم هناك عندئذ« الصحيح أننا
لايمكن أن نصدر عليه حكما »
وبعثوا بهذا الجواب الى الملك
وبه لم يعطوه اي تشجيع
ثم تكلم فارس بارع فقال :
« لاتحزن بعد هذه الليلة سيدي
لاني أعلم حقا أن السير الدريز
يمكنه تماما أن يبدع وسيلة مرعبة
لانه رجل ذو نفس كريه
وسبب الموت لاعداد كبيرة
فأمر مودرد بهذا الرجل الضاري جدا

ان يجلب اليه في الحال (٩٩٠)
وجيء به الى حضرة الملك
الذي سأله حينئذ بقوله:
هل يمكنك ان تبتكر لي طريقة
« يمكن أن أجازي بها هذا الفعل الكرية»؟
فأجاب السير الدريز بمكر: (٩٩٥)
« يمكنني أن أذكر لك هذا بسهولة
انك تعرف تماما المرء لايمكن أن يفعل ذلك بالقانون
ان يقطع رأس ملك أو يشنقه أو يسحله
لهذا يجب أن تعمل وفق منطقي
انتق بسرعة سبعا ضاريا (١٠٠٠)
وامنع عنه لحمه اليومي
ولمدة ثلاثة أيام لاتعطه شيئا يأكله
ورتشارد ايضا يجب أن لا يغذى
وليقاد الاسد الى زنزانته
وبهذه الطريقة يقتل (١٠٠٥)
ويتحقق انتقامك منه
إن السبع يقتل بمخلب وحشي
وهكذا انك لن تخرق القانون »
وعلمت مارغري بهذه الحيلة (١٠١٠)
وعليه بعثت وراءه بسرعة
لتحذره من نية الملك
وعندما جاء بسرعة الى غرفتها
« مرحبا » قالت تلك السيدة المولهة في الحب
« لقد تعلم أبي من قاض ماكر (١٠١٥)
طريقة لايذائك بحقده
فخلال ثلاثة ايام سيدفع الى زنزانتك
بسبع جائع جدا سريع ومتوحش
وسيقضي هذا السبع على حياتك
ومعك يموت سروري الصادر من القلب »! (١٠٢٠)

ثم قالت هكذا: « يامحبوبي العزيز
سنهرب الليلة من هذه الأرض
مع ذهب وفضة بكميات هائلة
وكل ماسوف نحتاج اليه في المستقبل !
وأجاب رتشارد: اني أفهم
ان الهرب سوف يخرق قانون الأرض
والهرب أن نذهب من هنا دون اذنه
وأبوك سوف لايمنحني اي الرجاء
وأنا لاأخاف السبع الآن
وأول مايدور بخلدي هو كيف أقتله »
وفي الساعة التاسعة من اليوم الثالث النحوس
سيكون معي قلبه الضخم
أقول لك هذا :
« احضري لي مناديل من أصفر الحرير
أربعين في بياض أصفى حليب
الى زنزانتي ستحضرينهم
قبل المساء بقليل »
ووجدت وسيلة لتاخذ طريقها في حينه الى زنزانته
صحبت معها فارسا نبيلا
عمل طعاما ساخنا من أجل تقوية رتشارد
وأمر رتشارد أن يشاطره طعامه صديقاه الامينان العزيزان
« وأنت ايها البواب الصديق ، اعمل على تنفيذ كل ماتأمرك بـه
سيدتك »
وتلك الليلة جدا حبهما
حيث سحبا الى زنزانته فراشا
رتشارد وتلك الآنسة الفتية
واسترسلا كل الليل في نغم الحب
وفي الفجر عندما بزغت الشمس مبتهجة جدا
رجاها رتشارد أن تأخذ طريقها عائدة

لا ، صاحت«من أجل الرب في الاعلى
سأكون بجانبك من أجل حبك
وسأبقى هنا معك »
وأواجه موتي بجانبك ايها الشجاع
ولن أذهب من زنزانتك القاسية
وسآخذ مايأتي به الرب !
وقال رتشارد : ياسيدتي الحرة العزيزة
مالم تتركيني سريعا
سوف تحزني قلبي بألم شديد
لأني لن أتمكن من حبك أكثر أبدا »
وعلى هذا أجابت العذراء « لا » !
فالرب العزيز الذي مات فوق الشجرة
سينقذ حياتك اذا كانت هذه مشيئته ،
ثم أخذ المناديل في يده
وصنع حول ذراعه رباطا
واعتقد أنه في برهة قليلة
سوف يقتل السبع بالقوة والحيلة
ووقف قويا في سترته القصيرة
منتظرا السبع في بسالة وجرأة
وسرعان ماأخذ السجان طريقه اليه
وكان معه في ذلك اليوم فارسان
ومعهما سبع قوي
وكانت مخالبه ضارية وحادة وطويلة
ودفعا بباب الزنزانة لينفتح على مصراعية
وأطلقا السبع الهائج في الداخل
وصاح رتشارد :« الهي العزيز احفظني »!
واذ قام السبع بقفزة قوية
كان يمكن أن يمزقه طرفا عن طرف
راغ الملك رتشارد بوجهه العابس المتجهم
وضربه ضربة على صدره

ضربة قوية ماهرة محظوظة
فقبع السبع وعضلاته مشدودة
ولوح بذيله في ألم مجنون
وفغرَ فكية الرهيبين على سعتهما
وزار حيث جعله الجوع يتوقف
وأحس السجان ورجاله باغماء وشيك
بينما زار السبع بدون توقف
واعتقد رتشارد أن هذا الوقت كان الافضل
وقفز ودفع بشدة بذراعة الملفوف
في حلقه بتصميم قوي ،
ومزق قلبه مخرجا اياه وكل شيء آخر وجده
وسقط الوحش ميتا فوق الأرض
ولكن رتشارد لم يكن به جرح ولاخدش
وظل راكعا في ذلك المكان الدامي
وشكر رتشارد يسوع على انعامه
الذي حفظه هناك من الأذى المؤلم
وأخذ القلب الذي كان مايزال داميا حارا
وحمله الى القاعة
أمام الملك ورجاله جميعا
وكان الملك مودرد جالسا أمام الطعام مرتفعا
والدوقات والايرلات والفرسان بقربه
والى حيث كان وعاء الملح موضوعا على المائدة
سار الملك رتشارد وعصر الدم
وغمس القلب في الملح
بينما وقف كل واحد وتراجع الى الخلف
وأكل هذا القلب نيئا وهو يقطر دما
ومودرد وحدة منهول وبائس
يهمهم : حقيقة اني أفهم
هذه ليست يد انسان فان بل يد شيطان
التي أردت سبعي القوي قتيلا

- ٤٢٩٧ -
وانتزعت قلبه بأقصى قوة بدنية
وهو منه الآن يأكل كفايته
انه يسمى بحق من أجل هذه المهارة الضارية
ملكا عمد بشهرة عظيمة (١١١٥)
رتشارد القوي قلب الأسد»

في الأبيات ١١١٧ ــ ١٥٧٢ ، دعا الملك مـــودرد ايرلاتـــه وباروناته ، وأخبرهم بوفاة ابنه ، واغواء ابنته ، وبمساعدتها الملك رتشارد على قتل السبع ، وقراره بـاطلاق سراح رتشـارد مقـابل فدية ، وقد وضع الفدية عالية عن عمد : كأسا قربان من كل كنيسـة من أراضي رتشـــارد . وجـــوابا على رســـالة رتشــــارد الى انكلترا ، جمعـــت الفـــدية وأحضرت الى مـــودرد . وحـــرر رتشارد ، ولكن مودرد طالب منه أن يأخذ مـــارغري معـــه ، وأصرت الملكة مع ذلك على أن تبقى مارغري في البلاط حتى يتمكن رتشـارد من أن يرسل في طلبها .

وغادر رتشارد الى انكلترا ومكث هناك ستة شهور . ثم أعطـى الروائي الرومانسي تاريخا موجزا للأرض المقدسة وللأحداث التـي دفعت بـــالملوك المســيحيين لأن يقـــرروا المضي في الحـــرب الصليبية ، وعندما علم رتشارد بالمرسوم البابوي الرسمي (واضح أنه خلط مع الحملة الصليبية الأولى .) الذي أصدره البابا أوربان داعيا الى حرب صليبية ، قرر الذهاب ، وبعث باسطوله المكون مـن مائتي سفينة الى مرسيليا ، بينما أخذ جيشا من أربعين ألف رجـل الى المانيا ليسترد الفدية من مودرد : زاحفا بجيشه عبر مقـاطعات مودرد دون سلب أو نهب أو تدمير لمحاصيل الفلاحين وأجبر رتشارد الملك الألماني على الأذعان

وعرف مودرد أن عدوه قد جاء
ليطالب باعادة الفدية المرتفعة وليرمـــي بـــه في زنزانة الى الأبـد
(١٥٧٥)

ان لم تساعدني ابنتي الآن !
من عرشه الفاخر دعاها الى قربه ،
« ماذا هناك يا سيدي ماالذي تخشاه »؟
« عليك يا عزيزتي ، القيت كثيرا من اللوم
ولكن دون مساعدتك سيحل بي العار »
فاجابت ، « يا سيدي ما هي خطتك »؟
ما أنا إلا امرأة سيده »
« واذا أصبحت فقط ذا مزاج معتدل
لن يفعل بك الملك رتشارد إلا خيرا ؟
هبه كل ما يريد بنفس طيبة ،
ويجب ان تحقق له كل ما سيطلبه
فاذا منحته هكذا كل ما يريد
لن يعاملك كوغد كافر لئيم
انت الذي كنت محنقا مغيظا كريها
وسيكون هذه الاتفاق عادلا لكليكما ،
وإذا كانت الملكة أيضا سمحة كيسة
سترى هكذا منه أفعال جيدة »
وقادت اباها في ذلك اليوم
الى الملك رتشارد ، كما يقول كتابي
وكان معه مزيد من الايرلات والبارونات ،
وستون فارسا خارج الباب
وعندما رأى رتشارد كيف جاء مودرد ،
اتجه نحوه ليعرض طلبه
وركع الملك مودرد على ركبتيه
وحيا الملك مع ذرائع واعذار صادرة عن القلب
« سيدي إني تحت امرك ! »
فقال الملك رتشارد ، طلبي الوحيد
هو أن تعيد الي الآن ذهبي ؟
وبعد ذلك سأحبك بوضوح

وأعاملك دائما كصديق لي
وقال مودرد : ليحمينا الرب !
أقسم لك على الكتاب
أن كل ما أخذته منك جاهز لك
كذلك الثمين حاضر
وإذا أمرت فإني أزيده لك
وبذلك سأقيم السلام معك !
وغفر له الملك رتشارد خطيئته ،
وقبله على خديه العجوزين
وأصبحا صديقين سريعا وبوضوح
وفي اليوم نفسه دعا الملك الألماني
الملك رتشارد للعشاء
وبعد الوليمة عندما فرغ الجميع
قال الملك رتشارد بنبرات واضحة صادقة ،
لضيفه الذي كان جالسا بقربه
« أشكرك جدا على هذا الترحيب
ولكني ياسيدي من أجل محبة الرب أرجو
أن تلبي لي الآن رغبتي
في حملتي الصليبية الى الأرض
من أجل خاطر الرب العزيز ، أعطني يدك
وتطوع مودرد بالذهاب
وعرض تقديم كل فرسانه أيضا ،
لمساعدة الملك الانكليزي في القتال :
« ليس صوابا بالنسبة لك أن تذهب ،
فأنت أحسن من أن تخوض مثل هذه الحرب ،
ولكن ابعث بفرسانك الممتازين
مائة مقاتل ، شجاع وقوي
أفضل من ينتمي الى بلاطك
واعطني من التموين ما يكفي ،
من أجل عام كامل من القتال العنيف ،

ـ ٤٣٠٠ ـ

وابعث أيضا باتباع ليخدموا رجالك
وقال الملك مودرد على ذلك « أمين »
وهدية أخرى سأعطيها لك
يمكن أن تعينك في حياتك : هي
خاتمان سحريان ثمينان من أصفى الذهب
والأحجار فيهما منضدة وكاملة
ومن هنا الى أرض الهند
لا يمكن أن تجد أفضل منهما في أي مكان ،
لأن من لديه حجر واحد منهما في يده
سوف لن يغرق في الماء أبدا
والحجر الآخر من يحمله
لن تحرقه النار في أي مكان
قال رتشارد : يا سيدي أقدم لك شكري قالها
وهو خارج لينضم الى قواته المسلحة

الابيات من ١٦٤٩ الى ٢٨٩٠ : من هناك رحل ريتشارد مع جيشه وفرسان مودرد الى مسينا ليقابلوا ملك فرنسا فيليب وكان الملك الفرنسي متلهفا ليؤذي رتشارد من أجل التحكم في أراضي ريتشارد الواسعة ، فكتب الى تانكرد ملك صقلية ، رسالة اتهم فيها ريتشارد بالتآمر بعمل خياني ضد الصقليين ، وكره تانكرد أن يصدق مثل هذا الإتهام ضد الملك النبيل ، وأطلع الملك الانكليزي على الرسالة ، وفي غضب من فيليب لهذا الفعل الظالم ، برأ ريتشارد نفسه من هذه التهمة ، وطلب من الملك الفرنسي تقديم تفسير .

ومع ذلك سخر الصليبيون الفرنسيون والمعسكرين في مسينا من رجال ريتشارد ، وقتلوا كل من وجدوا من الفرسان الانكليز الضالين ، وبذلك أوجدوا حالة من التوتر .

وأصبح رتشارد غاضبا من فيليب ورجاله من هذه المعاملة

الفظة ، فهاجم القوات الفرنسية وهزمها ، وأجبر فيليب على توقيع معاهدة عدم اعتداء لبقية الحرب الصليبية .

وأبحر فيليب الى عكا ، بينما أبحر رتشارد لتسوية خلاف مع اسحق ، امبراطور قبرص ، فقد اغرقت ثلاث من سفن كنوز رتشارد خارج مياه قبرص ، وذبح الامبراطور بعض الناجين ، ليدعى بأحقيته في الكنز ، وأبحرت سفينة الكنز الرابعة لتروي الفاجعة لرتشارد وذلك بينما كان باقي الأسطول يقترب من قبرص

لم يستطع رتشارد تحمل هذا العمل ، وهكذا بعث رسولا الى اسحق طالبا اطلاق سراح ألفا وستمائة من الناجين الذين أخذوا أسرى ، واعادة الكنز ، وعندما رفض اسحق ان يرد الكنز أو الاسرى ، أمسك رتشارد ببلطة يزن رأسها عشرين رطلا ، وأمر الفا من فرسانه أن يعدوا أنفسهم للمعركة ، وركب خارجا ليجابه اسحق المتغطرس .

وفي المعركة التالية ، قتل رتشارد عشرين ألف قبرصي ، واستولى على الكثير من الكنوز ، بما في ذلك جوادين لايمكن مقارنتهما ، هما : فيفل وليارد وعندما رفض الأمبراطور القبرصي المهزوم الاستسلام أمر رتشارد بتقييده بالسلاسل الحديدية ووضعه على ظهر سفينة رتشارد القيادية ليصحب الصليبيين الى عكا .

وقابل رتشارد واسطوله المكون من مائتي سفينة على الطريق مركبا شراعيا ضخما سريعا مثقل الحمل ناقلا المؤن الى الحامية المسلمة المحاصرة في عكا ، ومع رفض الاستسلام وجه قائد هذه السفينة الاهانات الى مبعوث رتشارد عندئذ أمر رتشارد شينية بمهاجمة السفينة المعادية ، ودمر الصليبيون المركب بمعونة الرب ، وبعثوا بها وبرجالها الألف والستمائة الى قاع المحيط ، وبعد هذا التأخير الطفيف ، تقدم الصليبيون نحو عكا .

وعندما وجد مدخل ميناء عكا مقفلا بسلسلة ضخمة ، أمر ريتشارد شينية أن تقترب من وسط السلسلة ، وصعد الى قوس سفينة القيادة وضرب السلسلة بعموده الحديدي ضربة قوية مرسلا السلسلة وهي تغرق في اتجاه قاع الميناء ، وجرى ترحيب قلبي بالاسطول الداخل من قبل رجال فيليب ، وبعد أن أخبره رئيس أساقفة بيزا بمحاولات الملك الفرنسي غير الناجحة للاستيلاء على المدينة تولى ريتشارد قيادة القوات وقرر دراسة الوضع .

وقفز ريتشارد فوق جواده (٢٨٩١)
وانطلق مبتعدا بسرعة أثارت الغبار .
وركب حول الخندق المائي للوثنيين
ومضى نحو مجموعة المخيمات العكاوية المسورة
حتى وصل الى مشفى (٢٨٩٥)
القديس يوحنا ، كما رأيت أن أذكر
وهناك نصب سرادقة
وأقام هناك برجه ميت - غريفون
فكان حصنا للرجال الانكليز
[illegible]مة المشارقة الوثنيين (٢٩٠٠)
وبمساعدته تم الاستيلاء على المدينة وأيضا بمساعدة النحل
وعندما شيد البرج جيدا
ثبت هناك عراداته
وأمر باحضار خلايا النحل بسرعة (٢٩٠٥)
ثم بين كيف توضع
وحين بدأ نفخ الأبواق
انتشروا في الأسفل لمهاجمة المدينة
وكان الملك رتشارد فوق سور عكا المتين
وقذف بالنحل ليسقط في الداخل (٢٩١٠)
وكان الجو حارا في ذروة الصيف
عندما تفجر النحل خارجا من كل جانب

وكان متضايقا ومليئا بالكراهية
فأحدث بين المسلمين كثيرا من الهياج
لأنهم كانوا يلدغون في وجوههم
عندما كان النحل يطير بينهم
واختبأ الوثنيون في زنزانات صماء
حتى لايستطيع النحل أن يجدهم
ولعنوا روح الملك ريتشارد الى الجحيم
لأن « ذبابه » لسعهم بعنف شديد
ونصب رتشارد آلة أخرى
ودعا هذه الآلة باسم روبنت ،
وهي آلة قوية وقفت بمفردها
وقذفت الى داخل عكا أحجارا ضخمة
ولكي يكون ريتشارد هو الغالب
استدعى اليه رئيس عمال التلغيم
وعزم عليه يحفر له نفقا متقنا
يصعد في اتجاه البرج المسمى موديت
وأقسم قسما بالقديس سيمون
بأنه اذا هدمه بحلول الظهر
وكذلك جميع السور الخارجي
فانه وقتها سيحطمه كله ألى قطع متناثرة
وحفر عمال التلغيم نفقهم سريعا
بينما كان ، رجال الآلات يقذفون بقذائف كبيرة
وتسلح المسلمون جميعا
وركضوا مسرعين مرتقين السور
وكلهم ملفوفون بالملاءات من الرأس الى الركبتين
ليبعدوا عنهم لسع نحلات رتشارد
وصاحوا « إن لهذاالرجل تصاميم كريهة
عندما يهاجم بالنحل وبالتلغيم
مامن ملك آخر ابتدأ بهذه الطريقة
ولا شك لدينا أنه سيربح اليوم »!

ووقف الملك رتشارد فوق برج ميت غريفون
ليرتب الأعمال داخل المدينة ،
وكيف هرب الوثنيون في رعب (٢٩٤٥)
بينما كان رماة السهام من برجه
يذبحون بالقسي العقارة وبالسهام مربعة الرؤوس يؤلمون
يطاقونها بين الأرجل والأذرع ونحو الرأس والقلب
وساعد الصليبيون الفرنسيون بتلكؤ
في التلغيم في ذلك اليوم الدموي (٢٩٥٠)
وأسقط السور الخارجي هكذا
وكان العديد من الوثنيين في تلك المدينة قد
قتلوا عندما ركب رتشارد الى داخلها
وعندما بدأ سيطرته هناك
وربح المسيحيون في ذلك اليوم أكثر (٢٩٥٥)
من السنوات السبعة السالفة
وهرب المسلمون في تلك الساعة الدموية
وتسابقوا الى داخل البرج الأعلى
وأشعلوا المشاعل حول السور
وهـــــكذا أمــــــكنهم أن يروا الصـــــــــليبيين
ضخمين (٢٩٦٠)
وكانت هذه المشاعل تلقى ضوءا غريبا
كان يتراقص خافقا فوق الفارس
الذي وصل للتو من انكلترا ،
والشخص الذي لايمكنهم الصمود أمامه
مالم يأت قائدهم صلاح الدين (٢٩٦٥)
بكل رجاله لينتقم لهم
وكان صلاح الدين على بعد عشرة أميال من هناك
لكنه رأى من هناك المشاعل في الهواء
فاستدعى اليه جميع حشوده
وكانت كثيفة كالمطر فوق ساحل عاصف (٢٩٧٠)

- ٤٣٠٥ -

قد تجمعوا فوق سهل
بجوار عكا ، فوق أرض وعرة
ستون ألفا من المشاة كانوا هناك
وقد أعدوا حزما من القش
ليحملوها ، هكذا كتب مؤلفي
ليملأوا الخندق المائي الخارجي للمسيحيين
وأقسم كل منهم يمينا
أن يقتلوا كل المسيحيين القساة المكروهين
وبعدهم جاء قادة وفرسان
مائة ألف أقوياء للقتال
وزحف هذا الحشد قدما فانتصر بنظام
وحمل الأول ألوية من سندس أحمر
وكان على كل لواء ثلاث غريفونات حقيقية
ولكل شريط بلون أزرق سماوي
وخلفهم ركب القادة الشجعان
بدروع تشع مثل الذهب البراق
ومع أعلامهم المثلثة وألويتهم أيضا
وكانت مصنوعة من سندس لونه لون ريش الطاووس الأخضر
مع تنين ضار على جل واحد
يقاتل سبعا شرسا
وكانت أعلام الأول حمرا ثم بعد ذلك أصبحت خضرا
ثم أصبحت المجموعة الثالثة مرئية
خمسون أو ستون ألف فارس
مسلحون بكل قوتهم
وجاء بعدهم في بياض الثلج
خمسون ألفا في صف
وبينهم كان صلاح الدين
وابن أخيه تقي الدين
ولواؤهم الأبيض ـ الثلجي كما في الخرافات
عليه ثلاثة رؤوس سمور كشعار إسلامي

وكان شكلهم حسن وحجومهم كبيرة جدا
وكان كل هؤلاء الرجال يحملون الترسة والدرق
ومامن واحد كان قادرا على تبين طريقهم
في الخندق المسيحي الذي ركبوا حوله
بينما كان المشاة يلقون بحزم القش فيه
لكي يعدوا للفرسان طريقا ممهدا
ملأوا الخندق حتى الحافة
حتى يمكن للحشود أن تسوق مباشرة الى الداخل
وقام المسلمون بهذا العمل
عندما قرر الرب القادر وهكذا قضى
أن يطرد المسيحيون الحشد
بينما هم يناشدون روح القدس
« الآن لدينا أفضل عون »
لأن لدينا قديسنا المنقذ »!
وكان معسكر المسيحيين يموج بالرجال
وهم يهرعون الى اسلحتهم بسرعة ،
وتسابقوا نحو حافة الخندق المطمور
للدفاع عنه مع نخبة المسيحيين
وفي هذا القتال الحزين مع ضربات الأخذ والعطاء
ســـــقط عدد كبير مـــــن الرؤوس مـــــن فـــــوق الأجساد
وانشق الكثير من الدروع نصفين
وسقط الكثير من الخيول أيضا
وفقد العديد من الفرسان أسلحتهم
وسقط كثير من الخيل وقد أصيبت بأضرار كثيرة
والعديد من النفوس الشجاعة بلا شك
قتلت طوال ذلك اليوم الدامي
وسقط الملك رتشارد مريضا بحمى مرتفعة
وأحس كل رجاله أن أجله بات قريبا

- ٤٣٠٧ -

ولم يستطع أن يتحول عن فراشة
حتى لو أن خيمته احترقت
ومن ثم اتضح أن ملك فرنسا
سيقود المعركة وحده
وأن أحدا يجب أن لايخرج من المعسكر
ولاأن يمر قرب الخندق ليستكشف
بل أن يلزموا داخل المعسكر
حتى لايكسب الوثنيين منهم كما يجب شيئا
وهم الوثنيون الذين اقتربوا من الخندق
وحاولوا عبور هذا الخط المسيحي
وبفعلهم هذا قطعوا أنفاسهم
وهناك واجهوا بسرعة موتهم
ورقد الملك رتشارد في فراش مرضه
والسبب في ذلك يجب أن أقول
ناجم من تعب البحر
والهواء الغريب في تلك البلاد البعيدة
والبرد القارس والحر المرير
والدم والشراب غير الطيب
وهكذا أعاقت هذه الأشياء جسمه عن الحركة
حيث أنه لم يستطع أن يجد طعاما مجلوبا من انكلترا
وهكذا رجا الملك المريض الفرسان أن يبحثوا
له عن رجل حكيم هكذا قال
سواء أكان مسيحيا أم وثنيا أسود
ليخبره كيف يعالج حماه
وأعطى كل رجل نصيحة وتوجيهه
ولكن لم يكن هناك أحد بهذه الحكمة
حتى يتمكن من أن يوقف أساه المحموم
أو يحرره من آلامه
وكان الانكليز الشجعان يشعرون بالأسى
من أجل مولاهم في كربة

وهكذا أيضا كان كل المسيحيين هناك
لأن رتشارد لايقود هذه النشاطات
وفوق ركب مثنية كان الحشد المسيحي راكعا
يصلي للأب والابن والروح القدس ،
في آناء الليل والنهار بنية طيبة
ربنا هب ملكنا راحة سريعة !
من أجل حب مريم ليسوع العزيز
فأجابت سريعا صلواتهم القلبية
بفضلها وبركاتها الحلوة ،
وشفي الملك رتشارد من مرضه العضال
والحمهم لم يعد له ميل
ذهب كل النبيذ والماء بددا
وتاقت نفسه العليلة الحم خنزير مشوي
حتى لو أن رجاله جميعا احترقوا
لم يتمكنوا من ابتياع واحد في هذه الأرض القاسية
بكل الذهب الذي كان تحت إمرتهم
اي قطعة من لحم خنزير غض
يمكن للملك أن يغمس فيه شوكته
وبهذا علم في حينه فارس قديم السن
وعرف كيف تاق الملك المريض بمرارة
الحم خنزير وهو في بؤسه المحموم
عندها تحدث مع الطاهي على انفراد
حيث قال: ان ملكنا الطيب يرفض بازدراء لحومنا
ذلك أنه تواق الحم خنزير مشوي طيب
ولايمكننا في أي مكان هنا أن نشتري لحم خنزير مشـوي ليرضى ملكنا المريض !
ومـــع ذلك اني أعرف مصـــدرا يمـــكننا أن نعـــول عليه
لكنه لو علم إن رأسي ستسقط

- ٤٣٠٩ -

لذا يجب أن لاتبين له كنهه
خذ مسلما شابا خفيف الحركة
ممن يجب أن يفارق حياته البائسة بسرعة
عليك تنظيفه وسلخه وتقطيعه وفركه
ثم قبل أن يفسد لحمه
ملحه وعدله بتوابل حارة
ثم بالزعفران يطلى هذا الشواء الجيد
وعندما يتذوق ملكنا الطيب هذا الشواء
سيشفى من الحمى المرتفعة التي اعترته
وستضمن لنا عودة قواه
وبعدما يكسر صومه هكذا
ويأكل من هذه الوجبة الغريبة
ومن المرق يرشف طاسا
سيشفيه نوم عميق ويجعله صحيحا سليما
وهكذا ستسود رحمة الرب
وسيصبح ملكنا قويا معافى
هكذا أقول في بضع كلمات حزينة
ذبح غلام مسلم وشوى وأحضر لحمه الى الملك

من بعيد في الطول والعرض التمسنا هذا الخنزير
أرجو أن ترشف المرق وتأكل هذا اللحم
وببركة الرب ، نتوسل اليك
ووضع الشواء أمام الملك
وأكل من هذه المائدة المثيرة للاشمئزاز
فالتهم اللحم وقضم العظم
وشرب مرق هذا اللحم غير المعروف
وعندما أخذ هكذا كفايته
تركه خدمه حسب رغبته
فتمدد في أغطيته الدافئة

وغطى حاجبه صورته النائمة
وتفصد عرقه وهو يرقد نائما
ثم أفاق سليما ومرحا
وعندما قام ارتدى لباس الحرب
وتمشى في خطوات سريعة مع مستشاره
وظهر لكل فرسانه هكذا
سليما صحيحا ومعافى من هذه المحنة
وشكر يسوع العزيز والقديسة مريم
لأنه شفي من مرضه
وفي هـــــــذه الأثناء كان المســـــــــــلمون يعملون بقوة
لطم الخندق المسيحي تلك الليلة
ولازالة دفاعات مدخل المعسكر
وهكذا بذوا مرتقى يوصلهم الى اعدائهم
وعندما علم رتشارد بهذا الهجوم
نادى في معسكره
سلحوني جيدا بدرع سميك من اجل محبة يسوع منقذنا العزيز كي احارب هذا العدو بكل قوتي
كما يجب ان نفعل جميعا في وضح النهار
حيث انني وانا الان في كامل صحتي
سوف اقمع اليوم هؤلاء المسلمين
والان وقد تجددت قوتي
فاننا في وسط هذا الحر بجلد
سوف نقاتل لنكسب هذه الارض المسلمة
وسآخذ معي بلطتي الجيدة القوية
حيث انني سأقاتل غير المسيحيين
وفي وسطهم سأضرب صعودا ونزولا
وابعث بهم الى جانب ربهم
حيث اضربهم ايذما سقت

وكان مسلحا جيدا لقتال هذا العدو
وذهب الفرسان واتباعهم ايضا
وكان جيش المسيحيين قويا جسورا
والمنظر الذي رؤي هناك كان رهيبا
وكان حقيقيا دون شك ،
ان ستهزم حشود المسلمين وتسحق
في المقدمة كان داوية رتشارد
والانجويين ابناء جلدته واسبتاريته
وكان الملك امام ميمنة المسلمين
حيث شعر العديد من الاعداء هناك بقوته
وضرب فارسا واحدا فوق درعه
فسقط رأس هذا المسلم في الميدان ،
وحصل آخر على مثل تلك الضربات الجرئية
ولم تفده كل هذه الدروع شيئا
وضرب ثالثا على قربوس سرج حصانه
فسقط على الارض في ويل
وكانت الحشود المسيحية المؤمنة مبتهجة
عندما شاهدت اعمال رتشارد
ولم يصمد اي درع أمام هذه البلطة:
فقد شقت عبر الجميع كسكين خلال الشمع
ورآهم السلطان يحاربون بهذه القوة
وظن ان شيطانا كان يقيم بينهم
وحيث قتل الملك العديد منهم هناك
انسحب العدو بحشوده
بسرعة مع مجموعة قادته
الى مدينة يسميها الناس غزة
ولكن في الحقيقة كل قوات الساقه عنده
قتلوا من قبل ملكنا الطيب رتشارد
وعندها المسلمون فوق سور عكا
شعروا بالخوف واخذوا يستغيثون بالله

بينما كانوا يراقبـــون الســـــلطان وهـــــو يســـوق
مبتعدا
ورتشارد يقتل رفاقهم المسلمين ويذبح
هكذا كل النهار وفي الليل
خاضوا هم والمسيحيون المعركة
وعندما مالت الشمس للغروب
انسحب كل الفرسان ليستريحوا
القوة المسيحية غنيها وفقيرها
انسحبت الى الوراء وراء خندقها الدفاعي
لتستريح خلال الليل الهادىء
وامر الملك ريتشارد كل فرسانه
ان يحرسوا خندقهم الواسع العميق
بينما يحصل الاخرون على قدر من النوم
وشعر المسلمون خارج الخندق
بالخوف من ان يستولي رتشارد على خنادقهم
لانه كسب معركة ذلك اليوم
وهكذا ارادوا ان يهربوا من هناك
ورغبوا في تلك الليلة ان يركبوا مبتعدين
لانهم لم يعرفوا مكانا آمنا للاختباء
ضمن مسافة عرضها عشرة اميال
وعندما ارتاح ريتشارد هناك برهة ،
سرعان ماحل فارس درعه
كي يريحه ويعطيه مجالا للسكون
واحضرت له قطعة من الخبز المغموس بالنبيذ
فقال :« رأس ذلك الخنزير نفسه
الذي اكلته احضره لي الان ،
لانه اعانني على استرداد عافيتي
واخشى أن مرضي يمكن ان يعود
والان ، قدم لي الرأس الذي اتوق اليه »! «
فاجاب الطاهي ، لقد ذهب الرأس !

- ٤٣١٣ -

فاجابه الملك :« مالم ار رأس ذلك الخنزير
إني صدقا اقول ستفقد انت رأسك! »
عندها رأى الطاهي الشاحب انه يتوجب
عليه ان يحضر الرأس له ليراه
وتوسل وهو راكع على ركبتيه
هذا هو الرأس فأرجو الرحمة !
وتم احضار رأس مسلم داكن اللون
بلحية ابنوسية ووجه مشوه
وشفاه متصلبة مازالت فاغرة باتساع
اي شيطان هذا » ؟ صاح الملك رتشارد
ولكنه ضحك بعدئذ وقد فهم
« هل لحم المسلم متماسك وطيب هكذا ؟
بموت ربي العزيز وصعوده
لن تذهب حياتنا بسبب الجوع
بينما يمكننا هكذا في هجومنا
ان نقتل المسلمين عندما تتناقص مؤننا
يمكننا الان ان نأخذ لحمهم طيب المذاق
لنسلق او نشوي او نقلي او نخبز
ونقضم اللحم نزولا الى العظم ،
وهكذا نستبعد التأخير من اجل الطعام
لان رجالي اذا احسوا بألم الجوع
سوف نأكل كلنا ونحارب مرة اخرى »

في الابيات ٣٢٢٧ ــ ٣٣٩٦ : عرض صلاح الدين عندئذ تسليم عكا ، وبيت المقدس وكل سورية حتى نهر الاردن لرتشارد ، وان يدفع للصليبيين عشرة الاف دينار ذهبي ، وان يتوج كونراد مونتفرات ملكا على سورية .

ورفض رتشارد هذا العرض لان كونراد ارتكب اعمالا خيانية ضده قبل ان تبدأ الحملة الصليبية . فقدم صلاح الدين عرضا

مضادا : هو انه سيعيد صليب الصلبوت للمسيحيين ، وسوف يدفع الصليبيين مائة الف دينار ذهبي ، ويعطيهم كل الاسلحة والذخائر التي في عكا ، وسيسلم لهم الستين الف اسير من عكا كرهائن حتى يتسنى تنفيذ الشروط الاخرى في العرض ، ووافق الملك رتشارد على ذلك ، وبعد ذلك مباشرة ، على أي حال أرسل صلاح الدين سفراء الى رتشارد ومعهم تعليمات التخلص من ابتزازه .

وتكلم الملك ريتشارد بكلمات لطيفة
« هذا العرض الذهبي ساسحبه
واشجب ظنونكم وتفكيركم الشرير
لاني في البارحة وفي السفينة قد جلبت
من العملات الذهبية والفضية معي
اكثر مما لدى سيدكم أو أي ثلاثة ؛
لهذا لاحاجة لي بكنوزكم .
ومع ذلك فمن أجل محبة الرب أناشدكم
ان تجتمعوا بي حيث أقيم الآن
وهناك سأخبركم وليسمع الجميع
أي كلمات ستحملونها لسيدكم
وهي كلمات أعانني مجلسي الاستشاري في اعدادها !
وعندما وافق الجميع على هذا باعتداد،
انتحى الملك ريتشارد بمساعده جانبا
واخبره بما سيفعله بالحال
« هذا هو ماسوف تفعلونه الان :
يجب ان تنزلوا عميقا الى الزنزانة
وتختاروا الاسرى ذوي الشهرة —
اولئك الذين جاءوا من أغنى الاقرباء
وتعالجوهم من إثم كفرهم
بقطع رأس كل منهم الكريه
ولكن قبل أن يموت كل منهم

- ٤٣١٥ -

خذوا اسمه واكتبوه بخط واضح ودقيق على ورق ثمين
ثم أحملوا بعدئذ هذا اللحم الى الطاهي
واجعلوه يلقى في مرجل
واعزموا على الطاهي أن يسلقه بسرعة
ومروه بأن ينزع كل الشعر
من الرأس واللحية والشفة أيضا
وهكذا عندما تعد الوليمة الاحتفالية
تأكدوا من أن خدمكم لم ينسوا
وأعملوا على أن لا يترددوا
في أن يقدموا كل رأس فوق صحن ذهبي
وادخلوا كل واحد وهو ما يزال ساخنا
واجعلوا كل وجه يلبس ابتسامة بشعة
وتأكدوا من أن كل رأس متجه نحو الأعلى
وضعوا اسم كل واحد فوق جبينه
ويجب أن يذكر على كل بطاقة اسم العائلة
وتأكدوا من تقديم واحد ملتهب لي
هذه الوجبة يمكن هكذا ان تكافئني جيدا
وأنا عندما آكل كفايتي من غير مسيحي
كما لو أنه فروج طري
وراقبوا المسلمين عندئذ وقد أصابهم الغثيان
القهرمان كما يقال في حكايات المغامرات
بسرعة فعل ما طلبه الملك
وعند الظهر بدأت الأبواق تدوي
ولكن السفراء هناك لم يكونوا عندئذ يعرفون
قانون ريتشارد أو عاداته القديمة
وقال الملك لهم:أيها المسلمون البواسل
أرحب بكم في هذا السرادق
وإذ جلسوا مع بطانتهم
وضع على مائدتهم الملح والخبز
لكن لانبيذ أبيض أو أحمر

- ٤٣١٦ -

وجلس المسلمون وبدأوا يحملقون
وفكروا ، وا أسفاه كيف نأكل ؟
وراقب رتشارد من منصة مرتفعة
وقد جلس الدوقات والايرلات بقربه
الخدم وهم يقدمون الوجبة
مع أصوات المزامير والابواق الخشنة
وتولى القهرمان الاشراف بحذر
ليخدم ملكه وهو على كرسيه
ولئلا يصاب رجاله بعد الوليمة بضرر
إذا لم تقدم هذه الوليمة الاحتفالية الكئيبة حارة
وكان الرأس المعد لريتشارد كاملا وساخنا
واسمه فوق الجبين في لفافة رائعة
وقدم الطعام للسفراء أيضا
فوضع رأس بين كل اثنين
مع الاسم مكتوبا فوق الجبين العاري
عندها شعر كل رجل هناك بالغضب
وشعروا بالخوف من هذه المكافأة الكريهة
وانهمرت الدموع من عيونهم المنتفخة
وعندما قرأوا الأسماء كلها
خشي الجميع ان يقتلوا هكذا
وراقب ريتشارد بعينين زرقاوين باردتين
كيف بدل كل هؤلاء الرجال لونهم ومظهرهم
ومن أجل أصدقائهم انتحبوا واقسموا
أن الذين فقدوهم لن يعودوا أبدا
لانهم كانوا من أقرب اليهم
وهكذا في الكرب أمكنهم التماسك
لأنهم يجب أن يخشوا كل النصرانية
وبقدر ما أسفوا لانهم حضروا
لم يأكلوا من وليمة ريتشارد لقمة واحدة
وجلس هو يستمتع بالمنظر

-٤٣١٧-

والتابع الذي خدم الملك
حفر بسكين حادة عندئذ الرأس
وأكل رتشارد باستمتاع نادر
وجلس المسلمون وحملقوا فقط
ثم وكز كل فارس الآخر
وقال : « إنه أخو الشيطان
الذي يقتـــــل رجـــــالنا ويقـــــطعهم شرائح ســـــميكة »
ولم ينس ريتشارد هذه الغمزه
وهو يلقي بنظراته حوله ،
بوجه غاضب وغطرسة
نحو السفراء توجه بالخطاب :
لقد لبيتم دعوتي
لهذا أطلب منكم أن تكونوا مرتاحين
وأسأل لماذا لم يسركم تقطيع اللحم
ولم تأكلوا كفايتكم كما أفعل ؟
أرجوكم أخبروني لماذا ترتجفون هكذا »؟
وجلسوا جميعا في صمت وحبسوا أيديهم
وحيث لم يجرؤ أحد على الكلام أو الوقوف ،
كانوا يتمنون أن يزحفوا الى جوف الأرض
لأن موتا أنظف كانوا يقبلون
وعندما لم يجبه أحد بكلمة
قال الملك : « ارفعوا عن المائدة
هذا اللحم الذي وضعته أنا أمامهم
وأحضروا لهم لحما آخر تشتهيه أذواقهم »!
فاحضر الخدم شواء غضا
وأيضا نبيذا يمكن به شرب الأنخاب
نبيذا أحمر معالجا بالتوابل ، وشرابا آخر
وعندما قال لهم رتشارد أن لا يفكروا
لم يأكل أحد كفايته أو جيدا

وعرف رتشارد الى أين ذهبت أفكارهم
فقال : « أرجوكم أن لا تخافوا
هذا هو الأمر الذي أعطيته
أن تخدموا أولا ، كما قدر الرب
برؤوس مسلمين ساخنة تطلق البخار
ولكني عن عاداتكم لا أعرف الكثير
كملك مسيحي وحقا كذلك
وبناء عليه اطلبوا مني وتحققوا
أنكم بأمان سوف تذهبون مرة أخرى
واذا رفضت لأي شيء
من اسمي الطيب سوف تنطلق الكلمات السيئة
أن عندي مثل هذه الأخلاق الكريهة
كاساءة معاملة السفراء »
وعندما أكل الجميع وأخبروا
قام الملك ريتشار ليحذرهم وينبههم
حيث طلب مسلم اذنه بالذهاب
وكانوا جميعا مملوئين رعبا ومرارة
لأنهم كمبعوثين قد جاءوا
ولأن الجميع تمنوا لو أنهم بقوا في بيوتهم
مع زوجاتهم وأصدقائهم وجميع أقاربهم
بدلا من أن يكونوا في بلاط الملك رتشارد!
وتحدث الملك رتشارد عندئذ مع أحد الرجال
عد الى بيتك وأخبر سلطانك المعتد
أنه عليه أن يخفف من سوداويته
لأنه يعتقد أنكم تأخرتم جدا
وببطء شديد خمنتم شروط هدنتكم
فقبل أن تحضروا أعد اللحم
لكل الرجال الشجعان الذين يخدمون معي
وكلهم صليبيون ومن حشودي
وأخبره أنه لن يجديه أو ينفعه

- ٤٣١٩ -

حتى لو دمر طعامنا ومؤننا
من اللحم والسمك والخبز والفطائر
أننا لن نموت جوعا أبدا
بينما نحن قادرون على الركوب والقتال
وقتل فارس مسلم غض العود
ثم نغسل اللحم ونشوي الرأس
بمسلم واحد كهذا يمكن أن نتغذى
أو بثمانية أو تسعة أو حتى عشرة
برجالي المقاتلين المسيحيين الأقوياء
تابع الملك « أقسم على هذا الشيء :
إنه ليس هناك لحم مغذ هكذا
لرجل انكليزي مسيحي
لاالحجـــــل ولاالزقـــــزاق ولامــــالك الحـــــزين
ولاالبجعة
ولاالبقرة أو الثور ولاغنم الحظائر
كلحوم المسلمين
انهم سمان ولحمهم جميل وطري
بينما كل رجالي هزيلون نحيلون
وفي حين أي مسلم يمكن أن يكون حيا
يقاتل في هذه البلاد البعيدة
حول طعام المسيحيين لن أهتم
فلننهي صيامنا ونرتحل نحو **الخارج**
لنقتل بقدر **مانحتاج**
حيث نطعم رجالنا كل يوم
وهكذا لن نهرول الى انكلترا
حتى نكون قد أكلنا الجميع

الأبيات ٣٥٦٣ ـ ٥٤٦٦ : عاد السـفراء الى صـــلاح الدين بتفاصيل رفض **ريتشارد** لعـــرض الســـلطان والوليمـــة

الرهيبة ، وناشدوا صلاح الدين أن يسلم الملك الانكليزي الشرس أي شيء يريده ، لأنهم خافوا على سلامة نسائهم وأطفالهم ، وأرسل صلاح الدين عرضا آخر لرتشارد : اذا تخلى الملك المسيحي عن عيسى وتبع محمدا كسيد له ، فسيجعله السلطان ملكا على سورية ، ومصر وبابل وجزيرة العرب ، وأفريقية وأرض الاسكندر واليونان ، وصور والسلطان لكل الهند حتى مملكة يوحنا الموعود في أقصى المشرق .

وأجاب رتشارد على هذا العرض غاضبا ، إنه إذا عاش فقط بضع سنوات أخرى فانه سيستولي على هذه الأراضي جميعا على أي حال ، وليبدي رتشارد ازدراءه لاقتراح السلطان ، أمر بأن يقاد الستون الف أسير من عكا الى السهل المجاور للمدينة وتقطع رؤوسهم هناك « لا أعلم صلاح الدين كيف يقترح علي أن أعبد محمدا ! » وأخبر ملاك على أي حال رتشارد بأن يعفو عن عشرين من الأسرى المهمين ليتخذوا كرهائن ، يحتجزون من أجل الفدية ، وأطاع رتشارد الامر .

وفي وليمة بعد المجزرة بوقت قصير اقتسم رتشارد غنائم الحرب الصليبية مع رجاله ، وطلب من الملك فيليب أن يفعل المثل ، ورفض فيليب متعاليا ، ثم اقترح رتشارد أن يزحفوا خارجين ليكملوا حربهم الصليبية بمحاصرة وتدمير المدن والقلاع على الطريق نحو بيت المقدس ، مقسمين قواتهم الى مجموعتين ، وركب الملكان ومضيا قدما ، ورد فيليب من قبل المدن التي حاصرها جيشه ، وقام رتشارد مع ذلك بعد تقسيم جيشه الى ثلاث مجموعات تحت قيادته هو وفولك دويلي وتوماس مولتون بالاستيلاء على كل المدن التي هاجمتها قواته،وأعطى سكان المدن الخيار في أن يصبحوا مسيحيين أو أن يقتلوا بالسيف ، واختار بعضهم يسوع ، واختار بعضهم البديل المروع .

وتراجع الصليبيون ، وقد وجدوا أنفسهم متعبين جدا من الحرب

الى حيفا ليستريحوا وليجددوا مؤنهم ، وهاجم صلاح الدين عساكر المؤخرة وهم ينتشرون بغير نظام تجاه حيفا ، واندفع رتشارد لمساعدتهم وبالاستعادة المعجزة لأرواح الصليبيين المعنوية وبالقوة المستمدة من ظهور القديس جورج هزمت قوات رتشارد صلاح الدين مرة أخرى وبعد توقف مؤقت لفترة وجيزة زحف الصليبيون الى مدينة عسقلان

وتحداهم صلاح الدين للدخول في مواجهة مفتوحة على السهل **خارج** أرسوف وقبل رتشارد التحدي ، وهزمت قواته بعنف حشود صلاح الدين ، ثم بينما أكمل الصليبيون زحفهم جمع صلاح الدين قوة ضخمة أخرى لمهاجمة الصليبيين **خارج** ارسوف واقترب رتشارد من الجيش الاسلامي مموها تحت أعلام اسلامية مستولى عليها وضغطت قواته من أربعة جوانب ، وهزمت السلطان مرة أخرى .

وبعد هذه الهزيمة الثانية بوقت قصير ، تحدى صلاح الدين ثلاثة أبطال مسيحيين أن يلتقوا بثلاثة أبطال مسلمين في الميدان **خارج** النطرون وقابل رتشارد والسير توماس تورنهام والسير فولك دويلي وقتلوا الأمير أرسلان والأمير خضر والأمير غالب ، وعندما رأى سكان النطرون أبطالهم يسقطون منهزمين تعمدوا فورا كمسيحيين

وبعد توجيه هذه الضربة لهيبة الاسلام ، ذهب صلاح الدين الى الرملة لاعادة بناء جيش آخر ، وعندما هرع رتشارد الى هناك ليستأنف قتاله فان سرعة هجومه أخذت صلاح الدين على حين غرة ومنعته من استعمال اعظم اسلحته ، سلاح الفرسان ووصل فيليب ليساعد في حصار باب اليون (القاهرة) ولكن عندما رد من قبل صلاح الدين ، اخفق الحصار

ارسل الملك فيليب الى ريتشارد رسالة ملحة (٥٤٦٧)

أنه لم يتمكن من البقاء ، حيث كتب
بسبب الجوع هو ورجاله ايضا
يجب أن **يوقفوا** الحصـــــار ويســـــيروا في اتجـــــاه
بلادهم
وكان ريتشارد غير سعيد بذلك
وقال عنه قبلة خائن
أعطاها ليكسب المجد هنا
لقد لوث اسم يسوع العزيز
عندما أعطى المسلمين مهلة
والرب سوف يجازي الخيانة »!
ثم انسحب عندئذ فيليب من هذا الحصار
الذي لاقاه المسلمون بكثير من السرور
فقد عم السرور العظيم بينهم جميعا
فانشدوا الأناشيد وغذوا أغنية سعيدة
وفي اليوم التالي من هذا المعسكر المجاور
جاء الرسل من السلطان العالي
وحيوا ريتشارد ثم قالوا :« سيدي
لأنه معجب بقوتك
أرسل سيدي السلطان اليك
اذا أنت قبلت هذا العرض
انك قوي بلحمك وعظمك
وهو باسل شجاع حاليا
وأوضح أنك الحقت به ضررا عظيما جدا
ودمرت عظماء بلاده
وقتلت وأكلت حشوده الباسلة
ان حربك معه خطأ محزن
لقد التمست ارثا في هذه الأرض
وقد فهم ذلك جيدا
انه ليس لك مع ذلك حق صحيح !
انك تقول ان ربك بالغ القوة

هل توافق ومعك الدرع والحربة
لنقرر الحق على أرض المعركة
بالخوذة والزرد وبالسيف القوي البراق
فوق خيول قوية جيدا ذات عزم وقوة
اي معبود لنا هو الأعظم قوة
يسوعكم أم الهنا
وقد أرسلني لأسألك هذا
هل تقبل منه جوادا من خيوله ؟
في كل الأراضي التي كنت فيها
لم تر جوادا مثل هذا أبدا
لانافل ولاليارد من قبرص الحزينة
لهم البتة مثل فعلة
واذا أردت ففي هذا اليوم بالذات
سوف يجلب اليك لتجربه
وأجاب رتشارد « لقد قلت قولا جيدا !!
هذا الجواد بمشيئة القديس ميكائيل
سآخذه لأركبه
لأن حصاني مرهق وبائس
ومن أجل محبة سيدي
الذي يجلس عاليا في السموات العليا
آخذ الآن هذا الحصان الجيد جدا
وبرمحي سأسفك دم السلطان
اذا كان سيمنحني هذا الفعل ويحفظه
وبالطريقة التي ذكرتها

ولو انني لابد ان اسلم روحي للرب
سوف اقابله في الميدان
واطلب منه ان يرسل لي هذا الحصان
وسوف اختبر من اي نوع هو
فاذا كان موضع ثقة اقول لك

فلن اركب غيره في اي نزال !
وانصرف المبعوث من خيمة ريتشارد
عندئذ ليحمل ماقصده بقوله
انه سيواجه السلطان نفسه
اذا استطاع صلاح الدين ان يتحمل الوطأة
ثم بعث السلطان في طلب كاتب
معلم شرير في تحضير الارواح
يمكنه ان يستحضر كما يجب ان اقول
من خلال فنه الشيطاني الذي من الجحيم
عفريتين غريبين شريرين من الهواء
في شكل جوادين مموهين ،
وكانا متماثلين في الشعر واللون
كما قال الناس الذين كانوا هناك في حينه
لم يشاهد من قبل لهما شبيه :
وكان احدهما مهرا قوي البنية ومضمرا
والثاني فتيا ، وجوادا نبيلا
واينما كان هذا الجواد الفتي ، عند الحاجة اليه
لم يفخر بمثله ملك او فارس
وانه عندما مايصهل المهر الكريه بصوت عال
ولايمكن لاي راكب ان يتحكم في ادارته
او يحكمه بكل مهارته ،
سيركع لأمه .. ويرضع
والسلطان سيوزع ضرباته العنيفة
وهكذا سوف يخضع الملك ريتشارد
كل هذا جاء ملاك ليقوله
عندما اتى لريتشارد حوالي نصف الليل
وصاح استيقظ فارس الرب القوي !
يريدك سيدي ان تفهم
ان حصانا سيصل قريبا ليدك .
جميل في شكله وقوته

ليخذلك في قتال السلطان
فلا تخف من ركوبه
لانه سوف يساعدك ولكن بدلا من ذلك
احصل على عمود خشبي كبير وقوي
وتأكد انه بطول اربعين قدما
وادفعه جيدا بعرض معرفته :
فكل مايصادفه سيحس بالم كثير ؛
وبهذا العمود الخشبي ستجعله يصرع
اركبه جيدا باسم الرب العزيز
حتى لايتمكن من ان يلحق بك اي عار
وقال الملك خذ لجاما
وضعه بسرعة على رأسه ؛
واحكم اللجام في فمه
وهكذا يمكنك ان تديره شمالا او جنوبا
وسوف يخدمك حسب ارادتك
عندما يركب السلطان ليقتل ؛
وعلى رمحك استعمل هذا السنان
لانه في درعه سوف ينطمر
وهكذا يخرق درعه القوي
وعندما قال الملاك ذلك
اتخذ طريقه نحو السماء مرة اخرى
وارسل الحصان الفتى عند طلوع النهار ؛
وكان الملك ريتشارد مسرورا بالحصول على الجواد
وامر بوضع سرجه عليه من اجل حاجته
وصنع قربوس سرجه من الصلب
لانه يجب ان يكون قويا وموضوعا باحكام
وبسلسلة قيد بسرعة عمود الخشب الثخين
بينما دفع باللجام على رأس الحصان الفتى
مثلما علمه الملاك
وبخطافين حديدين جيدين ولم ينس شيئا

- ٤٣٢٦ -

واستقر فوق السرج دون مخاوف عميقة
وبالشمع سد أذني الحصان الكريه
وقال:« بالرسل الاثنى عشر
كن انت رئيس الشياطين نفسه
الان سوف تخدمني عند حاجتي !
والذي نزف فوق الصليب
وعانى بشكل مروع مع كل نفس
ثم قام للحياة من الموت
واشترى الجنس البشري من الجحيم الناري
واخضع قوى الشيطان الكريهة
ثم صعد بعدئذ الى السماء الساطعة
والرب الان بكل قواه القويمة
تلك ذات الرب نفسها في الاشخاص الثلاثة
باسمه العزيز اطلب منك
ان تتولى خدمتي حسب مشيئتي
وهز رأسه ووقف جامدا
وهيأ الملك ريتشارد نفسه تلك الليلة
عند الفجر عندما اهل نور النهار
جاء ست سلاطين بجيوشهم القوية
من المدينة ساقوا مباشرة
وتوقفوا عند شاطىء نهر
واصطفوا في رتل ... بدروعهم العريضة
وكان الميدان في ذلك اليوم واقول الحق ،
مؤلفا من سلاطين وملوك في نظام جرىء ،
وكان يمكن رؤية مائة واكثر ؛
وجيء حتى بابنائهم مرتبة الى الساحة
عشرون الفا من المسلمين
في مقابل كل واحد من رجالنا المسيحيين
جاءوا يحملون حشدا من الرماح الضخمة الطويلة
كانت هناك تشبه غابة كثيفة ٠

- ٤٣٢٧ -
وكان لدى المسلمين حشد ضخم ؛
امتد عشرة اميال على طول الساحل
وانتشروا للراحة فوق السهول الواسعة الدافئة
بينما بدأ الرسل يركبون
الى الملك فيليب والملك ريتشارد
ليسألوهما اذا مابرحا متمسكين بكلامهما
الذي سلف وقالاه في اليوم المنصرم
وكان المسلمون مستعدين للحرب :
وكان هناك منهم ثلاثمائة الف
والملك ريتشارد يراهم في كل مكان
كما يغطى الثلج المتساقط جانب الجبل
ورآهم الملك ممتدين طويلا وعريضا
بسابغات الزرد اللامع والخوذ البراقة
وبالابواق والطبول
وكان لصخب المسلمين جلبة رهيبة
كما لو ان الدنيا قامت قيامتها في الداخل والخارج
هكذا كان وقع الصوت قويا جبارا
وقد اذهل هذا الضجيج المسيحيين واربكهم
ولكن ملكنا لم يخش شيئا
حيث قال لرجاله حاملي السلاح
ايها الرجال المسيحيون الطيبون لاتخافوا
بل ضعوا ثقتكم في ربنا العزيز
فاذا ربحنا الميدان هذا اليوم
من الوثنيين من المسلمين وهكذا تولينا ذبحهم
فاننا الى الابد سنكسبها
من اجل من خلق الشمس والقمر
كونوا عونا لنا واعطونا القوة !
وانظروا كيف سأقاتل هذا الملك الكريه
بالسيف والرمح وبلطة من الصلب
ومالم اعطي ضربات جيدة اليوم

عليكم من الان فصاعدا والى الابد
ان تعتبروني جبانا ضعيفا !
بل كل رجل مسيحي او وضعيف
عليه ان يستعمل كل قوته من اجل تراثه
اضربوا رأس المسلم
ومن خلال معونة الرب العزيز وبمساعدتي ايضا
سوف افعل مثل هذه الاشياء بينهم
بالذين يمكن ان اباغتهم
من الان وحتى يوم الحساب
يجب ان يتكلم الجميع عن لعبتي الشجاعة »!
وتسلح المسيحيون بحماس
بكل من الحديد والصلب
ولبس الفرنسيون ايضا الدروع
واستعدوا لمهاجمة المسلمين
خلف المسلمين ركبوا
مستعدين لهذا الحدث
لقد قطعوا طريق الهروب على المسلمين
وهكذا حتى لايمكن للمسلمين ان يتفادوا الملاحقة
ولالاي مساعدة خارجية ان تصل اليهم
وهكذا يجب ان يذبحوا جميعا وهم احياء
وبدأ الفرنسيون في التباهي والتفاخر
كل منهم سيقتل العدد الاكبر
ولكن في الحكاية كما يقال
لم يكن هناك فرنسيون بنصف هذه الشجاعة
حتى يخترقوا قوة المسلمين
حتى ظهر الملك ريتشارد فوق حصانه
هناك ركب ريتشارد مع كل حشوده ،
وقطع عليهم الطريق على طول الساحل
وحال بينهم وبين مدينتهم الآمنة
حتى لايمكن لاي مسلم كريه ان يهرب

ثم امر ريتشارد ثلاثة من المرافقين
بان يبقى احدهم حرا في المدينة
واخذ الاثنين الاخرين معه
وعزم عليهم ان يحضرا له حصانه
الحصان الذي ارسله صلاح الدين
وقال :« هكذا بهديته هو
سوف احاربه ليلا نهارا
وقفز فوق حصانه وجلس منتصبا
في السرج بقفزة قوية
وقد تسلح بكثير من الاشياء التي تجرح
ولم يفتقدوا الى اي شيء كان عنده
لان رجاله جلبوا له كل ماطلب
وعامود من الخشب للسرج طوله اربعين قدما
امام سرجه وضعه
وتدبر ربطه بصورة محكمة هناك
وبذلك لن يخفق في هذه الاعمال
وهكذا ربطه خدمه باحكام
وثبتوه بخطاطيف من الصلب لامعه
ولم يثبت هذا الخشب بشيء اخر
وتماسكت السلاسل الحديدية بشكل محكم جيدا
لانها جميعا قد سكبت بصورة جيدة تماما
سواء الاطواق او درع صدر الحصان
وعدة حربية خاصة بالملك ريتشارد
هكذا فوق حصانه عرضت
وتدلى من طوق سرجه كل من
بلطته التي من الصلب وعموده
وكان الملك ريتشارد هناك لابسا بثراء
من قدميه حتى عرف خوذته (١)
كان مغطى من رأسه الى كعبيه
بدروع من صفائح قوية من الصلب

خارج سابغة الزرد القوية
وكان رمحه الموثوق غليظا وطويلا
وفوق كتفه درع عريض قوي
مع ثلاثة فهود ضارية على سطحه
وكانت خوذته محلاة بالذهب
وكان مقدم الخوذة القوي الموثوق واضحا
وعلى عرفها حمامة ناصعة البياض
لتري الروح القدس في القتال
ووقفت هذه الحمامة البيضاء فوق صليب
صليب من الذهب الجيد والثمين
الرب نفسه ، والقديسة مريم والقديس يوحنا
وذلك الذي سمر فوق الصليب :
لتمجيد هؤلاء قاتل الملك ريتشارد
سنان الرمح الذي احضره الملاك
ثبته باحكام فوق قبضته
وكان اسم الرب محفورا على السنان
والان وهم منحنون نحو الارض اقسموا
قبل ان يشقوا طريقهم الى المعركة
اذا حدث وتمكن الملك رتشارد
من ان يقتل السلطان في ميدان القتال
لتوجب عليه هو ورجاله ان يذهبوا
بارادتهم جميعا من اعلى واسفل المراتب
الى مدينة الرملة
ومملكة مقدونيا
يجب ان يمسكها بيده القوية
ولكن اذا قتل سلطان هذه الارض
الملك ريتشارد في الميدان
بالسيف او بالرمح تحت درعه
على كل المسيحيين ان يرحلوا
من هذه الارض الواسعة بالخيل وبالعربات

- ٤٣٣١ -
وسيحكم المسلمون كامل هذه الارض
وقال الملك ريتشارد : « موافق
وهاكم قفازي ، حيث اني فارس !
وكانوا جميعا مسلحين بكل قوتهم
وقفز الملك ريتشارد على سرجه
ولم ينم اي مقاتل تعب
بل راقب كل واحد هذا القتال
و تسابق الجوادان بكل قوتهما
وركب كلاهما هذين الجوادين ليلتقيا
وانطلقت شرارات نارية من ارجلهما
وقرعت الطبول ونفخت الابواق
بينما كان الجميع يرقبون ماسيتلو
وكيف ان الملك ريتشارد الملك النبيل
سيواجه هناك السلطان الاسود
وبينما كان على مهره يركض هكذا في المجال
وضع ثقته في الحصان الشيطان
وكان للمهر كما يذكر كتاب المصدر
مخلاة ثخينة مدلاة ذات اجراس
ومن درع صدر الحصان أيضا كانت
تتدلى الاجراس حوله
ويمكن للمرء سماع اصواتها على بعد ثلاثة اميال
وصهل المهر عندئذ وجلجلت اجراسه
وهكذا بنية سيئة غنى المهر
اعتقد ان به سيحقق فوزه
ويقتل الملك بضربة قوية
عندما يركع فرس ريتشارد ليرضع
ولكن رتشارد هنا لم يكن مضريا
لانه سد الاننين بالشمع
حتى لايستطيع جواده ان يسمع
ولم يشعر ريتشارد القوي باي خوف

وضرب السلطان الشرير بقوة
واعطاه ضربة تحت الواقية
فوق درع السلطان ، اقول الحق
كانت افعى مـــرسومة ، جـــاءت مـــن الجحيم مبـــاشرة
ووجه ريتشارد رمحه نحو ذلك السطح العريض
ليطعنه بعمق تحت درعه
ولم تساعد السلطان اسلحته
حيث تحطم درع الفرس ولجامه في الحال
كذلك فعل الركاب وحزام السرج على سعتهما
وبدأ مهره ينحدر نحو الموت
وعلى الرغم من هذا بدأ هو ينحني
الخلف فوق عجز مهره الكريه
ووصلت قدماه الى الارض الصلبة
وخلفه كان يمكن ان يوجد سنان الرمح
وترك الحصان يرقد فوق الخضار
بينما كان ريتشارد يضرب بضربات حاذقة
باسم الروح القدس
واندفع نحو وسط الحشد المسلم
وبينما كان يركب عبر الارض
مزق حزام السلطان
كل الذين وقفوا امامه
خيل ورجال ضرب بعمود الخشب
على مسافة عشرين قدما في كل جانب
وكل من لقيه في هذا الركوب العنيف
جلب له الكثير من الويل
وركب حيثما امكن لحصانه ان يذهب
مثل النحل يحوم حول الخلية
وناضلت حشوده المسيحية من خلافه
وانكسرت الخوذ وتفجرت الادمغة

- ٤٣٣٣ -

ومات العديد في هذا الطراد الحزين
وعندما رأى رجال فرنسا عندئذ
ان التفوق مال لصالح الرجال المسيحيين
ازدادوا جراة وشجاعة
ووكزوا خيولهم وهزوا رماحهم
وبروح مسيحية ، الملك فيليب
حمل نحو امير مسلم ورمحه بيده
وبدأ ايرلات اخرون وبارونات شجعان
وهم رجال اقوياء يلوحون بسيوفهم
ويقتلون المسلمين بلا تحفظ
وحارب كثير من فرسان الانكليز النبلاء
باخلاص هناك في ذلك اليوم الدامى
ومن سالسبورى سقط لو نفسباي
على الارض مع سيفه
وتجرأ الجميع الذي أمامه على الوقوف
وكان دائما الى جوار الملك رتشارد
كما كان توماس الجريء الشجاع
وروبرت ليشستر وفولك دويلي
ولايمكن للمسيحيين أن يروا فرسانا افضل منهم
عندما كان أي مسلم يركب قرب سيدهم
لم يوفروه ولم يوفروا تابعه الشاب
ولكنهم اسقطوا هناك كل مسلم
المسلمون داخل المدينة
كانوا في أسى عظيم هكذا كان هؤلاء من غير المسيحيين
وبينما تساقطت الدموع الغزيرة من عيونهم
تصايحوا طالبين الرحمة
وأمروا بفتح البوابات على اتساعها
ليدعوا الصليبيين يدخلون اليها
وربح المسيحيون هذه المدينة
وبسرعة استقروا أيضا

- ٤٣٣٤ -

وارتفع لواؤهم المسيحي فوق السور
لواء رتشارد ملك انكلترا
وعندما بدأ صلاح الدين يفهم
أن المدينة هكذا سقطت
ناح السلطان في كرب قائلا :واأسفاه
ذهبت الآن جائزة الله !
وركبوا مبتعدين بوجوه شاحبة
كل الذين كان مايزال بامكانهم ان يركبوا هاربين
عند ذلك الملك رتشارد ذلك الفارس النبيل
عندما رأى السلطان يهرب
صاح به « ابق هنا وقاتل »
ولسوف اثبت لك ان عقيدتك خطأ
وكذلك كل الحشد المسلم »
وركب الملك رتشارد خلفهم مسرعا
من هذا كان السلطان مشدوها
وكان يعرف غابة أمامه هناك
فهرب بسرعة اليها
واقترب الملك رتشارد من الغابة المظلمة
لكن عرف انه لايستطيع أن يعمل هناك
لايستطيع أن يركب في تلك الأرض الخشنة
هكذا استدار بجواده
ولقي في حينه ملكا مسلما
فأخرج بلطته من حلقتها
وضربه بعنف فوق خوذته
وشقه حتى صدره
وضرب آخر فوق الدرع
وأسقط رأسه فوق الأرض
وهكذا قتل ستة ملوك مسلمين
أن أقول الحق في كل هذه الأشياء

- ٤٣٣٥ -

هكذا قرأت في كتاب الاعمال
أكثر بكثير من ستين ألف حصان
عدوا تائهين بسروج خالية
في دم براق ارتفع حتى مافوق حوافرهم
هاموا شاردين في كل جانب
حيث لم يكن هناك مسلمون ليركبوا هذه الخيول
واحتدمت المعركة حتى حل الليل ،
لكنهم عندما قتلوا هكذا بشكل مباشر
العدو الذي أمكنهم أن يدركوه
بدأ المسيحيون يظهرون كثيرا من البهجة
وركعوا وتغذوا بمحبتهم له
وعلى كلا الجانبين كان مقاتلون أقوياء قتلى
ولكن العديد من الرجال المسيحيين الرئيسين
الذين رقدوا أمواتا فوق أرض الميدان
سلموا هكذا لربهم العزيز أرواحهم
ثلاثمائة مسيحي عبروا باب الموت
ولكن أعداد المسلمين هناك كانت اكبر
ستون ألفا ماتوا في هذا القتال
وهكذا اظهر الرب أن المسيحيين على حق
وركب المسيحيون الى المدينة
ووجدوا كثيرا من الكنوز فيها باقية
ووجدوا مايكفي دون عناء
لحم وشراب ومؤن
وعند الفجر عندما استيقظ رتشارد
وهو الذي لايمكن لأحد أن يعارضه في أفعاله
جاء المسلمون الى حضرته
ورجوا أن يتخذوا الاسم المسيحي

وقبلوا أن يحملوا الصليب
وكان هناك أربعين ألفا
واقاموا كنائس بالقانون المسيحي
وقرروا أن يتخلوا عن الله
والذين لم يقبلوا بالصليب
ألقى بهم رتشارد في الخندق
وجمع كل الكنوز العظيمة
التي في المدينة بفخر كبير
والايرل والبارون والفارس والخادم
الملك أعطى لكل منهم ثروات كبيرة
واقاموا هناك أربع عشرة ليلة
واستجمعوا في أحد الأيام قوتهم
وبدأوا يركبون في اتجاه بيت المقدس
وتكلم الملك فيليب بافتخار
أيها الملك رتشارد أرجوك أن تصغي الي
ان بيت المقدس تلك المدينة الغنية
مع أنك ربحتها ، ستكون لي
قال رتشارد :بالرب والقديس أوغسطين
مع أن الرب سيضع روحي في الجحيم
من كل ماأربحه لن ، نصف قدم
تنال مني من أي أرض
واحثك على أن تفهم ذلك !
ثم قال الملك ، « اذا كنت تريدها
اذهب وخذها برجالك !»
رتشارد قال أكثر من ذلك : « ان عرضي هنا ،
ولن أقترب من هذه المدينة»
وكالقوس انحنى الملك رتشارد ،
وبفلورين(٢) الى المدينة أرسل
اشارة الى الملك فيليب
أن يسوع قد مجد في هذه الرحلة

ومن الغضب وقع ملك فرنسا مريضا
ولم يستطع العلق أن يشفيه من بريته
وخشي أنه لن يشفى أبدا
مالم يذهب ليقيم في فرنسا
وأفهم المستشارون هذا الملك
وقالوا إنه الشيء المناسب
استعدت سفنه عندئذ للرحيل
وعبر البحر يوم عيد جميع القديسين
وقال رتشارد:بعداء
قد ارتكب شرا عظيما
أن يعود الى الوطن من أجل مرضه
وأن يعبر البحر من هذه الارض
قبل أن ينتهي كل عمل الرب
الذي بدأه إما بالحياة أو بالموت
لم يمكث ملك فرنسا هناك
بل رحل في جومهين
وبعد أن ذهب أقسم
أنه يحمل لرتشارد كراهية أبدية
وذهب الملك رتشارد بكل حشوده
الى يافا على ساحل البحر الدافىء ،
وكان سرادق الملك جميلا ونظيفا
وقد أقيم في حديقة هناك
وانتشر بقية اللوردات على مقربة منه
مع كل سرادقاتهم بفرشها
وقام الملك رتشارد ورجاله جميعا
باعادة بناء سور المدينة
ولم يبن المسلمون أبدا مثل هذا
السور القوي الطويل حسن البناء
وكانت القلعة هناك قوية وحصينة
ولامثيل آخر لها في كل أنحاء العالم

ويمكن أن يأتي اليها من جانب البحر
كل أنماط السلع في وفرة عظيمة
وشكل حرسا من الفرسان النبلاء
الاقوياء بالتسليح والاقوياء في القتال
وكان هناك كثير من الرجال ليركبوا حولها
ليجعلوها آمنة بلا شك
وسكن الملك رتشارد هناك بفخر
حتى أصبحت هذه المدينة آمنة
ومن هناك ذهبوا الى مدينة كالوين
ووجدوا كل أسوارها مهدمة
وأحاق بتلك المدينة المدمرة بؤس كثير
وحمل لهم رتشارد شفقة كبيرة ،
وجمع هناك أعيان المدينة
وأمرهم بإعادة بناء السور
وتعهد هو ببناء نصفه
برجاله خاصة الاقوياء المهرة
ووافق الأعيان هناك ، كلهم

ولم يبن المسلمون أبدا مثل هذا
السور القوي الطويل حسن البناء
وكانت القلعة هناك قوية وحصينة
ولا مثيل آخر لها في كل أنحاء العالم
ويمكن أن يأتي اليها من جانب البحر
كل أنماط السلع في وفرة عظيمة
وشكل حرسا من الفرسان النبلاء
الاقوياء بالتسلح والاقوياء في القتال
وكان هناك كثير من الرجال ليركبوا حولها
ليجعلوها آمنة بلا شك
وسكن الملك ريتشارد هناك بفخر
حتى أصبحت هذه المدينة آمنة

- ٤٣٣٩ -

ومن هناك ذهبوا الى مدينة كالوين
ووجدوا كل أسوارها متهدمة
وأحاق بتلك المدينة المدمرة بؤس كثير
وحمل لهم ريتشارد شفقة كبيرة
وجمع هناك كل أعيان المدينة
وأوهم باعادة بناء السور
وتعهد هو ببناء نصفه
برجاله خاصة الأقوياء المهرة
ووافق الأعيان ـ هناك كلهم
على تنفيذ رغبته
إلا دوق النمسا
وكانت فكرته أن يخدع الملك
وبدأ الملك رتشارد عمله الشاق
حول الأسوار دون توقف !
الأب والابن والعم والأخ
فخلطوا الملاط ورصفوا الأحجار
وعمل كل واحد منهم بكل قوته
وكل ملك أو حاكم هناك
حمل الأحجار في الجـو شـديد الحـرارة والرطـوبة
إلا الدوق المليء بالغرور
فلم يكن ليساعد ، بل بقي جاذبا
وتصادف أن قابل الملك رتشارد هذا الدوق
وبلطف توقف هذا الدوق ليحييه
وهناك وجه اليه رتشارد مطلبا
في أن يزيل رايته من على السور
فأجاب الدوق بهذه الطريقة
لم يكن أبي نجارا
ومع أن أسوارك بدأت تهتز

إني لن اساعدهم أبدا في اصلاحها
وعند هذا بدأ غضب الملك رتشارد يتأجج
وحملق مغضبا بالدوق
ثم ركل الدوق في صدره المتعجرف
واندفع بسرعة تجاه الدوق
فسقط الدوق عن مقعده
ورقد الدوق على الأرض منبطحا
« تبا لك أيها الشيطان الجبان الكريه !
أرجو أن تعاقب بشدة في الجحيم !
اذهب بسرعة من هذا الحشد الباسل
لأنك ملعون من روح القدس !
وبالجانب الدامي من يسوع الجميل
أعتبرك خائنا هنا معنا
خلال أيام العمل الثلاثة التالية
سأقيم حظر عليك
أيها الخائن ، أننا نعمل ليل نهار
في الحرب ، في اليقظة وفي القتال
بينما تعيش أنت هنا كنهم كريه
وترقد في سرادقك
تشرب نبيذك الطيب القوي
وتنام مرتاحا طوال الليل
لسوف أدمر رايتك التافهة الحقيرة
ولأرمين بها في النهر الكريه !
وقد شعر في قلبه بكثير من الكراهية
وأقسم أنه سوف يرد له الاهانة
وأقسم بيسوع في ثالوثه
انه ماأن يرى رتشارد في وقت ما
سينزل به هناك انتقامة
الذي عنه من الآن فصاعدا سوف يتكلم العالم

- ٤٣٤١ -

وحمل حقده عميقا في قلبه
ليلق في الجحيم وليغرق مخلدا
من خلال خيانته وغدره
ومن خلال مكر الجاسوس
الحق بالملك رتشارد العار (٦٠١٥)
مما جعل كل انكلترا تلتهب

في الأبيات : ٦٠١٦ ـ ٦٧٢٢ بعد أن رحل دوق النمسا مع قواته بدأ رتشارد والصليبيون الباقون السير نحو بيت المقدس وقد خططوا للاستيلاء على المدن الاسلامية على طول الطريق لتجديد مؤنهم وحاصر رتشارد مدينة دارون (داروم) واستولى عليها وفيما هو مرتاح هناك ومعه رجاله وقبل ان يستمروا وفق خطتهم للاستيلاء على بيت المقدس ، تلقى رتشارد خبرا يفيد أن أخاه الأمير جون قد اغتصب عرش انكلترا ، وأنه كان يخطط لكي يتوج ملكا في عيد الفصح ، وسخر رتشارد من الفكرة وتابع حملته العسكرية .

وبعد ذلك بوقت قصير نقل جاسوس خبر اقتراب قافلة غنية بشكل خيالي بما تحمله من الذهب والجواهر والمؤن الى صلاح الدين ، وهاجمها رتشارد واستولى على هذه الغنيمة واهتاج صلاح الدين غضبا لهذه الخسارة الكبيرة وقرر مهاجمة يافا لأنه اعتقد أن رتشارد كان في عكا ولن يكون في يافا للدفاع عنها ، وبافتتاح بوابات المدينة ، أجبر صلاح الدين المسيحيين على اللجوء الى البرج ، ولكنه على الرغم من محاولته بكل قوته لم يستطع الاستيلاء عليه ، وفي تلك الأثناء هرب رسول من المدينة المحاصرة وأسرع ليروي للملك رتشارد الخبر في عكا ، وصعد الملك الانكليزي على الفور الى سفينته لينجد رجاله .

والآن أنصتوا لسماع قصتي الصادقة
مع أني لاأحلف لكم بأي يمين
لن اقتبس أخبار أعمال خيالية (٦٧٢٥)

لبارتنوب أو ابيو ميدون
أو عن الاسكندر أو عن شارلمان
ولاعن آرثر ولاسير غاوين
ولاعن السير لونسيلوت سيد البحيرة
ولاعن بيفيس ولاغي ولاالسير-ريك
ولاأو ليفر ولاأوكتافيان
ولاعن هيكتور ، الرجل القوي
ولاعن جاسوس الهرقلي
ولاعن انياس ولاأخيل
أقسم أبدا ، اني كما أقول
أنه في زمن يومهم الشجاع
لم يفعل أي منهم شيئا باسلا
ونجح هكذا في معركة قوية
كما فعل الملك رتشارد دون اخفاق
في يافا في سابغة قوية من السلاسل
ببلطته وسيفه القوي
ليغفر لروحه من قبل ربنا !
وحدث قبل اكتمال منتصف الليل
أن القمر والنجوم ظهرت كلها مكتملة البهاء
وجاء الملك رتشارد الى المدينة
ومعه شوانية ، كلها أو بعضها
وحدقوا وتشوفوا نحو القلعة القوية
فلم يسمعوا صوت مزمار ولاناي
وجروا السفن قريبا من اليابسة
ليروا اذا كان بامكانهم الفهم
ولكنهم هناك لم يستطيعوا رؤية أية فرسان شجعان
أو يسمعوا صوت مغن جوال
أو يروا أي حياة في القلعة هناك
ثم تزايدت في حينه دقة الملك رتشارد التامة
وقال :« واأسفاه » أني ولدت

-٤٣٤٣-

إن رجالي الشجعان الطيبين كلهم بائسون !
فقد قتل روبرت ليستر
الذي كان معلمي الكيس
ولم يكن أحد هنا جديرا بهذا الفارس
وروبرت ذورنهام ، الذي كان لامعا جدا
والسير برترام والسير بيبارد
الذي قاتل بشدة في المعركة
والبارونات الآخرون بجانبه
وهم أفضل كل جيوشي على سعتها
وقد قتلوا أو جرحوا جروحا مؤلمة
كيف يمكن لي أن أعيش أطول بناء عليه ؟
لو أنني هنا في وقت أبكر
ربما أمكنني انقاذهم من هذه الجريمة !
حتى أرد على صلاح الدين
في الحقيقة اني لن أحصل على سروري
وهكذا تفجع الملك رتشارد هناك
حتى بدا الفجر عاليا في الجو
وجاء خفير الى الشرافات فوق السور
وبنايه أرسل أغنية
ونفخ فقط بضع نفخات واضحة
حتى جلب لهم بهجة كثيرة
ونظر من مكانه العالي الى اسفل
نحو اسطول رتشارد في ذلك المجال البحري
وعرف السفن الصغيرة والكبيرة هناك
ثم نفخ نغمة مرحة
وصاح بصوت مرتفع هكذا :« أيها المسلمون
جاء ملكنا المسيحي الينا !
وعندما سمع المسيحيون هذه الصيحة ،
ارتفعت أرواحهم المعنوية عندئذ عاليا
الايرل والبارون والتابع والفارس

- ٤٣٤٤ -

وتسابقوا رأسا الى المتاريس
ورأوا الملك رتشارد سيدهم الشجاع
وحيوه بكلمة لطيفة
« مرحبا ياسيدي ، باسم الرب العزيز !
ذهب الآن ، كربنا والعار كله »
ولم يكن قد عرف أبدا مثل هذه التحية
وكان حبهم العميق له باديا
وصاح :« الى السلاح ، واستعدوا الآن جيدا »
ودفع هكذا بأولئك الذين كانوا معه
« فليس لنا من الحياة سوى واحدة
سنبيعها غالية وكل من اللحم والعظم
ولأنه من أجل المطالبة بتراثنا
سوف نقتل الشياطين في هياجهم الشرير !
والذي يخاف هنا هذا الخطر الكريه
سوف لايرى أبدا وجه ربنا العزيز !
وسآخذ بلطتي بيدي
تلك التي صنعت في انكلترا الجميلة
وسوف ترى هذا اليوم عملا جيدا
وستكون لعنة على كثير من المسلمين
فلم أعد أخشى دروعهم
وسوف أثابر فوقهم
من خلال بركة الرب في الثالوث
وسوف يرى كل الناس الحق هذا اليوم »
وكان هو أو ل من قفز الى الأرض
وقتل اثني عشر في كومة واحدة
وصرخ عاليا بصوت قوي واضح
أين هم المسلمون ، فليتباهوا هنا
من الذين طالبوا بهذه المدينة النبيلة ؟
انهم سوف يروضون ببلطتي العريضة
وهذا قسم حلفت ان أفعله

وشرب طاس نخب من الوسيل أيضا !
وراهن على مثل هذا القتال الهائج
وبأن سيقتل كل المسلمين الذين تحت بصره
وهرب المسلمون من كراهية رتشارد
ومن فوق تسابقوا خارجين عبر البوابة
وفي قلوبهم شعروا بمثل هذا المصير
وهم يتسابقون نحو البوابة في وجوم
وهربوا من المدينة من فوق الأسوار
وقفزوا الى الأسفل من كل جانب
وكسر بعضهم سوقهم وبعضهم أعناقهم
بينما كانوا يهربون مبتعدين دون توقف
وكان كل واحد يصيح بهذه الطريق
كما سوف تسمع حالا فيما بعد
"Malcan stran nair abru
Lon Permoir toir me moru"
وهذا يعني بانكليزية واضحة
« اذا لقينا سوف نقتل
على يد هذا الشيطان الانكليزي هذا اليوم
فلنهرب بسرعة بعيدا عن طريقه »
وهرب المسلمون خارجين من المدينة
ولم يتركوا في خوفهم واحدا حيا
بل اربعمائة أو ربما خمسمائة
من الذين قتلهم رتشارد عندما وصل
ووضع حراسه عند كل بوابة
وامر بأن تجهر الخيول دون انتظار
وقفز فوق جواده فاقل
وقد تسلح جيدا بالحديد والصلب
وسلح الناس بأسلحة قوية
بالدروع التي جلبها معه
والعديد ممن خرجوا من حجر القلعة

عمل على أن يتسلحوا بشكل مكتمل جدا
وركب الملك رتشارد خارجا من البوابة
والتقى في الخارج بملكين مسلمين
مع ستين ألف فارس مسلم
مع ألوية عريضة ودروع لامعة (٦٨٥٠)
وضرب رتشارد فوق خوذة احدهم
ونحو السرج انشق هذا الملك طوليا
وضرب الآخر فوق القلنسوة
وبلل سيفه بدم مسلم
وداويته وباروناته الشجعان (٦٨٥٥)
حاربوا بضراوة كما يفعل سبع هائج
وقتلوا المسلمين في هذا الهجوم
حيث لم يشعروا برحمة نحوهم
ورأى المسلمون أن لاعون وراءهم
فهربوا بعيدا في اضطراب كئيب (٦٨٦٠)
الى حشد صلاح الدين الكبير
على بعد خمسة عشر ميلا تماما فوق الساحل
ثلاثون ألفا على الأقل
في ذلك اليوم تناقصت قوة المسلمين
حيث أن دروعهم ذابت كالشمع (٦٨٦٥)
أمام بلطة الملك رتشارد القوية
وكان العديد من المسلمين وهم يرتجفون
يستسلمون لملكنا النبيل
أخذ من أجل الفدية عشرات عديدة
وقتل ألف رجل أو أكثر (٦٨٧٠)
وطارد المسلمين الهاربين بعيدا
حتى وقت المساء
وركب رتشارد حتى حل الظلام
وحيث أنه ضرب العديد هناك
لم يعد أحد يستطيع هكذا حسابهم (٦٨٧٥)

كل الموتى أو مقدارهم
ركب الملك رتشارد خارجا من المدينة
ونصب هناك سرادقة
وفي تلك الليلة بقلبة اللطيف
أراح البارونات لدورهم الشجاع
والآن سوف تسمعون كيف جرت الأمور في الغد
كان يوما للأسى لدى المسلمين
المعركة العظمى كما فهمت
التي لم يكن لها مثيل قط في أي أرض
واذا كنت ستسمع عن هذه المعركة
اسمع الآن واعط أذنا !
بينما جاس رتشارد لوجبة المساء
وأخبر باروناته أنهم يجب أن يشعروا بالشجاعة
ورفههم بكثير من النبيذ الجيد
جاء مبعوثان بخطة كريهة
ووقفا أمام مقعد الملك رتشارد
بلحى رمادية طويلة وخداع
ودخلا راكبين على بغلتين قويتين
وكانت عباءاتهم من الحرير والذهب مع دبابيس تزيينية
وكل منهما يمسك بيد الآخر
وقالا : أيها الملك رتشارد افهم الآن
ان سيدنا صلاح الدين ، ملكنا النبيل
ارسلنا اليك متسائلا :
اذا كنت فارسا مجازفا جدا
لتبقى هنا كل هذه الليلة
حتى الغد عندما يظهر ضوء الفجر في الجو
وعندها ستتخلى عنك السعادة
لأنه من أجل فرسانك الشجعان وباروناتك
لن يعطيك زرين سميكين
وسوف يأخذك بقوة اليدين

- ٤٣٤٨ -

لأن لديه رجال من أراض كثيرة
من مصر ومن تركيا البعيدة
ومن اليمن ومن شبه جزيرة العرب
ومن بلبيس والنوبة
وفرسان شجعان جسورين للدفاع عنه
من مصر ومن سورية
ومن الهند وكبدوكيا

ومن فارس ومن خراسان
ومن نابلس ومن القاهرة
مائتا فارس دون وهن
انضموا الى خمسمائة من عند السلطان
والارض المحيطة تحمل بالكاد
الناس الذين جاؤوا الى هنا اذا جرؤت
وبناء على نصيحتنا ارجع واقم على مقربة من قلعة يافا القوية
فهناك يمكن ان تكون في أمان
حتى تبعث في طلب تعزيزاتك
واذا رأيت أنه ليس في امكانك أن تصمد
عد مرة اخرى الى بلادك
وهكذا يمكنك ان تهرب من هذه الفعال
عد الى ارضك بالبحر
وفي غضبه امسك ريتشارد برغيف
وبيديه مزق قشرته عنه
وقال لذلك المسلم :
« ليعطيك الرب ضربة مشؤومة !
انت وسيدك صلاح الدين
وليشنقك الشيطان بحبل !
على نصيحتك وانبائك
وليجلب الرب لك نهاية كئيبة !

والان اذهب وقل لصلاح الدين
اني على الرغم من ارادة ربه
ساقيم هنا كل الوقت
مع انه سيأتي هنا صباحا
ارجو ان تخبره اني في الغداة سوف
اخمر له شرابا من الاسى الدموي
واذا جاء ذلك الكلب الي
ستكون بلطتي القوية هي عقابه المحزن
واخبر سيدك اني اتحداه
هو وكل صحبته اللعينة !
اذهب الان بسرعة واخبره هكذا
ان عليه اللعنة من يسوع العزيز!
وذهب الرسولان الى صلاح الدين
واخبراه بكل ماجرى حيث كانا
فدهش الامير ثم بدأ يقول :
ان الملك رتشارد ليس رجلا ارضيا :
فهو اما شيطان او قديس
فقوته كما أرى لاتضعف أبدا
وعلى الفور بدأ يعطى أوامره
ركب تلك الليلة تجاه حرس رتشارد
ليأسر ملكنا الطيب رتشارد
واخذ هذا من ملكنا قليلا من الاهتمام
ونام كل الليل هناك
حتى تخلى الليل عن مكانه للفجر
عندئذ سمع صرخة حادة تلفت الانتباه
اذ جاء ملك من السماء برغبة من الرب
وقال له بنصيحة جريئة :
« قم واركب جوادك فاقل
وعد مرة اخرى الى قلعة يافا !
لقد استرحت فترة كافية !

ستجد طريقك وعرا !
قبل ان تصل الى تلك المدينة
سوف تهاجم انت وبطانتك
وبعد المعركة اوقف هذه الحرب الصليبية
واعقد صلحك مع السلطان
ابرم هدنة ودع جماعة باروناتك
يتابعون سيرهم لاداء حجهم
الى الناصرة وبيت لحم
والى الجلجلة وبيت المقدس
ثم دعهم يسافرون بعدئذ نحو أوطانهم
وعد بعدهم مع رجال بحريتك
لان لك اعداء كما اعرف
هنا وفي ارض موطنك
« قم » قال الملاك ،« وبادر بكل سرعة !
لم يكن لك ابدا حاجة أعظم !»
وعندما سمع رتشارد قول الملاك
قفز فوق فافل حصانه الجيد
وصاح بصوت مرتفع ،« ربي العزيز
الذي استدفرتنا جميعا من اجل يسوع الحبيب! »
ونفخ بوقه وصاح « لاتنتظروا !»
بيد انه تقريبا بدأ متأخراً جدا
لان صلاح الدين وكل حرسه
كانوا بين يافا والملك رتشارد
وهناك جاء من الظلام
ليتغلب على الملك رتشارد
وسبب هذا لريتشارد الما شديدا
لانه لم يعد بامكانه ان يرتد الى حشوده :
ولكنه مضى قدما فوق حصانه فافل :
وامسك برمحه جيدا وباحكام
وبذلك قتل وهو على حصانه القوي

ثلاثة ملوك سمر من قوات السلطان
وكان حصانه قويا وسلاحه جيدا ،
ولم يصمد امامه حصان ولاانسان
وضرب بقوة على رؤوسهم
حتى انهم سقطوا على الارض ميتين كالحجارة
وكل من رأى هدوءه
سيحتفظ دائما بذكراه
وهاجموه بكثافة البراغيث
كما يفعل سرب نحل الخلية الغاضب
وكنسهم عن ظهور خيولهم الى الارض
كما يفعل الدب في الغنم
وبدأ الرجال الانكليز والفرنسيون الركوب ملتصقين على ان يكونوا بجانبه ،
وعلى المسلمين تسابقوا بلا توان
بسيوف مكشوفة ورماح قوية
وانزلوا الضربات بكل قوتهم
وقتلوا المسلمين مباشرة
ولكن هذه الوفيات كانت ذات عون ضئيل
لان اعداد كبيرة جدا من المسلمين اصطفوا هناك
وكان الذبح في هذه المعركة
لايمكن ان يرى مثله في اي ليلة اخرى
وكان هناك مستنقع خارج اسوار يافا
بعرض ميل واحد اجمالا
وعلى الرغم من كثرة المسلمين فان سيدنا ريتشارد
دفع بثلاثة الاف منهم الى المستنقع
وهناك استطاع المسلمون ان يروا رجالهم
كالبجع يقعون في شرك المستنقع
واولئك الذين تحرروا خارجين
اجبرهم ريتشارد غاضبا على الرجوع
فمنهم من غرق ومنهم من قتل

وفقد السلطان من مملكته
ستين الف رجل وحصان
كما قيل في مصدري الفرنسي
وركب الملك رتشارد حصانه مرة اخرى
ليساعد رجاله بالقوة والعزم
فمرة هو هنا ومرة هو هناك
ليرشد رجاله بسيفه المشرع اللامع
ولم يحدث قبلا ، كما سمعت يقال
ان قمع رجل واحد مثل هذه الكثرة من المسلمين
وفي وسط الخطر هناك
رأى الملك رتشارد في يأسه
عمه السير هنري الشمباني
يسقط من على فرسه على ارض السهل
وهاجمه المسلمون وهو راقد هناك
ليقتلوه وهو في يأسه العميق
وكان سيقابل في ذلك اليوم وجه ربنا
مالم يأت الملك رتشارد بصوت مثل الرعد
« ياربي العزيز ان هذا الفعل لن يسرك !
انك هذا اليوم يجب ان تقي عمي
من هؤلاء المسلمين الكريهين في الميدان »
وصاح :« يافرساني يقع على عاتقكم الان »
أن تجعلوا هؤلاء المسلمين الفاسدين مكروبين
وسوف اقود بنفسي هذه المعركة
اذا عض رأس فأسي المسلمين
راقب الرجال هناك عزمه وقوته
كيف هدر دم المسلم والمخ
فوق هذا الميدان الذي كان اخضر ، في ذلك اليوم
وبعث بالمسلمين على طريق الشيطان
بالضربات التي اشتراها المسلمون
ويمكن للمرء ، ان يرى اين قاتل رتشارد

وجاء فرسان الداوية ليساعدوه في تحطيمه
وبدأ هناك صدام قوي :
فكالوا ضربات قوية وجيدة
حتى سال الوادي بالدماء
وكان لونغسباي فارسا صنديدا
ولدى ازدياده غضبا ، بدأ في القتال
وكان فولك دويلي يقاتل ايضا
وكذلك توماس مولتون بشدة
وحيث ركب هؤلاء الصليبيون انفسهم
شقوا بالذبح ممرا عريضا
حيث يمكن لاربع عربات كبيرة ان تسير متجاورة
وجمعوا عددا كبيرا جدا من المسلمين
ومات على كلا الجانبين العديد من المقاتلين
الاقوياء الجسورين ، ولم يعد من مزيد للركوب
واخيرا وبألم شديد
انقذ الملك ريتشارد ايرل شامبين
وساعده على العودة الى ظهر حصانه
الذي كان قريبا منه ليلبي حاجته ،
وجعله يعدو بجانبه
وان لايبتعد عنه قدما واحدا
وجاء مبعوث بخد متورد
وسأل عما اذا كان رتشارد هناك ليتحدث اليه
وقال : ياسيدي العزيز ، من اجل الاحساز
عد على الفور الى مدينة يافا !
ان كلا من الجبل والسهل قد غطيا :
الملك الاسكندر والملك شارلمان
لم يواجها ابدا مثل هؤلاء الاعداء ، يامولاي
كما ان المدينة محاصرة الان
وقد اشلعت الابواب كلها بالنار
وتراجع رجالنا من الحرارة

ولاحد يستطيع الركوب داخلا او خارجا
سيدي لقد اصبحوا في شك كبير حولكم
لانه ربما لن يمكنك الركوب الى المدينة
لان عددا كبيرا جدا من الاعداء باقون في الحقول !
ويجب ان احذر بلاتوقف او انقطاع
من ان حملتك كلها ستكون في خطر كبير
والبطريرك في ايديهم
وجون دي نسل ميت على الارض
ووليم الارسوري والسير جيرارد
وبرترام براندیز ، اللومباردي الطيب
كل هؤلاء قتلوا وعديد اخرون !».
وشعر الملك رتشارد بقلبه يزداد الما
وصاح يجب ان نتسابق الى يافا
كل رجل باسلحته في المكان !»
واحتشد الوف من المسلمين امامه
بسيوف عريضة ورماح قوية :
وبصوارم وأعمدة قوية
ودفعوا الملك رتشارد بينهم وحولهم
فقتلوا فافل من تحته
وعندها تجهم ريتشارد وغضب
وسحب بلطته القوية بيده
وقتل بالحال ذلك المسلم نفسه
الذي قتل جواده النبيل :
وعليه فقد حياته في الواقع
فحارب على قدميه في كل جانب
ومات العديد على يديه هناك
كل ماامكن لبلطته القوية ان تضربه
وقتل خيولا ورجالا مباشرة
بعضهم من امامه وبعضهم من خلفه

الف واكثر كما وجدت في كتابي
قتلوا هناك وهو على قدميه
ولم يعاونه احد ، وهو يلقى بهذه الضربات
وبدأ ابنا صلاح الدين في الركوب
وركب عشرة الاف مسلم بجانبهما :
وصاح احدهما بصوت عال للملك ريتشارد
« استسلم الان ، ايها اللص والجبان الكريه !
والا سأقتلك في هذا المكان !
وصاح ريتشارد انت تكذب ، بنعمة الرب !
وببلطته ضربه فعلا ،
فشق ذلك الفارس المسلم الى نصفين
وسقط نصف جسده على الارض
وكان النصف الاخر مايزال في حزام السرج
وقال رتشارد :« منذ أنا آمن
وركب الآخر ليستولي على حياة رتشارد
وفوق جواده وباندفاع مخيف
معتقدا انه سيسحق رأس الملك ريتشارد
واصابه بجرح من خلال درعه السميك
وسبب هذا للملك رتشارد كثيرا من الالام بات عليه تحمله
ففوق سنان الرمح سم كريه
واعطاه الملك ضربة قوية جدا
وسقط ذلك الرجل وحصانه قتيلين على الارض
فقال له « ارقد هنا ايها الكلب الكافر !
لن تتمكن ابدا من نقل الاخبار الى صلاح الدين
اذك سببت لي فقدان حياتي ! »
وركب خمسة امراء من المسلمين نحو رتشارد
ومع كل حشدهم أبدوا كراهيتهم
واحاطوا بملكنا النبيل
واعتقدوا انهم جلبوا له موته
والملك ريتشارد في قليل من الوقت

جازى الامراء الخمسة على جريمتهم
ومئات عديدة اكثر بجاذبهم
من حشود المسلمين الذين ماتوا حوله
واخيرا مع انه كان متأخرا
حارب الملك ريتشارد نحو بوابة يافا :
وعندها شعر رجالنا المسيحيون بالامان
وانهم امام الاعداء يمكن ان يصمدوا طويلا
واحضر ايرل ليستمر ، وسيررروبارد
للكنا رتشارد جواده ليارد
وركب رتشارد بقفزة قوية
وطارد المسلمين كما تطارد الذئاب الغنم
طاردهم رتشارد حتى جن الليل
وكل من لحق به ضربه
وكان هناك قتلى من المسلمين
الف الف من الرجال المسلمين
وفي تلك الليلة والحق اقول رتشارد
قفل عائدا الى يافا شاعرا بالسرور
وشكر الحبيب يسوع ، ملك المجد
وامه على هذا النصر :
حيث منذ بدء الخليفة
لم يربح مثل هذه الحرب المجيدة ابدا
وعند الفجر أرسل روبرت سابويل
والسير وليم ويترول
وهيوبرت وروبرت تورنهام
وولتر جيفورد ويوحنا مقدم الاسبتارية
ورجاهم ان يقولوا لصلاح الدين
« انه ضد خمسة وعشرين رجلا
يمكنه ان يقاتل في ارض الميدان
ليحمي حق مولانا العزيز
فاذا ربح ، فانه عندئذ يأخذ الارض

لتبقى الى الابد في ايدي المسيحيين
واذا امكن للمسلمين ان يقتلوه
تحكم الارض بطريقة السلطان
واذا لم يوافق السلطان
قولوا : « لثلاث سنوات ، وثلاثة شهور وثلاثة ايام ٧١٨٠
اطلب هدنة من السلطان
لأسافر إلى الوطن وأعود مرة أخرى
وبدأ الرسل يركبون
وطلبوا من السلطان ان يقرر
هو لم يكن ليقبل بقتال ريتشارد : (٧١٨٥)
فقط خمسة وعشرون ضد قوة رتشارد
قادما وعند الفجر إذا ركب رتشارد
ينبغي ان تبدأ هذه الهدنة بينهما
هكذا اخبر الرسل
واخبروا ملك الصليبيين (٧١٩٠)
وعند الفجر ركب السلطان في المقدمة
ليعقد الهدنة مع الملك رتشارد :
بعد انقضاء ثلاث سنوات من عودتهم الى ديارهم
من عكا كل من سيقدم الى هنالك
ثم بعد ذلك لكل السنوات الثلاثة ٧١٩٥
الرجال المسيحيون من بعيد وقريب
يتخذون طريقهم الى بيت المقدس
الى الضريح والى بيت لحم
والى جبل الزيتون والى الناصرة
والى عمواس بنفس تقي (٧٢٠٠)
ولا احد على طريق الحج
سيعاني من الاذى او الضرر الحزين
ملكنا رتشارد قوي اليد
انعطف عائدا باتجاه بلاده الى انكلترا
وحكم ملكنا الشجاع هنا (٧٢٠٥)

-٤٣٥٨-

ليس اكثر من عشر سنوات ماجدة قصيرة
ثم بطريق الخيانة أطلق عليه سهم
في قلعة غيلارد من خلال مؤامرة شريرة
هكذا انتهى رتشارد ، اشجع ملوكنا (٧٢١٠)
ليمنحنا الرب جميعا نهاية طيبة
ولتستقر روحه هادئة وصادقة
وارواحنا كذلك عندما تأتي الى هناك آمين

المحتوي